لعنة الكادميوم

ابتسام تريسي

لعنة الكادميوم

لعنة الكادميوم

ابتسام إبراهيم تريسي

لعنة الكادميوم

تأليف: ابتسام إبراهيم تريسي
مراجعة لغوية: محمد حسن

الترقيم الدولي (ISBN): 1-689-02-9948-978

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2017

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2017
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني
للإعلام المرجع: 128970
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

KALIMAT GROUP • مجموعة كلمات

الإهداء

إلى فانيسيا مارزولو، وغريتا راميلي

عباس خان، وعبود حدّاد

يقول أوجست كانت:

«لا يمكننا أن نعرف -بصورة كاملة- سوى الحقائق التي نلمسها،
ونتأكد من وجودها بالتّجربة!»

العاصفة هدى

2 شباط، 2015

لم تنتهِ المعركة بيني وبين سندريلا الزهور، لكنّ الثلج غطّى السّهل الواسع، ولم يعد بإمكاني أنا والمهندس جمال أن نعمل في هذا الطقس العاصف الذي لم يمر مثله على البلاد منذ سنوات طويلة! لذا وافقت على السفر حين أرسل لي لورينزو رسالة يخبرني فيها أنّه أنهى تصوير الفيلم، واستقرّ في جبل الزاوية مع شباب يقومون بنشاط إعلامي وتثقيفي، وطلب مني أن آتي إليه، إن أحببت المشاركة في هذه التّجربة الاستثنائية؛ وأيضاً لأنّه يحتاجني!

لم يكن الثلج قد توقف عن التساقط حين وصلت سراقب حيث ينتظرني الشاب الذي سيرافقني إلى الجبل.

تذكرت، والسّيارة تتحرّك بنا بصعوبة، وسط طريق تراكمت فيه الثلوج، عندما كنت طفلة في الثامنة من عمري، في الثاني من شباط عام 1968 وأمّي تلد فريدة، كان الثلج قد تراكم، إلى درجة سدّ باب

الدار وقسم شجرة الزيتون الملاصقة للباب نصفين. امتلأ الفضاء البارد بصراخ أمّي، وأنا أرتجف في زاوية الغرفة خوفاً!
أخرجتني جارتنا، وطلبت مني الذهاب إلى الدكّان في القرية؛ لشراء علبة كبريت، أطبقت يدي على النقود، وخرجت. كان والدي قد جرف الثلج مسافة مئة متر بعيداً عن الباب، حين تجاوزتُ تلك المسافة، غاصت ساقاي في الثلج، وتسرّب إلى داخل جزمتي ذات الساق الطويلة. شعرت بالبلل في قدميّ، ثمّ بحرارة، أعقبتها حكّة شديدة. لم أستطع أن أحمي وجهي من الريح الصقيعية، الماء يتساقط من أنفي، والدّموع من عينيّ. لم أستطع السير سوى مسافة قصيرة، ثمّ عدت أدراجي. خلعت جزمتي، وجواربي أمام الباب، ودخلت. كانت معركة أمّي مع الطلق قد انتهت. رأيت المولودة مرمية على الأرض والداية تغسل يديها. سمعتها تقول: «عوضك على الله، على كلِّ حال هي مجرد بنت!»
المولودة بدت قطعة هامدة من اللحم، لكنّ الجارة انتبهت أنّ «شرياناً» في رقبة الطفلة ينبض! حَمَلتْها بسرعة، وخرجت بها إلى الحديقة، وغطّستها بالثلج. حينها سمعت صراخ شقيقتي. أدخلتها الجارة، ولفّتها بالقماط، وأحاطت رأسها بشاشية بيضاء، وقرّبتها من أمّي قائلة: «انظري، ما شاء الله، كم هي بيضاء مثل الثلج!». وبقي الجيران ينادون فريدة «ثلجة» أكثر من سنة، ثمّ تعودوا على اسمها!

قبل وصولنا إلى «دير سنبل» تعطلت السّيارة، وكانت الرّيح قد هدأت، والثلج يندف شفيفاً كالقطن. نزلنا منها، وتابعنا الطريق سيراً على الأقدام! قلت لمرافقي: «لماذا لا ندخل القرية، ونطلب المساعدة؟». ردّ

الشاب: «لن نجد أحداً يغامر بالخروج معنا!».

حمل الشاب حقيبتي، واقتطع لي غصناً من إحدى الأشجار؛ لأتكئ عليه أثناء المشي، وأستكشف موضع قدميّ. بعد مسير عشرة كيلومترات، وصلنا «إبديتا». دخلنا القرية، وارتحنا قليلاً، كان أمامنا حوالي ساعتين للمغيب. قلت له: «ألا تعرف أحداً يمكننا أن ننام عنده، ونتابع في الصباح؟» ضحك الشاب: «له يا خالة، الظاهر ما خرجك مشي، على أساس حكيت لي، إنّك شاركت بماراثون بمناسبة عيد ميلادك الخمسين!». ابتسمت لمزاحه، وقلت: «لنواصل السير إذن، أخشى ألّا يكفينا الوقت لنصل قبل مغيب الشمس».

كنت أسير خلفه، يسبقني بأمتار ركضاً، ثمّ يعود لمرافقتي، خاصة بعد أن ظهرت الكلاب على طرفي الطريق. خفق قلبي، وقلت: «منظرها غير مطمئن، لا أحبّ الكلاب الشاردة». قال الشاب ضاحكاً: «لا تهتمي يا خالة، الكلاب لا تستطيع إيذاءنا». سألته: «معك سلاح؟». قال مازحاً: «نعم، حذاء اديداس نمرة 47، كم نمرة سلاحك؟». ضحكت من قلبي، حتّى نزلت دموعي، مسحتها بكمي، وتابعت السير.

تباطأت خطواتنا مع اشتداد الريح، صارت ندف الثلج أكثر قساوة، غطّيت وجهي بشالي، ولم أعد أستطيع فتح عينيّ بشكل جيد لأرى أمامي. كنت حريصة على ألا أفقد التواصل مع الشاب، لم أسكت طيلة ساعة، سألته وبلّورات الثلج تخرّش جلد وجهي: «أما زال أمامنا الكثير؟». قال: «نصف المسافة، لو كانت خطوتنا أسرع، كنّا الآن على مشارف القرية».

شعرت بعد فترة بالإنهاك، الريح تدفعني إلى الخلف، وقدماي تنغرزان

في الثلج الخَشِيف فيصدر تحت قدميّ خَشْفَةً رتيبة بدت لي كموسيقا شتائية حزينة، لا يستطيع سماع أنينها إلاّ أحمق اختار السير في الجبل الوعر في مثل هذا الطقس المخيف. قلت: «أريد أن أجلس قليلاً، لم أعد أستطيع مواصلة السير». اخترت صخرة قريبة من الطريق، أزلت عنها الثلج، وجلست مولية ظهري للرّيح. جلس الشاب بجانبي، وقال: «دقائق فقط، يجب ألاّ نجلس، سيبرد دمنا بعد دقائق، ولن نستطيع متابعة السير، جدي كان يحدّثنا عن مجند صديقه، عادا معاً إلى بلدنا في إجازة من الجيش، في الخمسينات من القرن الماضي، وكان الجوّ مثل هذا، لم يقبل أن يبقى في أريحا للصباح، قال لجدي إنّ أمّه تنتظره، ولا يريد أن يتأخر، لكنّه أحسّ بالتّعب في منتصف الطريق، وجلس ليستريح، وكانت استراحته الأخيرة!». قلت وأنا أحاول أن أبتسم: «يبدو أنّ هذه الحكاية مشهورة في المحافظة، أنا أيضاً سمعتها من أبي عندما كنت صغيرة، قد يكون جدك من دفعة أبي في الجيش». ضحكنا معاً... وتلاشت الضحكة، وأنا أسمع أصواتاً مريبة، أنصتُّ جيداً، لم يكن صوت الرّيح، ولا الكلاب.. قلت هامسة: «هل يعقل أن يكون هناك مجانين غيرنا يذهبون مشياً إلى الجبل في مثل هذا الطقس؟» قال الشاب: «يجب أن نتابع.. نعم يجب، وبسرعة، أخشى أن تكون الضباع خرجت من وِجَارها». حاولت أن أنهض، ألمّ بي دوار أقعدني، صارت الرؤية مشوشة، لم أعد أرى مرافقي الشاب بوضوح، لاحت لي صورة سيارة قادمة بسرعة، رأيت، كما في الحلم، آناتا وأنتونيتا قادمتان، تفتحان ذراعيهما، وضحكاتهما تملأ الفضاء!

ما قبل العاصفة

11نيسان، 2014

آناتا الحلم الذي رعيته طيلة سنوات، ورأيته يملأ أيامي بالبهجة، ويشعرني بأنّ الحياة قادرة على تعويضي بعضاً من خساراتي. وأنتونيتا الزهرة التي شممت فيها عبق النيل، ورأيت تلوّن الفجر في عينيها، وانسياب الدفء من أناملها الدقيقة، وهي تعزف على البيانو، في الليالي المظلمة، حين انفصلت عن عبد الحليم، واعتزلت العالم. أنتونيتا التي استعدت من خلالها وجود أمّي «زهرة».. ترى أين هما؟

لورينزو يصرُّ أنّ حل لغز اختفائهما لدى «الحجي» وأنا كرهت الانتظار في «الابزمو» ريثما يعود «الحجي»، كنت على يقين أنّ غيابه خدعة، وأنّه لا يريد أن يقابلنا، لورينزو كان لديه قناعة مختلفة، فهو يرى في «الحجي» مقاتلاً صادقاً لا هدف لديه سوى تحرير البلد من محتليه. لم أشأ مجادلته، فقد وافق على مرافقتي إلى سهل الغاب، لزيارة مسقط رأسي، ريثما تنتهي المدّة التي سيغيب فيها «الحجي» في حلب.

كانت تلك الزيارة الشّرارة الّتي أشعلت في قلبي كراهية تجاه الجمال

الذي تنفثه زهرة النيل، كيفما وليت وجهي في سهل الغاب.

لم أكن أتوقع أنّ هذه الزهرة الفاتنة، سترتكب تلك الجريمة، بكلّ ذلك الكم من اللامبالاة والشّراسة. الصورة الماثلة في ذاكرتي لسندريلا الزهور، صورة الفتاة الفقيرة وهي تركض بثوبها الساحر، وتاجها المزيف، وتتعثر قبل وصولها إلى العربة؛ فتفقد فردة حذائها على درجاتٍ رخامية، تنحدر منها إلى مياه النيل، وتختفي في قصر مائي عن عيون الأمير! كان ذلك من تأثير الحكايات التي حرصت أمّي على روايتها بصوت دافئ ملوّن بالحزن، والشجن، تطغى عليه بحة الغربة وشرخ الحنين، وهي تصف جدتي الّتي لم أرها أبداً لكنّي أحمل جينات تمردها، وانعتاقها من أسر المكان والزمان اللذين وُجِدتْ فيهما رغماً عنها.

لم أعد أستطيع النظر إليها بحياد؛ بعد اقترافها تلك الجريمة! أشعر بالتباس في عواطفي حدّ الخلل، وأنا أراها تكتسح سهل الغاب على يمين الطريق، بلونيها الأبيض والأرجواني، مع خضرة ممتدة على مدى النّظر!

أسمع صوت لورينزو يلامس أذني بنبراته القلقة: «أكان ضرورياً أن نخاطر بالمجيء إلى هنا؟». ابتسمت بشرود، من دون أن ألتفت إليه.. ظلّت عينايّ تراقبان السّهل بخوف وجزع. همست، وأنا أداري ارتعاش صوتي، ونبضات قلبي السّريعة، الّتي جعلت يدي ترتعش: «المنطقة ليست أخطر من حلب وريفها، اطمئن، لن نمكث طويلاً، إضافة إلى أنّهم سيكونون بانتظارنا هناك، لن يدعونا نقع في أيدي أعدائنا».

لمس كتفي، وأدار وجهي صوبه، وقال: «تبدين واثقة جداً من الشباب؟». حاولت أن أبتسم باستخفاف طاردة الخوف الحقيقي من تفكيري، فأنا أدرك جيداً أنّ ما تبقّى لي من العمر، لا يستحق أن

أقضيه في خوف لا مبرر له. منذ اتّخذت قراري بالمجيء، كنت أعرف أنّي قد لا أجد فرصة للعودة. وسط هذا القتل العشوائي والدّمار لا بدّ للمرء أن يتحسس نفسه كلّ دقيقة، ليتأكد أنّه مازال حياً! وجدت نفسي أهمس بالإيطالية: «لا تخشَ شيئاً، سنعود، وسنبقى أحياء، وستكتب كلّ ما رأيته هنا، وتصنع الفيلم، الّذي تحلم به». قال بعربية صافية: «لماذا تحدّثينني بالإيطالية؟ أتخشين السائق؟» ابتسمت ثانية، ولم أردا!

انعطفت السّيارة بحركة مباغتة وسريعة عن الطريق العام، ودخلت في طريق ترابي جانبي.. كان وجه السائق -الذي يحدّق في المرآة- ممتقعاً. بعد ما يقارب مئة متر، توقفت السيارة وسط حقل يبس زرعه. التفت السائق، وخاطبني بصوته الخشن: «بإمكاني انتظاركما هنا سيدتي، لا أستطيع التقدّم أكثر. أمامي حاجز للنظام، وبعده على مسافة كيلو متر حاجز للجيش للحر. كيف ستقطعين تلك المسافة؟». تطلعت من النّافذة.. لم أعرف المكان! أهو الزمن الذي قضيته في الغربة، أم أنّ يد الحرب امتدت إلى الأماكن كلّها فغيّرت ملامحها؟ سألته بنبرة مختنقة: «أيّ طريق سأسلك؟» لوى السائق شفتيه استياءً، كان يظنُّ أنّي ابنة البلد الّتي تعرف كلّ طرقاته.. هزّ كتفيه: «من أين لي أن أعرف، حين خرجنا من المعرة سألتكِ هل تعرفين المكان، قلتِ نعم». تلفتُّ حولي، وأنا أنزل من السّيارة، كأنّي أعرف هذا السّهل الممتد أسفل الجبل! ترى لو سرت شرقاً هل سأصل إلى البيت؟ قال لورينزو: «أعتقد أنّ علينا قطع المسافة مشياً بين الحقول، لنلتفّ خلف الحاجز الأول ونصل إلى الحاجز الثاني. أليس أصدقاؤك هناك؟».

شعرت بالقلق، فجأة تهيّأ لي أنّ كلّ ما تصورته حقيقة ثابتة، وأمراً هيّناً، أصبح بمنتهى التعقيد والصعوبة. لورينزو طرح فكرة بسيطة لتجاوز الحاجز، سيحمينا الحقل الذي اكتسحته نباتات غريبة غطّت تربته تماماً حتّى جذوع الأشجار، وكأنّ المكان لم تلمسه فأس فلاح منذ سنوات! لم يكن ذلك غريباً في أجواء الحرب المسيطرة على المنطقة، فمن سيتجرّأ على المجيء إلى أرضه، سيضع روحه على كفّه بكلّ تأكيد.

قلت للسائق: «لا تنتظرنا، من يدري إن كنّا سنعود!».

بدأنا المشي ببطء وحذر، تحاشينا المرور في الأماكن المكشوفة، وحرصنا على ترك مسافة بيننا.

لاح الحاجز من بعيد، ناديت لورينزو ليتوقف، وسرنا معاً، همست وأنا ألهث: «أعتقد أنّهم هنا». حاولت أن أُحمّل كلماتي ثقة وإيحاءً بأنّ الأمور على ما يرام.

اقتربنا من الحاجز، لم يرتفع سلاحٌ في وجهينا، لكنَّ الشباب استنفروا بالسرعة القصوى، وأحاطوا بنا من كلِّ جانب. أخرجت هويتي، وخاطبت أحدهم: «بيتي هناك على أطراف القاهرة».

تأملني، وقال باستغراب: «أنا من القاهرة، لكنّي لا أعرفك». ابتلعت غصتي، «هل من المفترض أن تعرف كلَّ أهل القرية؟». قال بثقة: «طبعاً، كلّهم أقلّ من ألف شخص، كيف لا أعرفهم!».

تابع الشاب: «والأهم، كيف مررتما من حاجز النّظام؟» قلت: «لم نمرّ من هناك، جئنا مشياً بين الحقول».

قال لورينزو: «نحن من طرف (أبو حمزة)». ضغطت يده خلسة، ليسكت. تداول الشباب على قبضات اللاسلكي الاسم، وعادوا إلينا.

قال الشاب، الذي شكّ بأمرنا: «أبو حمزة يقول، إنّه لا يعرفكما، لا نستطيع السّماح لكما بالمرور». نزلت دمعة من عيني، لم أستطع كبحها. أخرجت من حقيبتي صورة بالأسود والأبيض لأبي أيام شبابه، ناولتها للشاب: «هذا أبي، يعرفه كلّ السكّان هنا». ردّها بسرعة، وقال: «أنا لا أعرفه، كم ستبقيان هنا؟» قلت بسرعة: «بضع ساعات». قال: «حسناً ستبقى هويتك وجواز سفر مرافقك معي، ريثما تعودان».

الشاب هرب بنظراته بعيداً، أشكُّ أنّه يعرفني! إنّه يشبه أبي كثيراً، يمكن لأيّ غريب أن يلتقط الشبه بينهما. لم أتوقف عند هذه المسألة طويلاً، كان المهم عندي أنّه سمح لنا بالمرور. عاتبت لورينزو همساً: «كدت تقضي علينا، كيف تخبره أنّنا من طرف أبو حمزة؟». تساءل لورينزو ببراءة: «لماذا؟ ألم تقولي لي، إنّك تعرفين شخصاً من الثوّار بهذا الاسم؟». غصصت بالكلمات وأنا أشرح له أنّ أبا حمزة ذاك لا علاقة له بالجيش الحرّ، وهو لا يقيم هنا بل في مدينة الرقة.

كان قبر أمّي على أطراف البستان قد اندثر تماماً، حجارة الشاهدة طارت بقذيفة هاون، وغطّى العشب ما تبقى من حجارة متناثرة؛ انتشرت فوقها سندريلا الزهور كأفعى ضخمة! لم يكن البيت الذي شيّده أبي وحيداً هناك، بل تجاوزه العمران، وامتدّ شرقاً، حتّى غطّى مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية.

لم أجد صعوبة في دخول البيت، فلم يكن هناك أبواب ولا شبابيك.. البيت هيكلٌ اسمنتي تخلّى عن السّقف، وتهدّم جداره الغربي، وطارت شرفته الواسعة، ونبت العشب بين شقوق البلاط، وحفرت الزهرة الشيطانية حول الجدران خندقاً بانت منه أنابيب المياه المكسورة الّتي

تصل إلى البحرة في الفسحة الشمالية؛ حيث كان أبي يجلس عصر كلّ يوم، يدخّن نرجيلته، ويقرأ. لم يكن هناك في الفسحة أيّ شجرة، اقتلعت أشجار الزيتون، والليمون، والأكدنيا، والنارنج، وشجيرات الياسمين، ودالية العنب، ولم تبقَ العرائشُ مكانها، اقتلعت هي أيضاً.. كلُّ ذلك تحوّل إلى حطب لمدافئ الجيران! وراحت ذاكرتي المكتظة بالصور تعيد ترتيب الأشياء، لعلّي أفلح في طرد الرّيح الّتي تعصف بكلّ ما حولي، واقتلاع الجذور المتوحشة للزهور القاتلة!

تراءى لي بين المسافة الفاصلة بين السّور والبحرة.. لا يمكن أن يخدعني بصري إلى هذا الحدّ، إنّه ما زال كما رأيته آخر مرّة، قامته الطويلة الممتلئة، وجهه البيضاوي المشرق، عيناه الشهلاوان، ومفرق شعره الأبيض.. يرتدي طقمه البني والمشلح البني أيضاً، كان لونه المفضل، ابتسم لي، ومدّ يده ليناولني شيئاً ما، واختفى بسرعة! خرجتُ إلى الشرفة.. كان الفراغ الثقيل يسيطر على المكان ولا أحد هناك!

عدت إلى الداخل، كان لورينزو قد بدأ يصحو، فتح عينيه ببطء، وسألني: «ماذا حدث؟». قلت له: «أخبرني أنت؟». قال: «فجأة ارتعشت يدي وأنا ألتقط صوراً لكِ وسط الأنقاض، لم أدرِ ما الذي حصل بالضبط، كلُّ ما استطعتُ رؤيته بسرعة أنّكِ اختفيت من أمام الكاميرا، وأنّ سائلاً ساخناً ولزجاً جعل يدي تنزلق بعيداً عن الكاميرا، وصمت الكون من حولي. بقيت لحظات داخل شرنقة العدم، سكون وسواد، ثمّ فجأة انفجرت جدران الشرنقة، وسمعت صوت طلقات الرصاص الاحتفالي، وصيحات التكبير قريبة جداً! شعرتُ بيد تشدّ يدي، وتضغطها بقوة.. رأسي يلفّ، وأذناي تقرقران كأنّي أغوص في بحيرة عميقة!

فتحتُ عينيّ ببطء وحذر.. كنتِ تلفّين وشاحك على ذراعي، وتحدّقين فيّ بهلع. ابتسمتِ بارتباك، وأنتِ تقولين: «أتسمعني؟». حاولت جاهداً أن أقول شيئاً لكنّي عجزت عن النطق، وغرقت ثانية في السكون والعتمة... أشعر الآن بالدفء تحت هذه الأغطية الثقيلة، بالمناسبة، لقد ضبطتك متلبسة، لقد سمعت صوتك يهمس بآيات من القرآن!». أنصتُّ جيداً إلى أصوات الكون من حولي.. في البعيد أصوات رصاص وقذائف.. في القريب، صوت رياح قوية، ترتطم بالأشياء فتصدر قرقعة كنفير الحرب، وتمرُّ عبر شقوق الجدران، تصفر بكآبةٍ أشبه بنحيب ثكلى. اقتربت من لورينزو، دثّرته جيداً، وطلبت منه البقاء ساكناً؛ لأنّه أصيب بشظية، وأخبرته أنّ الشباب قاموا بإسعافه وأحضروه إلى البيت.

تأملته وهو نائم.. انتفض في قلبي حنين مفاجئ للحظاتنا الحميمة، تذكرت أوّل تعارفنا في حفل موسيقي «لريو» دعتني إليه صديقة ألمانية.. الهواء البارد، الأجواء الساحرة للموسيقى، والمطر الذي باغتنا في قمة النشوة والانفعال.. ركضنا في الشارع بحثاً عن موقف للباص نحتمي بمظلته، أو محل تجاري مغلق.. وانتهينا في شقته الصغيرة. كانت شقة بسيطة تعمّ الفوضى غرفتها ومطبخها ومكتبتها. لعبت دور سيدة البيت الغاضبة، رتّبت الشقة، ونظّفت المطبخ، وطهوت طعاماً خفيفاً، وقضينا ليلة ممتعة.. لم أشأ تلك الليلة أن أحدّث لورينزو عن حياتي الخاصة؛ لأنّي لم أتخيّل أنّ تلك العلاقة العابرة ستكون حدثاً استثنائياً يقلب حياتي رأساً على عقب، فقد بحث لورينزو عني

بعد أيام، واستطاع معرفة مكان سكني، وفاجأني بزيارة استحوذ فيها على قلب ابنتيّ، وانتزع مني موافقة على اللقاء مرّة أخرى. حتّى تلك اللحظة لم أكن أفكر في وضع لورينزو ضمن خططي للمستقبل، لا باعتباره حبيباً ولا صديقاً. لكن حين مرّت السنة الأولى ونحن نلتقي بشكل منتظم، قرّرت أن نتفق على صيغة لعلاقتنا تمنحنا الحريّة في الاستمرار أو الفراق من دون أن يؤذي أحدنا مشاعر الآخر.

نحن معاً الآن، في غرفة عارية من الأثاث، في زاويتها القريبة موقد حطب خمدت النّار فيه، وقرب رأسه صينية فيها صحن حساء ما زالت الأبخرة تتصاعد منه! ساعدته على الجلوس، وأطعمته بصمت. أدركَ أنّ وقتاً طويلاً مرّ قبل أن يصحو بشكلٍ كامل. قلت: «كثيرون جاؤوا للاطمئنان عليك خاصة الأطفال الذين صوّرتهم البارحة».

على الرغم من الألم، كان سعيداً بتلك التّجربة الاستثنائية الّتي جعلته يعيش الحرب بتفاصيلها.

استسلم ليديّ تداعبان شعره، وصوتي الهامس يحكي عن زمن لا يشعر بأنّه غريب عنه، فكلّ التّفاصيل الدّقيقة الّتي أرويها تشعره أنّه كان هنا يوماً! قال لي: «أرى نفسي وأنا أرافقك إلى السّهول البعيدة. نحفر أوكار النمل، ونصعد الجبل، ونختبئ من المطر بالالتصاق بجذع شجرة توت ضخمة تربض بألفة عند حافة السّهل».

لم تكن «القاهرة» تشبه بلدته الصغيرة الّتي أتى منها في الريف الإيطالي، هناك يحتفي التاريخ بالحجارة، بالشواطئ، بالطراز المعماري للأبنية، يشعر بثقله حتّى في تفاصيل الحياة اليومية. ذلك الثقل الذي

دفعه للمجيء إلى حلب.

وجوده معي الآن جعله ينسى قلقه وعدم ارتياحه للسفر إلى منطقة مجهولة لا يعرف عنها شيئاً. سألني عن سبب تسمية القرية بهذا الاسم؟ قلت: «لم تكن قرية في الأصل، كانت تجمعاً صغيراً لعدّة عائلات عمّروا بيوتهم في أراضيهم؛ ليراقبوا مواسمهم ويعتنوا بها. حكومة الوحدة انتبهت لهذه الأراضي الفارغة الّتي تشبه طبيعة بلاد النيل إلى حدٍّ كبير؛ لأنّ نهر العاصي يمرُّ بها، وفكّرت أن توطّن فيها فلاحين من الإقليم الجنوبي ضمن سياسة التوازن السكّاني الّتي سعت إليها. وربّما كان هذا أحد الأسباب الّتي أدّت إلى انفصال الإقليم الشمالي -بعد سنة تقريباً- من قراراتٍ وتصرفاتٍ مجحفة بحقّ السكّان الأصليين للمنطقة. أمّا التّسمية؛ فهي ولا شكّ للتقرّب من حكومة الوحدة المصرية الخالصة الّتي استلمت زمام الأمور، وحكمت البلاد بقوة رئيس المخابرات -نائب عبد الناصر- عبد الحميد السرّاج. وربّما يكون الاسم قد أطلق حبّاً بعبد الناصر، فهو على الرغم من سياسته المرفوضة في البلاد حظي بشعبيةٍ واسعة، وبقي معظم الشّعب السّوري يحبُّه رغم الانفصال!».

رحلتنا من المعرّة، إلى الطليسيّة، إلى دير شرقي، إلى القاهرة.. كانت محفوفة بالمخاطر، لكنّها بالنسبة إلى لورينزو مغامرة مثيرة للخيال، لم يحظَ بمثلها أبداً؛ فقد وصلنا المنطقة أثناء الاشتباكات، وكان من الصعب علينا أن نغادر معرة النعمان في اليوم الأوّل لوصولنا؛ بسبب القصف، واضطرنا للبقاء هناك ليلة كاملة وسط القصف الجنوني من معسكر الحامدية ووادي الضيف. لم يكن سهلاً في الصباح الباكر

العثور على سيارة أجرة تنقلنا إلى القاهرة. السائق رفض أن يمرَّ في الطريق الدولي؛ لأنّه يخشى الحواجز والقنّاصة؛ لذا طال الطريق، وتعرّج، وشعرنا بأنّنا مختطفان! كنت أتأمل القرى والسّهول وكأنّي أراها لأوّل مرّة!

حين دخلنا «دير شرقي» كانت خالية تماماً من السكّان، لم يكن هناك سوى بعض المسلّحين في الطرقات وعند الحواجز. وعلى الرغم من خطورة الدّخول إلى تلك القرية، أصرّ لورينزو على أخذ صور لقبر خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز. كان مأخوذاً بجلال الضريح، وبساطة المكان، مثله مثل الحمام الذي لم يتحرّك من مكانه في الفتحة الّتي أحدثها صاروخٌ بقبة المقام. في الصورة رأى الحمام ينظر إليه باستكانة، وهدوء. تلك النظرة الواثقة الّتي تميز الصديق من العدو! كان الحمام منتشراً في المكان، داخل الضريح، قرب بئر الماء، في الحديقة التي حرق صاروخ بعض أشجارها!

تساءل: «كيف يمكن لبشر أن يقصف هذا المكان!» قلت: «من قال لك إنّهم بشر؟ قوى الشرّ الكامنة في البشر قادرة -حين تتاح لها الفرصة- أن تحوّلهم إلى حيوانات تتصرّف وفقاً لغريزتها. الغرائز لا تنحصر في البقاء فقط!».

حكايات شهرزاد

خلال ليلتين لم أتوقف عن الحديث، كنت أخشى أن أنام، وأتركه وحيداً يعاني من الألم، لم أكن في يوم من الأيام خلال علاقتنا أشعر بهذه اللهفة، والمحبة، طغت على علاقتنا صبغة الحسية، حتّى أنّي لم أكن أفتقده حين يغيب، ولم أكن أهتم إن أخبرني أين هو، وماذا يفعل، أو لم يخبرني.. الأمر سيان، وحين يعود من سفره، كنت أحتاج وقتاً طويلاً كي أعتاد وجوده في البيت، كنت أكتفي بصداقته. أكتفي بالحديث عن مشاريعه والنزهة في الأرياف أو على البحر معه، ثمّ نعود لنفترق ثانية، هو صوب مدنه الّتي يعشق، وأنا بين ابنتيّ اللتين كبرتا وأصبحتا صبيتين فاتنتين لا تحتاجان إلى مشورتي في شيء! آناتا وأنتونيتا، ماذا لو كنتما معي الآن؟ هنا، حيث تنبع الطفولة من بين الجدران المهدّمة لتحكي قصة لا تفارقني!

هنا في هذه الغرفة صرختُ صرخة الحياة الأولى. ولم أتوقف عن إعلان وجودي بالصراخ منذ ذلك الوقت. يذكر لورينزو أنّي فعلت ذلك مراراً أمامه، كنت دائماً أحبّ أن أحتجَّ على الأشياء الّتي لا أرغب

بفعلها بصوتٍ عالٍ، وكأنّ الآخرين لا يفهمون كلامي إن لم يكن صوتي مرتفعاً. أوّل صرخة احتجاج كانت رفضاً للحياة، لكن عندما أرغمت على العيش فيها، لم أقبلها كما هي. أشياء كثيرة لم تكن تناسبني، وكانت أمّي دائماً تصفني «بالشرسة»، وتقول، إنّي غير مؤدبة أحياناً. لكنّ ذلك لم يكن يضايقني، بالعكس، كنت أحبّ تلك الصفات، وأشعر بأنّها تناسبني. وكان أبي يتعامل معي كأنّي ولده الذكر الذي لم يمنحه الله إياه. وهذا ما ساعد على تشكيل شخصيتي بتلك الصورة.. ما شجّع أبي على اتّخاذي صديقةً له تفوقي في الدّراسة ونبوغي المبكر. كان يتحدّث عني أمام أصحابه، فأشعر بالزهو، وتصبح خطواتي خفيفة فلا أكاد ألمس الأرض أثناء المشي. وعندما لاحظ انعزالي ونهمي للقراءة، أوصاني بعدم التنازل عن طموحي العلمي بالدرجة الأولى. لم يعترض على قراءتي للكتب والروايات في الصيف، لكنّه كان حريصاً على مراقبتي أثناء العام الدراسي.

كنت أشعر بنوع من التماهي الغريب بيني وبينه حدّ الاعتقاد أنّي لست أنثى، وأنّ هناك خللاً هرمونياً في جسدي جعلني أبدو كالإناث! عشقت في طفولتي ألعاب الذكور وكنت أنافسهم فيها، وكنت أضع قبعة أخفي بها شعري الجميل صيفاً وشتاءً، كي لا يسخر منه الصبيان، ويعيرونني بلقب «أم الضفائر».

حين أصبحت في الثانوية، كان يرافقني ساعات طويلة وأنا منكبة على الكتب، يحاول أن يشرح لي، ويساعدني، كنت أحسّ أحياناً أنّه هو من سيتقدّم للامتحان وليس أنا؛ لذلك بذلت جهدي في الحصول على المجموع الذي يؤهلني لدخول كلية الطب كما يحلم. كان يقول لي:

«لا يوجد أب في الكون لا يحبُّ أن يرى أولاده أفضل منه» ولكي أكون أفضل عليّ دراسة الطب؛ لأنّ أبي مهندس زراعي! كان يروي لي دائماً قصة كفاحه النادر في الحفاظ على أرضه. فقد كان جدي من رجال الكتلة الوطنية الذين حاربوا الاستعمار الفرنسي، وقد تعلّم في مدرسة «دار العلم والتربية» الّتي أسّسها الملك فيصل قرب قصر العظم في حماة. كانت تلك المدرسة لأبناء الإقطاعيين، وقد تأثر جدي بأستاذه عثمان الحوراني الّذي كان يدرّس مادّة التاريخ، ويحرّض طلابه على الاستقلال والثورة المسلحة والفخر بالإرث العربي، وهو ممن شاركوا في ثورة 1925، ثمّ انتقل للدراسة في دمشق، وانتسب إلى «مكتب عنبر». عام 1930 ساءت ظروفه الاقتصادية على الرغم من الأراضي الواسعة التي يمتلكها في «سهل الغاب» -كما سمّته دولة الوحدة فيما بعد- فترك جامعة دمشق، وعاد إلى حماة من دون أن يكمل دراسة الحقوق.

كان أبي متعلّقاً بالزراعة، يقضي أوقاته كلّها بالعناية بالأرض التي أهملها جدي، مع أنّه متفوق في دراسته، لكنّه كان يحلم ببيت وسط تلك الأراضي وحياة منعزلة عن الناس. حاول جدي المستحيل حتّى حصل أبي على شهادة الثانوية، وأغراه بإكمال دراسته في التخصص الذي يحبّه.

لم يكن في الخمسينات من القرن الماضي في سوريا كلية للهندسة الزراعية ولا معهدٌ لدراستها. سافر أبي في ذلك الوقت إلى مصر ليتم دراسته، وعاد أيام الوحدة، ليكون أوّل مهندس زراعي في المنطقة، وأوّل رجل يتزوج امرأة مصرية!

بقيت أمّي منعزلة ووحيدة سنة كاملة. لم يكن سهلاً على أسرة أبي قبول وجود امرأة غريبة عن العائلة بينهم، خاصة جدي الذي وضع أحلامه الكبرى في أبي، ومن ضمن أحلامه تزويج أبي من ابنة عمه الوحيدة زواج الأرض بالأرض؛ كي تكبر الثروة، وتمتد. ابنة عمه الشقراء ذات العينين الملونتين، والبشرة البيضاء النقية، والوريثة الوحيدة لفدادين أبيها وبيته الكبير. لكنّ أبي جاء بامرأة سمراء، نحيفة العود، شعرها أجعد، ولا تنتمي إلى مقاييس الجمال في أسرة أبي. اختار أبي أن يتجنب المشاكل ببناء دارنا هذه على طرف الأرض التي يملكها. وابتعد بأمّي عن كلّ ما يؤذيها.. خاصة بعد ولادتها كريمة، وحدوث الوحدة بين مصر وسوريا.. حيث جاء القحط، وحلّ الحرّ القاتل في شهر شباط، وكانت جدتي وعماتي يتهامسن، أنّ ذلك بسبب الكنة التي وجهها «شؤم» على العائلة والبلد! ففي ذلك العام ماتت عمتي فريدة مع مولودها. ومرض جدي، وهاجر عمي إلى أمريكا الجنوبية. وبقيت جدتي تقرأ القرآن، وتتعوذ بالله من الشيطان ومن المصائب المفاجئة التي تحلُّ مع الأغراب. كانت على يقين أنّ وجه أمّي النحس هو السبب في جفاف الزرع، وانحباس المطر، وموت ابنتها، ومرض زوجها، وهجرة ابنها!

لم تكن جدتي تزورنا إلاّ نادراً، أمّا جدي فليس في ذاكرتي له سوى صورة مشوشة لا ملامح فيها، فلم أره إلاّ مرّات قليلة في زيارات خاطفة قام بها أبي إلى حماة، منها الزيارة الأخيرة حين وفاة جدي في بداية السبعينات.

توقفتُ عن الكلام حين هبّت ريحٌ قوية عبرت شقوق الجدران، وأطفأت الشمعة. مدَدْت يدي لأمسك يد لورينزو في العتمة. همست: «هل شعرت مثلي بالهزة؟». قال بصوت ضعيف: «نعم، ربّما تكون آثار انفجار قريب». قلت: «لا، بل هي هزة أرضية. لم يكن ينقص السوريين إلاّ هذه!». حاول لورينزو أن ينهض قليلاً، ويستند في جلسته إلى الحائط، وهو يقول: «أعرف أنّ شهرزاد قاومت الموت بالحكاية. أكملي الحكاية، لعلّ لنا مخرجاً من هذا المأزق حين يطلع الصباح!». قلت، وأنا أرتعش برداً وخوفاً: «حين يطلع الصباح! ستتعرّى هذه الوحشة، ويصبح كلّ شيء صادماً للعين متعباً للقلب. ليت الصباح يبقى بعيداً، فالقلب يرى الآن ما يحبُّ أن يراه. أرى في الزاوية سرير كريمة، بجانبه خزانة ملابسها، أشعر أنّي فوق سريري، أتدثر بغطاء صوفي سميك نسجته أمّي بسنارتها في ليالي الشتاء. أشمُّ رائحة الكستناء فوق مدفأة «الإدلبي[1]»، رائحة اليانسون تتصاعد من كأس «الفارغ[2]» الذي يواظب أبي على تناوله في الليالي الباردة. أسمع حفيف خطوات أمّي تتوقف عند الباب، وتنصت، لعلّها تلتقط همساتنا، فتفتح الباب بسرعة، لتأمرنا بقراءة صلواتنا والنوم سريعاً. ثمّ تغلق الباب خلفها بهدوء، وتمضي، وهي على ثقة من طاعتنا للأوامر!

لم تكن أمّي تعرف شيئاً عن الدين، ولم أكن أصدّق أحاديثها عن الثواب والعقاب، والجنّة والنّار. كانت تصوم رمضان، لكنّها لا تصلي، ولا تقرأ القرآن!

(1) ماركة المدافئ التي انتشرت في ذلك الزمن، قبل ظهور مدافئ «الشّمس»

(2) الفارغ، مشروب مغلي اليانسون المحلى بالعسل أو السكر، مع الجوز المهروس بالهاون.

وكنت أسمع نساء القرية يدعونها «ماريا القبطية» فأشعر بالقهر؛ لإحساسي أنّ شيئاً سيئاً يكمن وراء اللقب. لكنّ أبي شرح لي، أنّ هذا الاسم، تحمله إحدى زوجات الرسول، وهي مصرية، لهذا أطلقت النساء على أمّي اسم ماريا! أفرحني التبرير، وشعرت بالفخر قبل أن ألاحظ أنّ أمّي تغيب يوم الأحد الأوّل من كلّ شهر طيلة النهار، وتعود مرهقة تماماً، وفي ذلك اليوم نأكل من حواضر البيت. أو يتبرع أبي بقلي البيض لنا، بجانب اللبن، والخضار.

عرفت فيما بعد، أنّ أمّي، كانت تذهب إلى «دير ماما» لتزور الكنيسة، وتؤدي طقوسها الخاصة. لم أستطع الربط بين حياة أمّي معنا، وصيامها في رمضان، وذهابها إلى الكنيسة مرّة في الشهر. كنت أظنّ، أنّها نذرت ذلك، كي يرزقها الله بصبي، بعد أن أنجبت سبع بنات، لم يبقَ منهن على قيد الحياة سوى ثلاث!

شقيقاتي اللواتي غادرن الحياة، كنّ معاقات تماماً، تبقى الواحدة منهن سنة كاملة، من دون أن تنمو، ملامحها تبدو كملامح عجوز في التسعين، لا ينبت لهنّ شعر، ولا تطول أظافرهن. وكنّ سبباً جديداً في اتساع الهوة بين أمّي وأهل أبي، وتفاقم المشاكل. جدتي قالت لأبي إنّ ذلك غضبٌ من الله، وأنّ أمّي يلبسها جنيٌّ كافر، ونصحته باستشارة أحد المشايخ، علّه يجد لها حلاً! وعمل أبي بنصيحة جدتي مكرهاً، فلم يكن يؤمن بالمشايخ، ولا بالكرامات. لكنّ المفاجئ هو مجيء فريدة سليمة وجميلة، بعد أن خضعت أمّي لنصائح الشيخ، وحملت في رقبتها تعويذة، وزارت أولياء الله الصالحين، ونذرت النذور، وتوقفت عن الذهاب إلى الكنيسة! مع هذا لم تكفّ جدتي عن إيذاء أمّي بما

تهمسه في أذن أبي، ويصلها بطريقة ما. جدتي كانت تعتقد أنّ السبب في عدم إنجاب أمّي لولد ذكر هو نفْسُها السّوداء الّتي تنفث الكراهية حولها أينما حلّت، وتجلب معها المصائب. لكنّ أمّي -رغم حظها العاثر- كانت طيبة وتؤمن بكلّ الأنبياء والصالحين.

كانت تحلف أيمانا مغلظة «وحياة ستنا مريم، وستنا زينب، وستنا سكينة، ورقية، وسيدنا الحسين، والإمام الشافعي...» إن أنجبت ذكراً، ستصالح جدي، وتصبح خادمة لجدتي طوال عمرها!

ما لفت نظري في أيمانها الّتي تختمها بالنبي محمد، أنّها تحلف بحياة النساء أولاً.. وتتبعها بالرجال. والنبي آخر الرجال! كنت أستاء منها كثيراً؛ لأنّي في تلك اللحظات أكون قد رصدت وجوه نساء القرية جميعهن، واكتشفت امتعاضهن من طريقتها في القسم، بينما هنّ يقسمن قسماً مضحكاً بالنسبة لها، «وكسر الهاء، وعقد اليمين». لأنّي طفلة، لم أفهم يوماً معنى هذين القسمين اللذين يجعلان أمّي تتبسّم خفية عن النساء، وتهمس بكلمات تعبّر فيها عن استخفافها بقسمهن. بالنسبة لأمّي كانت تشعر بالفخر؛ لأنّ من تقسم بهم أكبر وأعظم ممن يقسمن به. لم أكن أعرف مِن هؤلاء سوى «ستنا مريم» التي احتفظت أمّي بأيقونة لها داخل صندوقها الخشبي المغلق بقفل حديدي. وغالباً ما كنت أبتسم أنا أيضاً باستخفاف، إذ كثيراً ما لمست أيقونة أمّي خفية، وطلبت منها أشياء كثيرة، لم تتحقّق إحداها أبداً. أمّا يمين جاراتها فقد فهمته بعد أن كبرت، وعرفت أنّه أغلظ يمين يمكن للمرء أن يحلف به! وعليه دفع كفّارة إن لم يفِ به!

جاراتها اللواتي لم يحببنها في البداية وعاملنها بحذر، توثقت صلتهن بها

مع الأيام بسبب فنجان قهوة! قد يبدو السبب سخيفاً لكنّه مرتبط بآلية التفكير عند النساء اللواتي يخشين من يكشف أسرارهن، ويحببنه في الوقت ذاته. قرأت أمّي مرّة لإحدى جاراتنا فنجان قهوتها أثناء زيارتها لنا. وخلال أيام طار صيتها، وكأنّها عرّافة آتية من بلاد النيل. والنساء في كلّ مكان يشبهن بعضهن في الفضول وحب معرفة الغيب والرغبة في امتلاك قدرات الكشف عنه. لم يكن الأمر مجرد تسلية بل اعتقاد راسخ لدى النساء بأنّ أمّي تملك تلك المقدرة لكونها مصرية! ربّما من باب المصادفة وجدت في فناجين النساء بعض أسرارهن، وربّما كانت ملاحظتها أقوى مما أتصور، بالإضافة إلى مخيلتها التي تضفي جمالاً على الأشياء. فالنساء يقصدنها لشرب القهوة وسماع الحكايات، وقراءة المستقبل!

أوّل زيارة تقوم بها نساء القرية لأمّي، احتفت بهنّ بشكل غريب، فقد صنعت لهنّ شراباً من التوت الشامي، وأنزلت «الشيخ علي وعياله[(3)]» من الخزانة الحديدية ذات الواجهة الزجاجية التي كان ممنوعاً على أحدنا أن يلمسها أو يقترب منها، فكلّ الأواني الزجاجية الموجودة فيها للعرض فقط! وهي تتصدّر غرفة الجلوس كعروس، تتباهى أمّي بمقتنياتها؛ لأنّها أحضرتها معها من بلادها البعيدة، كي لا تكون أقلّ من أيّ عروس أخرى. سمحت لكريمة بحمل «الشفشق» الكبير، وصبّ الشراب للضيوف. الشيخ علي وعياله، كان لونهم خمرياً مذهباً برسوم فرعونية، فأصبح الشراب داخله مائلاً للسواد،

(3) «الشيخ علي وعياله» عبارة عن طقم من الكؤوس الزجاجية، مع إبريق كبير يسمى «الشفشق»، لابدّ لكلّ عروس في الصعيد من شرائه في جهازها، وهو مفخرة لها، ولا تستخدمه إلا للضيوف المهمين.

وبدا كخلفية معتمة لرسم المحارب الذي لازم كوابيسي مدّة طويلة، تحوّل بعدها إلى صديق!

لم أكن أشبه أمّي في شيء، ولم أتمنَ يوماً أن أكون مثلها. بالعكس، الحياة السّرية للنّساء هي التي كانت تثير فضولي في طفولتي، شكّلت لي نوعاً من الرفض والميل لحياة الرجال، حتّى أنّي كثيراً ما رغبت أن أكون مثل أبي، لكنّ الله لم يخلقني ذكراً! وهذا ما ترك في نفسي حقداً خفياً على عالم الرجال وحريتهم، تبدّى في صور كثيرة، منها ميلي للعزلة وقضاء الوقت في البراري، والسباحة في مياه النّهر، وتعريض جسدي لشمس الظهيرة على السطح كي أصبح سمراء مثلهم. عاقبتني أمّي بشدّة حين رأتني عارية على السطح. صرخت من المفاجأة، وأوقعت سلة الغسيل من يدها، واتّسخ كلّ ما فيها. كانت أمّي غاضبة جداً، ضربتني بالعصا، وحبستني في الغرفة، وسمعتها تبكي، وتشتم، وهي تقوم بغسل الملابس المتسخة مرّة ثانية!

يومها خفت أن تشتكيني لأبي فتتضاءل مكانتي عنده، ويحرمني من الميزات التي كنت أحصل عليها بسبب تفوقي في الدّراسة. منها أنّه كان يصحبني معه إلى مدينة المعرة أو إلى حماة حين يذهب لشراء ملابس العيد لنا أو لإحضار البذور، والسّماد، وأشياء أخرى تحتاجها الأرض. كان يخصني بشراء حلاوة الجبن، وغزل البنات الملوّن.

أمّي كانت تتَمْتم بغيظ «سامح الله جدتك، أورثتك أسوأ طباعها». وأنا كنت أرتجف رعباً، لكنّه رعب ساعات الانتظار فقط، انتظار العقاب الذي لا يأتي، فأعود ثانية لاقتراف آثامي بعيداً عن عيني أمّي.

كانت جدتي -كما تروي أمّي- طويلة ونحيفة، لوّحتها شمس الصعيد

فجعلت بشرتها البيضاء بلون رغيف العيش[4] الطازج. كانت تضرب الأرض بقدميها الكبيرتين، وتدق باب العمدة بيدها المشققة المحروقة بالشّمس، وتناديه باسمه المجرد ليفتح لها الباب. جدتي كانت تفخر بنسبها إلى قبيلة عربية كبيرة في الصعيد، تمشي مرفوعة الرأس دائماً، ولا تنظر عند قدميها أبداً، لكنّها ترفع ذيل ثوبها، ليرى الناس الحذاء الجلدي الذي تحتذيه، فهي لم تكن تمشي حافية القدمين كما تفعل نساء قريتها! لم أناقشها يوماً في كيفية كون جدتي بيضاء وهي من الصعيد. لكنّ أمّي كانت تملك تفسيراً لكلّ حكاياتها الغامضة، كما تملك معرفة بكلّ خفايا الماضي وغرائبه. ومن دون أن نسألها كانت تبرّر ذلك، بأنّ جدها الكبير من أصل عثماني، جاء إلى مصر مع حملة محمد علي باشا! في حكايات أمّي أشياء غريبة، ومتناقضة، لكنّها سهلة التصديق بالنسبة لأطفال لا يعرفون شيئاً عن الحياة خارج أسوار البيت والقرية الصغيرة.

لم تأخذ أمّي عن جدتي شيئاً، سوى عادة واحدة، كانت تقول لنا، حين تحضّر العجين للخبز أو تذهب لمساعدة جاراتها «عندنا في الصعيد لا تقترب المرأة من العجين مالم تكن طاهرة!»؛ لذا تحرص على الوضوء قبل أن تخبز! وهذا العمل أحد التناقضات التي أربكتني في شخصية أمّي!

الغريب أيضاً أنّ أمّي المتحدثة ذات الخيال الخصب، تفقد المقدرة على الكلام في حضور أبي، وتموت الحكايات على شفتيها. كنّا نلحّ عليها أن تكمل الحكاية، لكنّها تنهض مسرعة لتدخل المطبخ، وتختفي هناك لمدة قصيرة، تعود بعدها لتضع الطعام، وتقف قريباً من أبي لتلبي طلباته!

(4) الخبز

لم يكن أبي رجلاً قاسياً أو متغطرساً، ولم يكن يعامل أمّي معاملة سيئة، لكنّها ارتضت أن تكون دائماً في خلفية الصورة العائلية الباهتة. أتذكّرها كيف تقف جامدة بانتظار إشارة منه، وترفض الجلوس إلى الطعام، مهما حصل. كان يلحُّ عليها لتجلس إلى جانبه، وهي ترفض بصمت. فقط في رمضان كانت تكسر تلك القاعدة، وتجلس معنا. مرّات قليلة تلك التي رأيت فيها أمّي تبتسم بحضور أبي. مرّات نادرة تلك التي سمعت فيها ضحكتها تملأ فضاء البيت. كانت دائماً على وشك البكاء! تمتلك عينين نديتين صالحتين للتواجد في أجواء الحزن والعزاء. وكانت نساء القرية يتغامزن خلسة، ويهمسن: «إنّها لا شكّ كانت تعمل (معدّدة) في بلدها». حتّى أنا شككت أنّ أمّي -لشدّة إتقانها طقوس الندب على الأموات- كانت كما يصفنها، ولم أكن وقتها قد علمت قصتها الحقيقية، قصة العينين النديتين الحافلتين بالحزن والدّمع. على الرغم من أنّي سمعت منها حكاية جدتي الصعيدية، المرأة القوية الشديدة البأس مئات المرات، لكنّي لم أستطع الربط بينها وبين أمّي الجميلة، الهشة، القصيرة القامة، مع أنّها فسّرت ذلك مراراً بأنّه وراثة من أهل أمّها! فهي ليست صعيدية صافية النسب، ولم تكن جذورها ضاربة في قرية «قرارة» التي جاءت منها؛ لأنّ أمّها وأباها جاءا من البر الغربي، وسكنا القرية، وأنجباها هناك، وماتا في حادث انقلاب «معدية» وسط النيل! لم أبحث يوماً عن صدق الحكاية التي ترويها أمّي لنا في ليالي الشتاء بصوت هامس، سابغة من الصفات الأسطورية على أبيها ما تعجز مخيلتنا الصغيرة عن استيعابه. لكنّ الحكاية، كانت تترك في نفسي إشارة استفهام كبيرة لا أجرؤ على التصريح بها. إن كان

جدي رجلاً عملاقاً، وصياداً ماهراً، وسيداً في قومه، فما الذي جعله يلجأ إلى تلك القرية الصغيرة شرقي محافظة المنيا؟ ولماذا لم يسبح حين قلبت الريح القارب؟ وكيف نجت هي الطفلة الرضيعة من تلك الكارثة؟ شعور داخلي كان ينبئني أنّ هناك خللاً في الحكاية. كنت أخشى أن أطرح أيّ سؤال حوله فأنقض الغزل الجميل الذي تحرص أمّي على تلوينه بصوتها العذب، واصفة لنا أجواء النيل، والصحراء، والليالي الجميلة، وطقوس الأعياد، ولا تتوقّف حتّى يتسرّب النّعاس إلى جفوننا فنغفو في أماكننا قرب المدفأة.

لم أكن أغفو بسرعة، بين النوم واليقظة، كنت أعيد ترتيب الحكاية، وأضع الأسئلة في أماكنها فأحصل على نسيج غير متماسك فيه الكثير من الثقوب، والأماكن الممزقة. وأتوصل إلى نتيجة صادمة، ذلك الرجل الذي تحكي عنه أمّي، ليس له وجود، وربّما لم يعش يوماً سوى في مخيلتها. لقد حاولت مراراً أن أُلبس ثوبه في الحكاية لكلّ رجال القرية الذين أعرفهم، لجدي، أبي، عمي، وأيّ رجل أمرُّ به. فأجد الثوب أكبر من كلّ الرجال! فلا أحد يملك جثته الضخمة، ولا عضلاته المفتولة، ولا ملامحه السّمراء المحروقة، ولا عينيه الرماديتين، ولا ملامح وجهه. إنّه رجل لا يشبه إلاّ الحكاية، ويكاد يكون أسطورة قرأتها أمّي في مكان ما، أو اخترعتها هي لسبب ما!

كنت أميل إلى الاحتمال الثاني، فأمّي لم تكن تعرف القراءة والكتابة، إلاّ بشكلٍ بسيط جداً، لا يؤهلها لقراءة كتب الحكايات والأساطير؛ وهذا ما كان يؤلمني، أن تكون أمّي كاذبة! كثيراً ما تساءلت عن السّبب الذي يجعلها تكذب علينا، وتدّعي أنّ الرجل الاستثنائي الذي تحكي

عنه أبوها؟

من كلِّ قلبي، كنت أريد أن أقتنع بإمكانية حدوث معجزة، أريده أن يكون حياً، ويأتي لزيارتنا، كي تكون أمّي صادقة، وكي تفرح بوجود أب لا مثيل له، يمنح عينيها إشراقة الفرح، ويمسح عنهما ندى الدمع. لكنّ أمنيتي التي دعوت «ستنا مريم» أن تحقّقها كلَّ ليلة قبل النوم، لم تتحقّق، ولم أعرف صورة جدي سوى في الحكاية. حتّى جاء ذلك اليوم المأساوي الذي ولدت فيه أمّي، أخيراً، مولوداً ذكراً، وأصيبت على إثره بحمى النفاس. كنت أسهر قرب رأسها، أغيّر الكمادات الباردة، لكنّ الحرارة اشتعلت في جسدها، ولم تستطع قطع الجليد الصغيرة في الخرقة النظيفة، أن تمتص منها شيئاً. في الأيام القليلة التي قضتها أمّي راقدة في فراشها، وفي تلك الليالي التي قاومت فيها ملاك الموت، كانت تهذي بقصة مختلفة. حكت فيها حكاية أخرى، عن أبٍ نذل تركها جنيناً في رحم أمّها، وهرب!

هكذا تهاوت الأسطورة فجأة أمام عينيّ، وهكذا ذهبت أمّي بكلّ بساطة، فارقت الحياة، بعد أن حمّلتني وزر الحكاية الحقيقية لمجيئها إلى الدنيا.

قبل وفاتها بأشهر، طلبت مني أن أعلّمها الصلاة، كانت تحرص على أدائها في أوقاتها، لكنّها لم تستوعب أبداً أنّها يجب ألا تتحرّك، أو تتكلّم أثناء الصلاة. كانت تترك الصلاة، وتفتح الباب إذا قرع، ثمّ تتابع صلاتها! إذا رأت أحدنا يبحث عن شيء، تلتفت لتخبره بمكانه، وتتابع الصلاة. قلت لها، يا أمّي، لا يجوز ذلك، قولي، «الله أكبر» ونحن ننتظر حتّى تنتهي صلاتك، وتخبرينا عن مكان الشيء الذي نبحث عنه. صارت

تقول، مثلاً: «الله أكبر، الخيطان في الدرج الثالث على اليمين، والإبرة تجدينها في «القفورة[5]»!.

كانت أنتونيتا في معظم المواقف، تتصرّف بشكلٍ يوحي أنّها منفصلة عن العالم من حولها، فتذكرني بأمّي!

(5) القفورة: وعاء مصنوع من القش الملوّن على شكل كروي، فمه ضيّق، وله يد مثل السلّة.

وتوقفت شهرزاد عن الكلام المباح!

أنصتنا معاً للخطوات الحذرة التي تقترب من المنزل. سمعنا صوت تصفيق باليدين، وصوت شاب يقول: «يالله، يالله». ابتسمت، وأنا أشرح للورينزو، أنّ الشاب، بهذا النداء، يستأذن بالدخول، وأنّ هذه إحدى العادات الجميلة الّتي يحرص عليها سكّان القرى، النداء باسم الله، كي تحتجب النساء إن كنّ في أرض الدار من دون غطاء. أغمضت عينيّ لثوانٍ، عادت فيها الحركة إلى البيت المدمر، سمعت أصوات أخواتي وأمّي، وصوت جارنا أبي محمد، ينادي، وهو يصعد إلى سطح بيتهم: «لا حدا يطلع لبرّا يا جيران». كم مرّ من الزمن وتلك الأصوات الحميمة لم تزرني في أحلام يقظتي أو منامي؟ ناديت الشاب ليدخل. سألني إن كنا نحتاج شيئاً يحضره لنا قبل أن يغادر. شكرته، وطلبت أن يحضر لنا سيارة توصلنا إلى المعرة. قبل أن يرد، سمعنا صوتاً ينطلق من «القبضة» اللاسلكية محذراً «حربي من مطار حماة باتجاه منطقة العمل.. حربي من مطار حماة باتجاه منطقة العمل، الأخوة في المراصد.. انتبهوا» اعتذر الشاب، وطلب منّا الانتباه، ووعدنا

بأن يتدبر أمر السيارة بعد انتهاء طلعات الطيران. في تلك اللحظة سُمع صوت آخر ينادي: «سيخوي يا شباب، انتبهوا.. جاءت أم البراميل مع السيخوي.. سكان سراقب.. انتبهوا، الطيران باتجاهكم». نهض لورينزو بصعوبة، وسألني: «ماذا سنفعل؟ هل نبقى هنا؟» قلت بثقة: «ألم تسمع؟ الطيران سيقصف سراقب، يعني لن يحدث شيء هنا». لم أكمل حديثي حين سمعنا معاً صوت انفجار ضخم، ركضتُ على إثره خارج البيت فرأيت الناس قد تجمعوا، رؤوسهم مرفوعة، وعيونهم تراقب السماء.. لم يظهر في الأفق أيُّ أثرٍ لطائرة، لكنَّ البرميل المتفجر الذي نزل شرق البيت في الأرض الزراعية أحدث هزةً قوية تحت أقدامنا. ركض الأطفال والنّساء والرجال إلى المكان الذي نزل فيه البرميل. لمحت لورينزو، وقد حمل الكاميرا بيده السليمة، يركض ليصوّر تدافع الناس في طريقهم إلى الحفرة التي خلّفها البرميل! صاح أحد الأطفال بخوف «طائرة ثانية.. براميل.. براميل» رفع لورينزو عين الكاميرا صوب السماء، رصد هبوط البرميل لحظة الارتطام بالأرض، النّار ترتفع، الأشجار تشتعل، صرخات مشروخة، تنبيهات لا معنى لها، فقد انتهى الأمر، وتدافع الناس ثانية باتّجاه الغرب.. ثمَّ خطٌّ أبيض في سماء زرقاء!

لم يعد الشاب الذي وعدنا بإحضار سيارة، وجاءت الجارات للسلام علينا، وهنّ يحملن خبزاً ساخناً، وبعض أقراص من الجبن والزيتون. حاولت ردّ الهدية؛ لأنّي كنت على يقين أنّ أهل القرية لا يملكون ما يكفيهم في هذه الظروف. لكنّ النّساء اعتبرن رفضي إهانة لهنّ. فقبلت على مضض حين رأيت لورينزو يومئ لي بالقبول. كنت أتمنّى لو حظيت

بكأس شاي ساخن تردُّ أبخرته روح المكان، وتشعل الدّفء في أطرافي. كأنّي لمست مصباح علاء الدين! بعد مغادرة النسوة بدقائق، جاءت فتاة صغيرة تحمل إبريق شاي اسودّ من لهب الحطب، ومعه كأس فيه حفنة سكر. وضعته أرضاً، وهربت، من دون أن تتكلّم. قلت: «يبدو أنّنا سنقضي الليلة الثانية هنا.. ليتهم استطاعوا إخراجنا اليوم، لم أعد أستطيع تحمّل ثقل ذكريات المكان.. أكاد أختنق». ردّ لورينزو: «لماذا لا تكملين الحكاية، فتتحرّرين من أسرها؟». قلت بيأس: «لا متعة في الحكاية بل هي سكاكين تنغرس في لحمي، كي لا أنسى أنّي الناجية الوحيدة من المجزرة. كم يؤلمني أنّي لم أكن هناك معهم! لو لم أغادر البيت ذلك اليوم.. لماذا كان قدري أن أعيش كلّ هذا الزمن بعدهم، وأشهد المجزرة الثانية؟ لماذا لم أكن مكان كريمة؟ الصبية الفاتنة التي أصبحت عجوزاً في العشرين من عمرها!».

تساءل لورينزو: «كريمة! أختك الكبرى؟». قلت: «نعم؛ آناتا حملت اسمها، كم كانت تشبهها!

(لم تكن كريمة تكبرني سوى بعام ونصف، لكنّها كانت تبدو أكبر من عمرها بكثير، حتّى شعرها الكستنائي أصبح باهتاً وهي في العشرين، وغزا الشيب خصلة كاملة تنسدل على جبهتها، وتغطي عينها السليمة -أثناء انحنائها فوق ماكينة الخياطة- فيبدو وجهها من دون لون وكأنّها لعبة مصنوعة من الجِبس. كثيراً ما كنت أتخيّلها تمثالاً كتلك التماثيل الموضوعة في واجهة محلات الأزياء. فقد كانت تجلس أحياناً صامتة من دون حراك، ذاهلة عمّا حولها، وخصلة شعرها المنسدلة على عينها تمنعني من رؤية داخلها، كما تمنعها من رؤية ما حولها!

كانت كريمة في الثانية عشرة حين تركت المدرسة. في تلك السن تشكّل جسدها، ونفرت أنوثتها بسرعة عجيبة فصارت تخجل من الظهور أمام أحد. حين يأتي أقرباؤنا للسهر عندنا أو حين تجتمع نساء القرية عصراً في البرية لتداول الأخبار، والتسلية، تعتزل كريمة في غرفتنا؛ لتقرأ في كتاب! لم يعرف أحد لمَ أصرّت كريمة على ترك دراستها، لكنّي ألححت عليها، حين رأيتها تبكي في إحدى الليالي بصمت، وهي تتأمّل غلاف رواية ذات أوراق صفراء، أخذتها من مكتبة أبي من دون أن يدري. في البداية ظننتُ أنها تبكي من أحداث الرواية، لكنّ كريمة صارت تنشج فجأة، وتقلّص جسدها، وخبّأت رأسها بين ركبتيها. أمسكتُ يدها برفق، ومسحت على شعرها، قالت بحرقة: «سمر ستأخذ الشهادة هذه السنة، وأنا سأبقى مدفونة بين الجدران!» قلت لها بحيرة: «أنت من رفض الذهاب إلى المدرسة والدك لم يجبرك، بالعكس أنت تعلمين أنّه تضايق جداً من قرارك». ليلتها باحت كريمة بسرّها لي، بعد أن جعلتني أحلف أغلظ الأيمان ألّا أخبر بشراً بما قالته. سوسن صديقتها الحميمة سخرت منها، وهنّ يلعبن في ساحة المدرسة؛ لأنّها داست أكثر من مرّة على خطّ مربع الطباشير، وهي تنط داخل المربعات. قالت لها: «ما دمتِ لا ترين جيداً، لماذا تلعبين معنا؟ قفي جانباً، وتفرّجي فقط». لم تستطع كريمة أن تتحمّل سخرية البنات في المدرسة منها حين تخطئ تقدير المسافة بين درجة وأخرى، أثناء صعودها إلى الصفّ، أو تقدمها إلى السبورة. كانت كريمة تعاني من مرض في عينها اليمنى، يسميه العوام «حَوْلة الحسن» الحَوَل في عينها، أعطى وجهها مسحة حزن وجمال في طفولتها، لكنّه مع الأيام

صار عبئاً عليها، وأثّر على تركيزها في الدراسة. منذ طفولتها حُرمت من اللعب معنا في الشارع، وحرَّمت على نفسها أشياء كثيرة، كانت تخاف ألّا تتقن صنعها فيتسبب ذلك بسخرية الآخرين منها. لكنّها مع ذلك برعت بأشغال الإبرة والصوف، وكانت تصنع رسومات رائعة على القماش، وتنسج مثلها على صوف الكنزات الشتوية، حتّى قصدتها النساء، والفتيات؛ ليتعلّمن منها، أو ليطلبن أن تصنع لهنّ، ولأولادهن، أشياء مماثلة لما صنعته لها، ولنا.

لم يكن صعباً على من يراقب كريمة أثناء العمل أن يكتشف أنّها تغمض عينها اليمنى، وتعمل! وأحياناً ترفع رأسها، وتعمل، من دون أن تنظر إلى المخرز، أو الخيط. طوّرت مهاراتها بشكلٍ ذاتي، ومن دون أن يعلّمها أحد. لكنّها لم تستطع التخلّص من عقدة النقص الّتي تعمّقت في روحها، وتجذّرت في جسدها، حدَّ جعلها تمشي منكمشة على نفسها، فتبدو قامتها أقصر مما هي عليه).

تمشّى لورينزو قليلاً صوب الشبّاك، نظر إلى الخارج حيث كانت الحديقة، ثمّ عاد، وجلس على فراشه. فجأة رنّ الهاتف! لم نحلم أبداً أن تأتي التغطية إلى هذه المنطقة المنكوبة بالاشتباكات الدائمة. سمعت صوته الواهن يعلو قليلاً معبراً عن دهشته، واستغرابه. كنت أقضم أظافري قلقةً بانتظار انتهاء المكالمة، كي أعرف من يتصل به! أغلق الهاتف، وقال بيأس: «ابن الحجي يقول إنّ أباه سيتأخر في حلب فالمعارك حامية هناك، ويعتقد أنّه من الأفضل أن نبحث عن آناتا وأنتونيتا في مكان آخر؛ لأنّ أباه لم يستطع معرفة أيّ شيء عنهما!»

قلت بغضب: «بل يعرف، إنّه يكذب، قلبي يحدّثني أنّهما أخذتا من بيته

بموافقته. لا يمكن أن أكذّب قلبي، وأصدّقه!».

قال لورينزو: «اهدئي قليلاً، علينا أن نفكّر، ونتخذ قرارنا بعيداً عن العواطف، ما رأيك أن نذهب إلى حلب، ونقابل الحجي هناك؟ بطبيعة الحال سيكون طريقنا إلى حلب، وسنجد وسيلة للوصول إليه». على الرغم من اقتناعي بكلامه، لم يهدأ قلبي، ولم أستطع التخلص من القلق، لكنّي تماسكت، ووافقت على إكمال الحكاية، ريثما نستطيع الخروج من القاهرة.

(ماتت أمّي في نيسان 1978، وكنت أحضّر نفسي لامتحانات الثانوية العامة. وضعنا على قبرها أصيص الزرع الذي أرسلته لها أمّها من «قرارة» في عيد الغطاس، مع مدرّس مصري، كان يعمل في مدرسة «المعرة» الثانوية للذكور. قالت لنا، إنّه قريبها. لم أستوعب يومها، كيف ترسل لها أمّها أصيص زرع من البلاد الغامضة، البعيدة، وأمّها -كما روت لنا- قد غرقت في النيل!

كانت تجلس ساعات طويلة أمام أصيص الزرع، تراقب أوراق الزهرة البيضاء، وهي تتفتّح، تراقب تدرّج اللون الأزرق من الغامق إلى الفاتح، وتهمس: «إنّها سندريلا. ستترك حذاءها عند السّاقية، وتغرق مع الفجر في النيل».

كانت زهرة النيل بلونها الأبيض والأرجواني، الرابط الحسي الوحيد بين أمّي وبلادها البعيدة. فلم تطل إقامة قريبها في المعرّة، ورجع إلى مصر، وانقطعت أخبار من تعرفهم هناك عنها. ولم يبقَ لديها سوى ذاكرتها، ومخيلتها، تحرص على أن تغذينا بالحكايات، وتنقل إلى لا وعينا حبلها السري؛ كي تُبقي جذوة الحنين إلى تلك البلاد متقدة في

ضلوعنا، علّنا نسافر إلى بلدها فتعود إليها من خلالنا!

لكنّ أمّي الّتي دُفنت في تراب قريتنا الصغيرة لم تستطع أن تشكّلنا على صورتها، ولم يتبقَ في ذاكرتنا من جمر حكاياتها سوى الرماد. مجرد صور باهتة لمكان لا تربطنا به أيّ صلة.

بعد رحيلها، لم يعد أبي يزرع الفول «الحراتي» الأخضر لتأكله أمّي من دون طبخ! ولم يعد يزرع القلقاس، أيام فيضان النّهر، الذي لم نذقه مرّة واحدة، وكانت تأكله وحدها! كذلك تخلّى عن تجاربه الفاشلة بزراعة الأرز. فمواسم الفيضان ولّت إلى غير رجعة!

من أكثر حكايات أمّي تشويقاً ما كانت ترويه عن القلقاس، وقصب السكر، وارتباطهما بطقس ديني خاص. وتلك الحكاية ارتبطت بذهني بموقف عنيف اتّخذه أبي لأوّل، وآخر مرّة، من أمّي، حين دخل البيت يوماً، ولم يصفّق بيديه، على عادته، ولم يتنحنح لنعرف أنّه قادم. كان الوقت مساء، وكنّا نجلس في شرفة البيت الخلفية، وأمّي تحكي لنا حكاية القلقاس! كانت تقول: «كنا نأكل قصب السّكر والقلقاس في «عيد الغطاس «.. القلقاس يحوي على مادة سامة تضرّ الحنجرة، وهي مادة هلامية، لكن هذه المادة السّامة إذا اختلطت بالماء تتحوّل إلى مادّة نافعة، مغذية.. سبحان الله، نحن بالماء نتطهّر من الخطايا، والقلقاس يتطهّر بالماء من المواد السّامة.. والقلقاس مثل البشر، يدفن في الأرض، ثمّ يخرج منها ليصبح طعاماً لذا؛ هو مثال للمعمودية؛ لأنّ المعمودية، هي دفنٌ، وموت، وقيامة مع المسيح.. ولهذا يقول بولس الرسول: (مدفونين معه في المعمودية الّتي فيها أقمتم أيضاً معه) ونحن لا نأكل القلقاس إلاّ بعد نزع قشرته القاسية الخارجية..

وفي المعمودية نخلع ثياب الخطايا، لنرتدي الثياب الجديدة الغالية الثمن.. ثياب الطهارة والنقاء، لنصبح أبناء الله؛ أمّا القصب فينمو في المناطق الحارة، ويذكّرنا بأنّ حرارة الروح، تجعل الإنسان ينمو، ويرتفع باستقامة، مثل القصب.. وهو ينقسم إلى عقد، كلّ عقدة تساوي واحدة من الفضائل. كلّما نمت، وازدادت عقدها، اكتسبت فضائل جديدة. مثلكم تماماً. كلّما كبرتم، يجب أن تزيد فضائلكم. داخل القصب قلبٌ أبيض مليء بالحلاوة. مثل قلوبكم. يجب أن تُعتصر من أجل الآخرين. المستقيم الروح، والحلو القلب.. يبقى أبيض، نقياً، صافياً، طيلة عمره. مثل القلقاس والقصب».

يومها غضب أبي، وصرخ بوجهها، فتجمّدت مكانها. تهديد أبي كان واضحاً، وقاسياً، ولم يكن يحتاج إلى مراجعة، فقد صمتت أمّي بعد ذلك اليوم، ولم تعد تحكي شيئاً لنا يتعلّق ببلادها أو بأمّها التي ربّتها.

فقد كانت تخاف أن ينفّذ أبي تهديده، ويرجعها إلى بلادها مطلّقة!

كنت في التاسعة من عمري حين ضبطت أمّي في مشهد غرائبي لا يمكن أن أنساه، كان الجوّ بارداً جداً في أوائل شباط، صحوت ليلاً، وأنا عطشى، لم يكن سهلاً النهوض من الفراش، والذهاب إلى المطبخ في ذلك الوقت، فذلك يعني أن أعرّض فراشي للصقيع، وأن أحتاج وقتاً طويلاً كي أدفئه من جديد حتّى أستطيع النّوم. لكنّ العطش تمكّن من حلقي، وجعلني أغامر بالنهوض. في طريقي إلى المطبخ، سمعت صوت غناء من الشرفة.. كان أبي قد اشترى لأمّي راديو ترانزستر صغير، تستمع منه دائماً إلى إذاعة صوت العرب. كانت الإذاعة المصرية الوحيدة التي يصل بثها إلى بلدنا. وقفت قليلاً، وراقبتها، كانت تمسك

بيدها صورة لشخص ما، وتبكي بحرقة، وتغني مع أم كلثوم «الله محبة، الخير محبة، النور محبة[6]». وعلى الرغم من اجتياح البرد لعظامي، واصطكاك أسناني ببعضها، بقيت دقائق طويلة أستمع بخشوع إلى الأغنية... ولم أنسَ فيما بعد، أن أنبش أشياء أمّي الخاصة، بحثاً عن الصورة الّتي أثارت فضولي؛ لكنّي أصبت بالخيبة، حين لم أجد صورة شخص كما تخيّلت، كانت ورقة مطبوع عليها بخطٍّ جميل «الله محبة» وبجانبها صورة بالأسود والأبيض لسيدة مكشوفة الرأس ترتدي ثوب زفاف أبيض. لم أعرف من تكون، ولو أنّي تمنيت أن تكون جدتي التي لا تفارق حكايات أمّي، والتي ارتبطت في مخيلتي بمفردات غريبة عن بيئتنا، كانت أمّي تستخدمها في حديثها. فكانت تسمي التين «البرشومي» وعندما نقول لها، إنّ التين، خضراوي، وكعب الغزال، وزعيبلي، وليس هناك نوع يحمل هذا الاسم. تقول، كلُّ التين اسمه هكذا؛ لأنّنا نقول في بلدنا عن «الصبّار» تينٌ أيضاً. كنّا نضحك. ونعيد الاسم من باب تقليدها فقط.

توفيت أمّي، وهي في عز صباها، وألقها، كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها، حين أنجبت أخي الذكر الذي لم يعش سوى ساعات! ماتت شابة مثل أمّها، لكنّ جدتي توفيت، وهي في الخامسة والعشرين بعد ولادة أمّي بأيام، تركتها وحيدة في الدنيا، غريبة في بلد غريب. خلّف اليتم شرخاً في روحها فأحبّت العزلة، وكانت متحفظة في التعبير عن عواطفها. أذكر مرّة رأيتها تقبّل كريمة وهي مريضة، مرّة واحدة، تمنيت

(6) ألف ليلة وليلة، غنتها أم كلثوم على مسرح قصر النيل وبثت مباشرة من إذاعة صوت العرب، في شباط 1969

على إثرها أن أمرض أنا أيضاً حتّى أحظى بعناق أمّي وقبلاتها. فيما بعد، عرفت ذلك الرابط الخفي بين جدتي، وأمّي، وكريمة...).

علّق لورينزو مقاطعاً: «لأجل ذلك!»... لم أفهم قصده، فتابع: «أقصد عاطفتك المبالغ فيها تجاه آناتا وأنتونيتا». قلت: «ربّما يكون إحساسي بالحرمان من عاطفة الأم في طفولتي وميلي لأن أكون ذكراً، جعلاني أرى نفسي في الفتاتين، وأمنحني من خلالهما أمومة معطوبة وغير صحية في معظم الأحيان، الأمومة الّتي لم تستطع أمّي منحي إياها وهي على قيد الحياة، لكنّ شقيقتي عوّضتني عنها في غياب أمّي».

(حين ماتت أمّي، كان على كريمة أن تقوم بأعباء البيت كاملة. وخلال أقلّ من شهر، أصبحنا نراها أمّنا، حرصت على ارتداء ملابسها، وزنارها القماشي العريض، وحذاء البيت الخاص بها، ومنديل رأسها، كانت تحتاج إلى شيء من الصرامة، والحزم، وإلى عين سليمة، وبشرة سمراء، كي تصبح نسخة منها! في ذلك العام أصيبت أختي الصغرى فريدة بمرض «اليرقان»، ولم تستطع الالتحاق بالمدرسة الابتدائية. لم يكن ذلك مهماً بالنسبة لأحدنا، فقد غرق أبي في العزلة والصمت، وانشغلتُ أنا بالتحضير لامتحان الثانوية العامة الّتي كان عليّ تقديمها حرّة، بعد انقطاعي أكثر من شهرين عن الذهاب إلى المدرسة. لم تنسَ كريمة الإكثار من طبخ الخبيزة، وغليها لتسقي فريدة منها؛ كي تشفى!

بعد انتهاء الامتحان، ونجاحي في الثانوية بمعدل ممتاز، قرّر أبي أن يترك القرية، ونسكن في حلب. كان له قريبٌ يسكن في حي «المشارقة». استأجر لنا داراً قريبة من داره، وأغلقنا بيتنا في القرية، على أمل العودة إليه بعد أن أنهي دراستي. لم يشأ أبي أن يبيع البيت، ولا

الأرض؛ لأنّه كان يظنّ أنّ إقامته في حلب مؤقتة، وسيعود إلى القرية يوماً؛ ليقضي ما تبقّى له من سنوات شيخوخته.

حاولت كريمة كثيراً أن تستعطفه؛ ليتركها في القرية، لكنّه لم يستمع لرجائها. كانت تخاف السّفر، وتكره تغيير غرفتها، وفراشها ومخدتها. لم تكن تذهب معنا إلى بيت جدي في حماة؛ لأنّها لا تستطيع النّوم في مكان آخر سوى غرفتها! أتخيّلها الآن، هنا في هذه الزاوية، جالسة على حافة سريرها، تؤرجح قدميها، وتقرأ على ضوء القنديل رواية «الأيام» لطه حسين. اصفرّت أوراق الرواية، واهترأت أطرافها، ولم تقرأ كريمة غيرها خلال سنوات! كانت تضعها تحت مخدتها، وأسمع نشيجها أثناء الليل بعد أن تسود العتمة فأغطي رأسي باللحاف؛ كي أستطيع النوم! كنت أسمعها تهمس «تُرى هل سأصبح عمياء مثله؟». كم لمت نفسي حين فقدتها. كان الألم فوق طاقتي على الاحتمال؛ لأنّي فقدت الأم، والصديقة، والأخت. لم أعرف ذلك إلاّ بعد رحيلها. لماذا لا نشعر بأهمية من نحبّهم إلا بعد رحيلهم؟!).

أم البراميل

حدّقت في الفراغ أمامي، كانت شمس العصر قد رحلت، وخلّفت مكانها عتمة خفيفة في الطرف القبلي من البيت، حيث سدّ الجدار المهدّم لغرفة الجلوس شُبّاك غرفة النوم، وترك شقوقاً صغيرة تنفذ منها الرّيح، وتصفر بإلحاح. تساءلت بقلق: «ما الذي حدث؟ لماذا تأخر؟». خرجت إلى الفسحة التّرابية الّتي كانت يوماً أرضاً للدّار مسيّجة بأشجار السّرو، وتحيط ببحرتها الكبيرة أشجار الياسمين، وأزهار العسل، وتصطفُّ أسفلها أصص الريحان، والحبق، والمليسة، وفم السمكة، وأوراق السّجاد، والمنثور بألوانه الغرائبية، وأنواعه كلّها، والغريب، وعرف الديك، وسلطان الزهور، وإكليل الجبل، والعبيتران، وزهر الزوق، والحشيشة الأفرنجية، وعطر الليل، والفتنة، والتمر حنة، والقرنفل، والخزامى. كان أبي مغرماً بكلّ تلك الزهور الموسمية، يزرعها، ويعتني بها كلٌّ في وقته.. فيحفل الربيع بأزهار النرجس، والكلونيا، والأضاليا، والزنبق بألوانه المتعدّدة، وعطره الفريد. وتتكاثف رائحة الشمعة، وسلطان الزهور، وعطر الليل،

أواخر الصيف، حتّى تختنق صدورنا من أنفاسها. لكنّ محاولاته للحفاظ على الفتنة والتمر حنة باءت بالفشل، حتّى تخلّى عن فكرة زراعتها بعد سنوات، بعد أن جرّب حمايتها من الصقيع بتغطيتها شتاء، ولم تنجح التجربة.

الغريب - وسط هذا العشق للزهور- أنّه لم يهتم يوماً لزهرة أمّي، ولم يحبّها أبداً! لم أره يوماً يزرعها أو يعتني بها بل على العكس، كان ينظر إليها بارتياب، نظرة عدوانية أحياناً. لم أستطع تفسيرها وفهمها في ذلك الوقت، لكنّي عرفتها بعد موت أبي، فكانت صادمة ومفجعة! بالنسبة لي اختصرتُ الأزهار كلّها بأوراق «المستحية» تنام على يدي كسنبلة غضة، ونبتة «الغزال(7)» أمسكها بأطراف أصابعي، أمسح خدي بشعيراتها البيضاء الناعمة، أتأملها، وأنا أضمر أمنية، وأنفخ عليها، لتطير من جديد؛ لأجلها كنت أحبُّ حلوى «غزل البنات» فهي شفافة وناعمة، وتذوب بسرعة تحت اللسان، كسرعة «زهرة الغزال» في الطيران! لكنّي أكره أكل أوراقها في السلطة التي يصرُّ أبي على فوائدها الكثيرة، ووجودها على المائدة طيلة فصل الربيع!

أحببتُ القندريس بلونه البنفسجي، وطعمه المميز، وعشبة «الشويكة» والحمّيْضة» كنت أقطفهما من السّهل في الربيع، وآكلهما طازجتين من دون غسل! وأغرمت وأنا صغيرة بالخبيزة التي تطبخها أمُّي مع البصل، وتعصر فوقها الليمون. لكنّ أكثر النباتات الّتي كانت تثير مخيلتي، وأعشقها، نبتة الشفلّح ذات الزهرة البيضاء برائحتها المميزة وإبرتها

(7) الهندباء، يوجد منها 500 نوع. لها ألوان متعددة. تستخدم أوراقها في الطعام. بذورها تنتشر في الهواء عن طريق الريح.

التي تنتهي برأس مدوّر عليه مادة زرقاء بلون الحبر الأزرق؛ كم كتبت بحبرها على الجدران، وعلى دفاتري! كانت قلماً طريّاً صغيراً، يكتب بضع كلمات، وينشف لذا؛ أضطر لجمع عدد كبير من الزهور وحرارة الشّمس تذيب رأسي الصغير، لأكتب رسالة مطولة إلى أبي الذي كان داخلي دائماً!

أتأمل السّهل الواسع أمامي، لا أجد أثراً لكلّ تلك النباتات التي ارتبطت بطفولتي وأحلامي.

السّهل الواسع الندي مفروش بالأخضر القاتل! شعرت بالرعب، قلبي يرتجف، وكأنّ تلك الزهرة تتسلّق رقبتي، وتطبق على حنجرتي بأصابعها الحديدية. تساءلت بصوت متقطّع، مخنوق، «لماذا يتركونها هكذا؟ لماذا لا يجتثونها من جذورها؟».

قبل العصر، كان الشاب قد أحضر سيارة تابعة للجيش الحر، يقودها متطوّع في الإسعاف، جلس لورينزو إلى جانبه، وأشار إليّ، لأصعد إلى المقعد الخلفي. السيارة كانت عبارة عن بيك-آب، وضع له «شادر» من الخلف، وله كرسي من الحديد، وأرضه ملطخة بالدم. خفقَ قلبي، وأنا أتحاشى لمس الدماء بحذائي، جلست في الركن، ولففت شالي جيداً حول رأسي، كان الهواء بارداً، والسّماء ملبّدة بالغيوم. من الواضح أنّها ستمطر. تمنّيت من أعماقي أن يشتدّ المطر والهواء، كي لا أرى الطائرات في السّماء. سريعاً تحقّقت أمنيتي، وتسرب الماء من غطاء البيك آب إلى الداخل. وفي أقل من ساعة صارت أسناني تصطك ببعضها، وعظامي ترتجف من البرد. لم أجرؤ على النقر فوق الزجاج الفاصل بين مقعدي ومقعد السائق؛ لأطلب منه التوقف كي أصعد

بجانب لورينزو. عليّ أن أتحمّل بضع ساعات أخرى!
خلال المسافة الّتي قطعتها السيارة لتصل إلى سراقب، هاجمتني صور الماضي الزاهية للمكان. لم يكن الطريق وقتها إلى حلب يستغرق أكثر من ساعتين ونصف بالسيارة، الآن للوصول إلى سراقب نحتاج إلى ثلاث ساعات، أو أكثر! تذكرت جيداً آخر مرّة سافرت فيها مع أبي إلى حلب. جئنا في زيارة خاطفة للقرية، اتفق أبي مع قريبه على البحث عن زبون للبيت، أخيراً اقتنع ببيعه! لم يأخذ منه سوى حقيبة متوسطة الحجم، وضع فيها بعض الصور القديمة بالأسود والأبيض، وصندوقاً خشبياً يحتوي رسائل من أصدقائه في مصر، وأوراقاً رسمية. حمل بعض التذكارات الّتي تزيّن الجدران، لكنّه رمى صورة عبد الناصر الكبيرة -الّتي أخرجها من قاع الصندوق- في التنور مع بعض الدفاتر القديمة والصور، وأشعل النّار فيه. كاد قلبي يتوقف، وأنا أرى صورة رمز من رموز الوحدة والقومية العربية الّتي آمن بها أبي طيلة عمره تلتهمها النيران! لم أشأ أن أكلّم أبي طيلة الطريق إلى حلب. لكنّه كان يملك من الحساسية ما يكفي لمعرفة ما يزعجني. يومها أخبرني أنّه ترك صورة عبد الناصر على الجدار سنوات طويلة؛ كي لا يشفى جرحه. وعندما أخفاها في الصندوق فعل ذلك خوفاً من المخبرين الذين انتشروا على طول البلاد وعرضها في عهد الديكتاتور؛ فوجود مثل هذه الصورة على جدار البيت قد يودي به إلى «وراء الشمس». نظرت في عينيه متسائلة عن السّبب الذي يجعل حبّه لعبد الناصر ملتبساً بالكراهية! أخبرني أنّ عبد الناصر كان رمزاً، لكن ما فعلته حكومته في سوريا أثناء الوحدة، كان كافياً للكفر به، وبالوحدة. لم أكن وقتها

أعرف ماذا جرى، لم أعرف شيئاً عن تأميم الأراضي والمصانع، لم أعرف شيئاً عن هبوط قيمة الليرة في سوق الصرافة المصري، ولا عن هبوط مستوى المعيشة، وعن تسلّم الضباط المصريين زمام الأمور، وتنحية السوريين، ولا عن السرّاج نائب الرئيس في الإقليم الشمالي! لكنّي تأثرت كثيراً بمسألة التأميم. وفهمت عمق الجرح الذي أصاب أبي بشكل شخصي حين أمّمت دولة الوحدة أملاك جدي! قلت له: «لكنّك كنت مؤمناً بضرورة الوحدة بين البلدين، وكنتَ من رجالها». قال بحرقة: «لم تكن وحدة كما تصورنا، كانت مجرد احتلال!».

أخيراً وصلنا سراقب، كانت العتمة تسيطر على المدينة، وأصوات مولدات الكهرباء تحوّل سكون الليل إلى مهرجان من الضجيج المزعج. شعرت بالصوت يتضخم في أذنيّ حتّى فقدت توازني، وتحوّل الصوت إلى وشيش لم أسمع معه ما يقوله لورينزو. سرت خلفهما باستسلام. طرق السائق باب أحد البيوت، تحدّث مع صاحب البيت، فرحّب بنا، وأدخلنا إلى غرفة مفروشة بالبسط والمساند على الطريقة العربية. جلست وأنا أرتجف. عاد صاحب البيت بعد دقائق حاملاً مدفأة كهربائية، اعتذر عن عدم وجود مازوت أو حطب للتدفئة، وعن عدم وجود كهرباء تحتمل تدفئة البيت بأكمله؛ لأنّهم لم يشتروا سوى «أمبيرين[8]». وقال: «إنّ برد نيسان هذا العام شديد، ومزعج!» لم يُضع لورينزو الوقت، تحدّث مع صاحب البيت عن البلد، وما تعانيه كونها تحرّرت من جيش النّظام، وفيها آلاف النازحين من المناطق المجاورة،

(8) المدينة ليس فيها كهرباء حكومية. والسكان يشتركون بمولدات للكهرباء. يشترون الكهرباء بالأمبير. كلُّ شخص حسب استطاعته. الأمبير -ساعة كتابة الرواية- ب1700 ل.س: لأنّ كلّ شيء تابع لارتفاع سعر الدولار.

وعن كيفية تأمين احتياجات الناس. التقط بعض الصور لأطفال العائلة. وسألهم عن رأيهم بما يجري. ابتسم أحدهم، وقال: «الهبيلة يقتلنا! ألا ترى ما يجري؟ إنّه يكره الأطفال، يخاف منّا، لهذا يبيدنا بطائراته. لكنّنا لا نخاف منه. القرباط الذين يسكنون على أطراف بلدنا أحسن منه، في الصباح سآخذك إليهم لترى بعينك». لم يعرف لورينزو ما قصده الطفل، ولم أجد مناسبة لأشرح له.

في الصباح الباكر سمعنا أصواتاً تنادي «جهّزوا أنفسكم سنغادر». عرفنا أنّ أهل البلد ينزحون في الصباح إلى أطرافها ريثما تلقي الطائرات حمولتها، وتنهي طلعاتها، ثمّ يعودون إلى منازلهم!

في الطرف القبلي تنتصب خيام «النَوَر، أو القرباط». أمّا الأغنياء منهم فهم يعيشون في فيلات فخمة على أطراف السّهل الواسع، ويعمل معظمهم في صناعة الأسنان الذهبية، وتركيبها. الرجال يذهبون إلى فرنسا ليعملوا هناك في صناعة الأسنان الذهبية، وقد شكّلوا ثرواتهم الضخمة من هذه الصناعة. والنّساء لا يستطعن التخلي عن عادة الشحاذة المرتبطة بجذورهنّ!

هؤلاء النوَر الشحاذون كانوا يدعون الناس، ويقدّمون إليهم الطعام! المضيف شرح لنا أنّ «القرباط» لا يستطيعون العيش داخل المدينة؛ لأنّ العيش في بيوت الحجر لا يستهويهم. استأذن لورينزو أحدهم كي يأخذ صوراً لإحدى الخيام من الداخل، فلم يسمحوا له. نظر صوبي مستنجداً. ابتسمت بتواطؤ. كنت أدرك أنّ أخذ الصور من دون إذن مخاطرة كبيرة غير مضمونة النتائج؛ لكنّي غامرت بالدّخول بحجة أنّي متعبة، وأريد أن أستلقي قليلاً. لم يخطر ببالي أنّ النساء في الداخل

أشدّ فطنة مني، وأنّهن يعرفن استخدام الهواتف الذكية، وقد أدركن مباشرة، أنّي سأصور حصنهن، حين أخرجت هاتفي من جيبي طلبن مني بلطف ألا أفعل، وقدّمن لي فراشاً لأرتاح.

لا يمكن اقتناص المتعة العابرة من الوجود داخل خيمة طالما حلمت أن أدخلها في طفولتي، حين كان النوَر يخيّمون على أطراف سهل الغاب قرب قريتنا، إنّها متعة ناقصة ومحرّمة في ظروف الحرب!

شعر لورينزو بالإحباط لفشل خطته، واكتفى بتصوير الأطفال خارج الخيام، وعلى أطراف الحقول. في المساء عاد النّاس إلى البيوت -من جهات المدينة الأربع- حاملين معهم أمتعتهم القليلة التي أخذوها في الصباح مع بعض الزاد.

المنظر لا يشبه عودة الفلاحين من أراضيهم مساء في قرى الغاب، مع هذا شعرتُ بالدفء، والحميمية في المشهد المؤلم لنزوح السكان، وعودتهم. العودة تبعث الأمل مع الغياب وتنشر إحساساً بحتمية انتهاء هذا التشرد. أحسست بذلك التقارب بين البشر، والرغبة في مساعدة بعضهم، كنت أظنّ أنّ الحروب تُدمّر النّفوس كما تُدمّر الأماكن، وتقتل الناس، لكنّ المشهد، أعاد إليّ بعض الثقة باختلاف الإنسان السوري الذي يصرُّ على الخروج من رماده.

في صباح اليوم الثاني، توجهوا مع سكان البلدة إلى الطريق الدولي، ومكثوا هناك على أطراف الطريق، بين أشجار السّرو، والزيتون. في البداية ابتعد النّاس عن مكان جلوسنا، تجنّبت النّساء النّظر صوبنا، ومنعن أطفالهن من الاقتراب. حين توسطت شمس الظهيرة السّماء، ولم يتوقف الطيران عن القصف والتحليق في سماء المدينة. أخرجت

النّساء الطّعام من السّيارات المركونة بين الأشجار، وأشعلن حطباً، وحشائش يابسة لغلي الشاي، وأرسلن بعض الطعام لنا مع الأطفال. التقط لورينزو صوراً للأطفال فتجمعوا حوله، وراحوا يسألونه، ويتحدّثون بشكل جماعي. عندها التفتَت النساء أيضاً، وصرن يراقبن، ويسمعن الأحاديث الدائرة بين الغريب وأطفالهن. نهضت إحدى العجائز، واقتربت منّا ببطء، وسألت بفضول: «من أين أنتما؟ تتحدّثان مثلنا!» ابتسمت، وقلت: «من حماة». هزت العجوز رأسها، وتمتمت: «إنّ بعض الظنّ إثم». لم يفهم لورينزو قصد العجوز، لكزته، وهمست: «السيدة ظنّت أنّنا أجانب، يعني كفّار، كلامها بمثابة اعتذار».

حين حلّ المساء، أحضر مضيفنا سيارة لنقل النّاس إلى بيوتهم. سأله لورينزو إن كان يستطيع إيصالنا إلى حلب. اعتذر المضيف؛ لأنّ السّيارة ليست له، لكنّه وعدنا بعد إيصال النّاس إلى بيوتهم بأن يتدبر الأمر.

كانت الساعة العاشرة ليلاً حين طرق الباب رجل ملثم، ومعه السيارة. لم يكن صاحب البيك آب مستعجلاً، وقف جانباً، وأشعل سيجارة، وانتظرنا حتّى ركبنا، ثمّ دخل إلى سيارته، وقادها بهدوء. قطع لورينزو الصمت الذي ساد لمدة طويلة، وسأل السائق عن الزمن الذي يستغرقه الطريق إلى حلب؟ ردّ السائق: «ليس هناك مدّة ثابتة، الطريق مرهون بالحواجز، والاشتباكات المفاجئة، والتحويلات الّتي تظهر فجأة، وتختفي فجأة. أتمنّى ألّا نتعرّض لأيٍّ من هذه المفاجآت، وستصلان، إن شاء الله، خلال ثلاث ساعات.

حفيد كسرى

قبل أن أقرأ كتباً كثيرة في التصوف عند المسلمين، وقبل أن أعرف شيئاً عن عالم الروحانيات عندهم، كنت أشعر بذلك الانجذاب الخفي لحلب! شيءٌ ما يأخذ بيدي، ويدور بي في شوارعها، فأجدني أتجاوز ساعة باب الفرج، وأعبر الشارع تجاه شرطة النجدة، تسحبني رائحة الكعك حتّى بوابة القصب! وأقف مُسمّراً أمام الفرن وسط الزّحام!

حين لمحني الفرّ أوّل مرّة، ابتسم لي، وكأنّنا التقينا قبل يومين! لازمني ذلك الشعور في الدقائق التي أحضر فيها الكعك السّاخن من داخل الفرن، وناولني إياه، رافضاً أخذ الثمن! في عينيه ذلك الدفء الذي يوحي بالمعرفة الناجمة عن قرابة أو صداقة قديمة. أزال الغموض المحيط بلقائنا، حين قال لي: «لماذا غبت طويلاً؟ اشتقنا لكَ يا رجل». إذن، كلانا يعتقد أنّه يعرف الآخر، ورآه من قبل! لم يكن الفرّان الشخص الوحيد الذي يعرفني، كلّما دخلت زقاقاً في حي «الجديدة» ألتقي بشخص يلقي عليّ التحيّة، وكلّما دلفت دكاناً لأشتري شيئاً، أفاجأ بصاحبه يتحدّث معي كأنّ بيننا شيئاً مشتركاً! في البداية كنت

أضطرب، وأحاول لملمة شعوري بالإحراج والبلبلة. لكنّي تعودت بعد أيام على محادثة الأشخاص الذين ألتقيهم، على أنّي ابن الحي الذي لم يفارقه يوماً. صرت أتجوّل في الأزقة، وأرى الشّخص أمامي قبل ظهوره بأمتار، وأتعرّف عليه! حاولت أن أجد تفسيراً علمياً لهذه الظاهرة فلم أجد، اخترت الغوص في تفاصيل حلب، أزقتها، بيوتها، كنائسها، مساجدها، قلعتها، أغانيها، وطعامها. حتّى أصبحت جزءاً مني، ولم أعد أستطيع مغادرتها.

لا تقاس المخاطر التي رأيتها في رحلتنا إلى سهل الغاب، وريف حلب، بما عشته في اليومين الماضيين في «بستان القصر» على مشارف الموت. منذ سنة كنت هنا، كان بستان القصر حافلاً بالحياة، مكتظاً بالسكّان، غاصاً بالحماس، والتّمرد. كلُّ ما فيه يوحي أنّ العالم الغاشم سيسقط في لحظات، وستحتفل تلك الجموع الحرّة بتحقيق إرادتها. لكنّ ما حدث أثناء إقامتي الّتي صادفت وجود بعثة المراقبين، إلى أواخر أيلول، جعلني أفقد الثقة بإمكانية الموازنة بين إرادة الشعوب، وآلة القتل! حاولتُ مراراً أن أستعيد قوة إيماني متخذاً من التاريخ عوناً لي على ذلك. لكنّ المشكلة الّتي تبرز واضحة للعيان، أنّ كلَّ من مرّوا من هنا، ودمّروا حلب، من هولاكو إلى تيمورلنك، لم يمتلكوا آلة القتل الهائلة التدمير الّتي يمتلكها نظام الحكم في سوريا؛ وبالتأكيد، لم يمتلكوا هذا الكم الهائل من الحقد والاستهتار بآثار البلد وأرواح النّاس. أيّ عقل بشري يمكنه أن يصمت عن هذا، ويشجع عليه؟

ربّما لا يشبه هذا الدمار الذي حلّ بالمدينة على يد عصبة حاقدة

سوى دمارها على يد كسرى الأوّل الذي دمّرها، وتركها قاعاً صفصفاً، حتّى أعاد بناءها جستنيان[9]، وأحاطها بسور مبني من الحجر.

حين عبرنا إلى بستان القصر -وقت الذروة- كان رصاص القناصة ينطلق مبتهجاً باختراق تلك الجموع المتلاطمة كأمواج البحر، المسرعة هرباً من الموت، ليستقرّ في جسد إنسان، كان يحتفل ببقائه حياً منذ دقائق حين اشترى لأسرته بعض الحاجيات! هرع بعض الشباب لحمله، وتناثرت أكياس البطاطا، والبندورة، والخيار أرضاً. نطق عبارة وحيدة، وأسلم الروح: «قولوا لأولادي، وزوجتي: إنّي أحبّهم كثيراً». إنّهم يتحدّثون عن الحبّ في لحظاتهم الأخيرة، لم يصرخ «أنقذوني» كلّهم يبحثون عمن يوصل رسالتهم الأخيرة!

قالت فضيلة بحسرة: «أترى كيف نصارع الموت بالحبّ؟ لكن ما أستغربه موقف المؤيدين بعد هذه السنوات من الإبادة والتدمير. ألا يرون ما يحدث؟ ألا يفكرون فيمَ يحدث؟».

كنت أدرك أنّ الأمر لا يرتبط بالتّفكير، بل بفكرة العبودية نفسها. بعض النّاس إنْ امتلكوا حريّتهم، لا يعرفون ماذا يصنعون بها، فيهدرونها، أو يغرقون في الفوضى، أو يبحثون عمّن يستعبدهم من جديد لذا؛ نراهم يرفضون تلك الحريّة، ويتشبثون بأذيال عبوديتهم لآخر رمق! إنّها بالنسبة إليهم طوق الأمان، والطغاة يعون هذه الظاهرة تماماً، ويحكمون من خلالها. ما أقبح ما أراه! باستطاعة البشر في

(9) جستنيان البيزنطي (518 565)

لحظة، أن يحولوا كلّ الجمال من حولهم إلى بشاعة مطلقة، لسببٍ مجهول بالنسبة لهم، لكنّه مرتبط بلا وعي، تأصّل، وتغذّى على إيقاع الأذى بالآخرين، وتحطيم ما لديهم؛ فقط لأنّهم لا يستطيعون امتلاكه!
في مثل هذا التوقيت منذ عام، كنت هنا.. أسهر في هذا الحي مع شباب استشهد معظمهم في المظاهرات السّلمية برصاص القنّاصة، والقصف. كانت حلب امرأة رائعة الجمال، تتفتّح في مساءات الرغبة والحلم، شهية كما دائماً، وكنت أشمّ رائحة شعرها المبلول، فتهفّ من شقوق جدران حاراتها القديمة نسمات محمّلة بعبق زهر الليمون، والتّرابة الحلبية، والدريرة[10]، وهي تضع قدمها في جرن الحمّام، تقيس الحرارة، ونبضات قلبي! تردّ شعرها الأجعد إلى الخلف، فتنثر بللها في روحي، وتنظر بطرف عينها، فيسّاقط منها العبير والوجد، تضحك عن أسنان منضودة كاللؤلؤ، وتغيب فجأة، تاركة لي أثر جمال لا يقاوم، كلّما عبرت في حاراتها أسكرتني الرائحة المخزونة في حجارتها، ودفعتني لولوج بواباتها، وغلّقت عليّ الأبواب! تنقطع الكهرباء ساعات طويلة، لكنّي أعرف كيف أستهدي إلى دربي بإيقاع نبضي، وأصوات الشباب التي تتحدّى الدبابات، والرصاص المنهمر من الحواجز. لم يفكّر أحد في ذلك الوقت بالحرب، وبشاعتها، كانوا غارقين في الحلم، تخيّلوا أنّ الأمر لن يطول، وسينالون حريتهم بأقل قدر من الخسائر.
هكذا نحن، حين نكون في الحرب، نستحضر أيام السلام، وحين نكون أمام القبح نستحضر الجمال، فالقيم السلبية لا تُدرك إلاّ بأضدادها!

(10) خلطة مكونة من مطحون البيلون «التّرابة الحلبية» وهي حجر غضاري حلبي، ذو خواص صحية، ومحسنة للشعر، وفروة الرأس، مهما كان جافاً، متقصفاً، أو دهنياً طرياً، مع مجموعة من العطور، و مع عطر الميعه، يفرك بها الرأس أثناء التفريك، ثمّ تغسل.

استطعنا النّجاة من مصيدة الموت المرابطة في فوهة القنّاص، سارعنا للالتجاء إلى أقرب بناء. طلبنا ماءً للشرب من سيدة لم تبرح مكانها على الشرفة، تراقب جموع البشر السائرة في الاتجاهين، وربّما تنتظر أحد أبنائها الغائبين! دخلتْ إلى المنزل، وعادت تحمل قنينة ماء، رمتها إلينا، تلقفتها بمهارة، وسألتها إن كان باستطاعتنا الصعود إلى سطح البناء؛ لنلقي نظرة على المدينة؟

حين تجاوزنا الطابق الأخير، قالت فضيلة: «من هنا، وعلى هذا الارتفاع، يمكنك رؤية المكان. هل الرؤية واضحة لديك؟».

قلت: «ليس تماماً، في مطلق الأحوال لن أعرف التّفاصيل كما تعرفينها، وأيضاً لن أستطيع تخيّل حيٍ اندثر، وقامت مكانه أبنية أخرى! لا أرى سوى الجنود والدبابات، والحواجز، وأكياس الرمل، والأعلام، وأيضاً الجدران المهشمة بالقذائف. لا يبدو لي أنّ هناك حياة طبيعية!

قالت: «الحياة لن تكون طبيعية في ظلّ الحرب، لكنّها مستمرة. لمستَ بنفسك طبيعة الخطر الواقع على رؤوس من يعبرون يومياً إلى بستان القصر، ومنه إلى الجهة الأخرى»!

مدَدت يدي بالمنظار إليها، ردت يدي بلطف: «لا أحتاج لمنظار، أنا أرى كلّ شيء بعين روحي، هناك عند الزاوية التي تعتقد أنت أنّها حاجز لجيش النظام، مدخل حارتنا. لن تمشي طويلاً، حوالي مئتي متر فقط، ستكون أمام باب بيتنا. لا أشكّ أنّك ترى الآن بوضوح! اذهب يساراً، تصبح عند مدرسة «الاتحاد القومي»، تقدّم إلى نهاية الحي، هل خرجت منه؟ هناك ستجد مقبرة هنانو». قلت باستغراب: «أيّ

مقبرة؟ هناك جامع، خذي المنظار، وتأكدي». قالت بحرقة: «لا حاجة بي للمنظار، فعلاً هناك جامع، لقد أزالوا المقبرة، ليبنوا مسجداً باسم ابن الديكتاتور المقبور! يريدون أن يغطوا جرائمهم بجرائم أخرى. لكنّهم لن يستطيعوا أن يمحوا ذاكرتنا!

خفضت رأسي بسرعة، وسحبتها من يدها، لننبطح أرضاً. في اللحظة التي أصمّ أذنيّ صوت رصاصة، استقرّت بالعمود، حيث كانت تستند. زحفنا باتجاه مدخل الدّرج. قالت، وهي تلهث: «لقد أنقذت حياتي للمرّة الثالثة». قلت بهدوء: «بل لم تنتهِ حياتك. أنا مجرد أداة لإرادة أقوى».

زيّن وجهها الشاحب ابتسامة باهتة، تلك الابتسامة التي وقعت في قلبي كصاعقة منذ سنوات في أوّل مرّة أراها فيها حين التفتت إليّ، وقالت بالعربية وكأنّها تحدّث نفسها: «موسيقاه تُحضر إليّ الوطن على طبقٍ من الحنين» ثمّ رفعت وجهها إلى السّماء، وقالت بدهشة: «ستمطر». قلت لها بالعربية: «لنغادر إذن». حدّقت فيّ باستغراب، لم تكن تتوقّع أنّي أفهم ما تقول، وسارت معي وكأنّها في حلم. ثمّ ركضنا في الشوارع بحثاً عن مكان يقينا المطر، ومع أنّي لم أخطط لاصطحابها إلى شقتي، وجدت نفسي أسير تلك الابتسامة الشاحبة الحزينة كابتسامة موناليزا. فيها ألم خفي، واحتجاج صامت على الوجود. لم أشأ أن أسألها عن شيء في تلك الليلة، اكتفيت بالتقاط العديد من الصور لها. تأملتها وهي تطبخ، وهي تتحدّث، وهي ترتّب البيت. كلّ شيء أصبح حميمياً وقريباً من القلب حين تلمسه بأصابعها. أكثر ما أثارني فيها، أنّ الزمن متوقف تماماً عن غزوه لملامح وجهها، فما تزال فيه نداوة الشباب ورقة البشرة التي تشبه بشرة الأطفال بشفافيتها حتّى تكاد

تلمح الشعيرات الدموية الدقيقة تحتها، مما يجعلها تحمرّ باستمرار فتصبح كتفاحة ناضجة، وأنا مغرم بالتّفاح!

بعد أن تركتني في الصباح، وقالت، إنّها مسافرة إلى ميلانو. امتلكت اليقين بأنّي لن أستطيع البقاء في ألمانيا أكثر، وأنّ عليّ العودة إلى إيطاليا للبحث عنها!

قالت، وقد غاض الدم في عروقها: «ليتك تركتني واقفة، أريد أن أكمل المشهد، فأنا أحيا الآن هناك، أكاد أسمع همس أبي، وهو يدعو، بعد صلاة العشاء، لي بالتوفيق، ولكريمة بالستر! أكاد أرى كريمة أمامي تهمس: «بأمان الله، انتبهي لنفسك».

قلت: «ليس سيئاً أن تعيشي لحظات الماضي ثانية. نحن غالباً ما نعيش ماضينا مراراً، عندما لا يكون الحاضر كما نريد. ماذا حدث في ذلك الوقت؟ أذكر أنّكِ قلتِ لي إنّ إقامتكم في المشارقة لم تستمر سوى سنتين؟».

قالت: «نعم، سنتان فقط! سنتان مليئتان بالأحداث، وكأنّهما عمر بأكمله!

بوّابة الروح

طيلة هاتين السنتين لم تخرج كريمة من البيت مطلقاً. اشترت ماكينة خياطة، وجعلت الغرفة الصغيرة الملاصقة لباب الدار مشغلاً، ومعتكفاً لها. تعودت نساء الحي عليها بسرعة، بعد أوّل زيارة لنا، صارت الجارات يقصدنها في صنع ملابس لأطفالهن بالسخرة!

كنت أقوم بزيارة السّوق كلّ خميس، لأحضر لها القماش، والأزرار، والخيطان، وزيت الماكينة، والإبر، وأذهب إلى «الجديدة» لشراء الصوف، وأدوات الحياكة. حتّى الذهب، لم تشتره بنفسها، كنت أختاره لها! إن تعطلت ماكينة الخياطة آخذها أنا إلى دكان أبي بشير في خان الحرير، كانت دكانه الصّغيرة على زاوية الشارع منخفضة، تنزل إليها بدرجات ضيقة، وكان يشفق عليّ من حمل الماكينة، فيناديني: «اتركيها عندك، سأصعد لآخذها». أبو بشير كان رجلاً مسناً، مع هذا لم يسمح لي مرّة بحمل ماكينة الخياطة، والصعود بها بعد إصلاحها، كان يحملها عني، ويضعها على الرصيف، ويطلب لي سيارة أجرة، ويوصي السائق بي!

ويبدو أنّ كريمة تأقلمت مع وضعها الجديد، ونظّمت وقتها، فكانت تستيقظ فجراً، تصلي، وتجلس وراء ماكينة الخياطة مع فنجان قهوة كبير قربها. في الثامنة تضع الفطور، وتوقظنا. وفي الثانية عشرة تدخل إلى المطبخ لتحضير الغداء. وتعاود العمل فترة ما بعد العصر.

لم يكن أبي يعمل في ذلك الوقت، بل يقضي وقته بين المسجد والمقهى. يومياً يذهب مشياً إلى الجميلية، يحطُّ رحاله في مقهى العطري، ويعود ماشياً. المشي اليومي يعوضه، بشكلٍ جزئي، عمّا يفقده في المدينة من صحة، ويفتقده من هواء نقي، كان زاده الصباحي في سهل الغاب! ومع أنّ ما يرسله قريبنا من إيراد أرضنا غير كافٍ، رفض أبي أن تشارك كريمة في مصروف البيت، وقال لها: «دعي نقودك للزمن». كان أبي يشعر بالحرقة؛ لأنّه على يقين أنّ كريمة ستبقى عانساً، ولن يطلب يدها أحد، على الرغم من جمالها، وصنعتها التي تدرّ عليها ذهباً، تتزيّن ببعضه، وتحتفظ بالباقي في صندوق حديدي!

في كلّ صباح حين أغادر، كنت أسمعها تدعو لي بصوتٍ هامس: «الله يحميكِ، ويبعد عنك أولاد الحرام!» كأنّه صوت أمّي! الدعاء نفسه الذي كنت أسمعه منها، وأنا في طريقي إلى المدرسة، أسمعه من كريمة، وأنا في طريقي إلى الجامعة. التوصيات ذاتها، حفظتها كريمة؛ لكنّها ليست كأمّي، فهي متدينة حدّ الهوس، ولم يكن هوسها بالنّظافة أقلّ من هوسها وحرصها على أداء الفرائض الدينية. كنّا نخضع لنظام فرضته علينا، على الجميع أن يخلع حذاءه عند الباب الخارجي، ويحتذي شحاطة البيت. تراقبنا حتّى تتأكّد أنّنا غسلنا أيدينا قبل تناول الطعام. الحمّام الأسبوعي فرض على الجميع؛ لأنّها تقضي ليلة

الخميس في غسل الملابس، ونشرها! وتقضي يوم الجمعة في تحضير الطبخات الصعبة، وكي الملابس.

فجأة جاء لكريمة عريس! لمعت عينها السليمة بالغبطة، وجارتنا أمّ محمود، تسرُّ في أذنها، أنّ أحد رجال الحي توفيت زوجته، ويرغب بالتقدّم لخطبتها. انقلبت كريمة رأساً على عقب. خرجت لأوّل مرّة من البيت منذ سكنّا الحي، أخذتني لأكون دليلاً لها! كانت مرتبكة وخائفة. تشبّثت بذراعي بقوة، ونحن نعبر الطريق إلى باب جْنين لندخل سوق «المْدينة». لم يكن السوق بعيداً عنا، فحي المشارقة يفصله عن حلب القديمة سوق الهال، وكراجات الانطلاق، ويقابله بعد ضفة النّهر، المسافة الفاصلة بين باب أنطاكيا، وباب جْنِين.

تمت خطبة كريمة في رمضان، وكان مقرراً أن تتزوّج ثالث يوم عيد الأضحى. العريس كان مستعجلاً، لكنّ والدي كان يريد إعطاء فرصة لكريمة لتتعرّف عليه، وتجهّز نفسها كما يجب.

في السّر، لم تكن كريمة تحرمنا من أيّ شيء نرغب فيه، من دون علم أبي، تدس في يدي كلَّ يوم ليرة كاملة، وهي تهمس: «لا تعودي ماشية.. سيرهقك الطريق». أبتسم لها، أضع الليرة في حقيبتي، وأذهب مشياً!

المشي متعتي التي لا أتنازل عنها في طريقي إلى الجامعة. أخرج قبل بدء المحاضرات بساعة، مع أنّ الطريق لا يأخذ مني -عندما يكون الجوّ صحواً- أكثر من نصف ساعة. ثلثا الوقت تأخذه المسافة من «مقبرة هنانو» حتّى الكرة الأرضية، والثلث لباقي المسافة. حيث يصبح الطريق منبسطاً وأقل ازدحاماً. من مقبرة هنانو، وحتّى الملعب البلدي، ينحدر الطريق ضاغطاً على ساقيّ، ومن الملعب وحتّى جسر القطار يصبح

سهلاً، ثمّ يبدأ الصعود القاسي، حتّى أتجاوز الإذاعة، وأحاذي حديقة الكواكبي.. وألتقط أنفاسي حين أنعطف يميناً، محاولة البحث عن ظلٍّ للأبنية أحتمي به من الشمس من دون جدوى! الشمس رفيقتي في الصباح، تدفعني في ظهري برفق، وتدفئ عظامي، ثمّ تتسلّق يميني حين أتجه شمالاً.. وتحدّق فيّ بحدة حين أمنحها وجهي بحثاً عن الياسمين المتدلي على أسوار حدائق البيوت. في تلك اللحظات عندما أحشو حقيبتي بالياسمين، كنت أتمنّى أن أجد مكاناً قربه، ليشم الرائحة، ويبدي استغرابه، فأفتح حقيبتي لترى عيناه مهرجان البياض، فيبتسم لي. لكنّ الأمر لا يحدث أبداً كما أتخيّل، بالعكس تماماً عندما أصل المدرّج، أراه قد حجز مكاناً بين أصدقائه، وأجد طريقي إلى المقاعد الخلفية، حيث أنفرد بنفسي، وأحصر ذهني في تلك المسائل المعقدة التي يشرحها الدكتور، فتبدو لي كطلاسم لا نهاية لها! أحياناً أرمي الزهور بين الأشجار في الحديقة القريبة، وأغلق حقيبتي على فراغ روحي. أحبسها انتقاماً لفشلي في لفت انتباهه ولو مرّة واحدة. وأتابع طريقي هذه المرة في حارات فرعية. وأحياناً يخطر لي، أن أبقيها كدليل على الخيبة، وأحملها معي إلى البيت، فتكون من نصيب كريمة! تفرح بها كثيراً. ربّما لأنّها تعتقد أنّي قطفتها خصيصاً لها. وأنا أتركها تعيش تلك الكذبة البيضاء، لتحظى ببعض الرضا. كريمة كانت راضية دائماً بالقليل، الذي منحته لها الحياة. حين كنت أصحبها في أزقة المدينة، لنشتري جهازها، كانت تُطرق خجلاً حين يعرض البائع عليها ثوباً نسائياً داخلياً، وتدير وجهها صوب أثواب القماش المرصوفة على رفوف الدكان، وأتولى أنا عملية الشراء. وحين نخرج، كانت تتعثّر بظلّها، وتتشبث بي، وهي تسمع عبارات ترحيب

الباعة الجالسين أمام الدكاكين في «سوق النسوان»، تفضلي يا خانم، تفضلي يا ست. كلُّ سوق في المدينة كان يأخذ معنا يوماً كاملاً في البحث والتنقيب. كريمة كانت ترتاح للشراء من الأسواق الخارجية الأقل ازدحاماً وإحراجاً. فلم تكن معتادة على سماع عبارات الترحيب من الباعة التي تقترب أحياناً من التغزل بالبضاعة ومن سيشتريها. وأصرّت أن تكون ملابسها الداخلية بمجملها قطنية ومن عند «الورّاق». قلت لها، نشتريها من «خان الجمرك» فرفضت. ومن غير إلحاح، أخذتها إلى حي الجديدة، كي نشتري الصوف، ومن هناك تصنعت أنّي لا أعرف الطريق جيداً حتّى أخذتها بين الأزقة لعند «مكي» واشتريت لها رغماً عنها طقم النوم الأبيض. قلت لها: «لا بدّ لكلِّ عروس من شرائه». كانت ترى السعر مرتفعاً، وحين عدنا إلى «التلل» لنشتري الإكسسوار والأحذية، رفضت أن تأخذ حذاءً بألف ليرة من عند «فامينا» قالت لي بارتباك: «سأضع قدمي في حذاء بهذا السعر؟ لماذا؟ أين سأذهب به؟ ممَ تشتكي الأحذية التي ثمنها مئتا ليرة؟ لا، لن أشتري. غداً نذهب إلى سوق «النحاسين»، ونشتري من هناك». وذهبنا في اليوم التالي. أوّل دخولنا «السقطية» لكزتني قائلة: «رائحة اللحم شهية». سحبتها من يدها ودخلنا المطعم، حاولت التملص وهي تقول: «لا أستطيع الأكل في مكان عام، ذلك مخجل حقاً...». لكنّي لم أرد عليها. تغدينا، وتابعنا سيرنا، لشراء ما تبقّى من أغراض.

في أقل من شهرين -ولم يكن قد بقي للعيد الكبير سوى عشرة أيام- انتهينا من شراء جهاز كريمة. وكان عليها أن تخيط ثوب زفافها خلال الزمن المتبقي).

حنين الحمام

لم يخذلني حدسي يوماً، كنت على يقين أنّي سأجد «حنين» هنا! لم تخبرني أثناء تعارفنا على الفيس بوك أين تقيم! دوّختني منشوراتها حدّ العجز عن تحديد قِبلتي إليها. بحثت عنها في كلّ حي، وكلّ حديقة، وكلّ شارع من دون جدوى. كنت مشدوداً إليها بخيوط خفية قيّدتني بسحر يتراءى لي حتّى في الهواء الذي أتنفسه على الرغم من دخان الحرب والدّمار من حولي. تباغتني كنفثة بنفسج، سرعان ما تتلاشى في الأجواء فلا أكاد أقبض على أثرها سوى في مخيلتي. قلت لها مرّة أثناء حديثنا على الماسنجر: «لماذا لا تدعينني أرى شعرك؟». قالت: «الحجاب بالنسبة لي مبدأ قبل أن يكون فرضاً دينياً». بعدها لم أشأ أن ألحّ عليها في رؤية شيء من مفاتنها، فقد كنت أراها بعين روحي كما لم ترَ نفسها حتّى في مرآتها.

حدث ذلك في الفترة التي انقطعت فيها فضيلة عن الاتصال بي أو رؤيتي لأسباب رفضت أن تفصح عنها، ولم أسعَ وراء معرفتها احتراماً لاتفاقنا المسبق حول خصوصية حياتنا الشخصية.

بزغت كشمس نيسان الدافئة، وتسلّلت بتلك النعومة المفرطة الّتي تُحس ولا تُرى.

كانت تختفي كلّما شعرت أنّي وصلت إليها. كثيراً ما فاجأني حضورها في المظاهرات، وحين أخترق الصفوف سعياً وراءها تنطفئ فجأة، ويغرق كلّ ما حولي في العتمة.. وتتلاشى في غمضة عين تلك الحشود من الناس، وتخرس الأصوات.. ولا يبقى سواها أحد!

كانت العتمة قد خيّمت على المنطقة، حين غادرنا الحي بصحبة بعض الشباب باتّجاه الكلاسة. لم يكن الوصول سهلاً، لكنّي لم أكن بحاجة لدليل أو ضوء يكشف تفاصيل المكان. في الحي المقابل لمدرسة صلاح الدين الصباغ انعطفنا يميناً، ودخلنا زقاقاً ضيقاً.

كانت الساعة العاشرة، حين سمعنا صوت الانفجار الرهيب الذي زلزل الأرض تحتنا. مضيفنا خرج مسرعاً، ولحقت به. الناس انتشرت في الشوارع كيوم القيامة، البعض نهض من النوم، ولم يستوعب بعد هول ما حدث. والبعض غرقت أشلاؤه في نوم أبدي. المروحية اختفت، ورجال الحي ركضوا ليطفئوا الحرائق ببعض الماء في سطول بلاستيكية!

لم تكن المرة الأولى الّتي أتواجد فيها في حيّ الكلاسة، فذكرى أوّل مجزرة رأيتها في الجمعة الحزينة لا يمكن أن تفارق ذاكرتي، لا أستطيع أن أنسى صاروخ السكود الذي نزل في الحي، وكم الدمار الذي خلّفه، والنّاس الذين استشهدوا تحت أنقاض ثلاثة مبانٍ!

أواخر صيف العام الماضي كانت الصدمة التي يموت الإحساس بعدها بالأشياء. منذ ذلك الوقت لم يعد لكلمة «خطر» معنى.. صارت الأشياء اعتيادية حدّ البلادة!

في الصّباح، تابعنا الطريق إلى باب جنين، ودخلنا سوق «المْدِينة». الدّمار، والحرائق، لم تُبقِ من ألق المدينة القديمة شيئاً. تعثّرنا أكثر من مرّة، وكادت فضيلة تقع وسط حفرة خلّفتها إحدى القذائف؛ الشاب المرافق لنا أسندها بسرعة، ونبّهني: «لا يمكننا أن نتقدّم أكثر، هناك قنّاص فوق سطح بريد خان الوزير، تستطيع أن تصوّر من هنا الدمار الذي لحق بالجامع الأميري، إلى اليسار الجامع الأموي.. وإلى اليمين قلعة حلب.. في الطرف المقابل لنا سوق «السويقة» يفصلنا عنه شارع خان الوزير».

تقدّمتُ حتّى التصقتُ بالباب الحديدي، مدَدت الكاميرا من خلال الشبك، لألتقط صوراً للدبابات التي تحتلّ الشارع. صرخت فضيلة: «لا تفعل، سيراك القنّاص». تراجعت بضع خطوات، وقلبي يخفق، ليس خوفاً من القنّاص الذي لم أرَه بل من طيفها الذي عبر فجأة! واختفى في مدخل بناية العدّاس، الوحيدة الواقفة رغم الحريق! استطعنا الالتفاف، ودخول السويقة، وتصوير حرائق سوق الزهراوي. تسلّلنا إلى حي السويقة مع أحد المقاتلين، دخلنا جامع السليمانية، القبة لم تكن موجودة، هدّمتها قذيفة دبابة، لكنّ الحمام مازال يحطّ على أطرافها المهدّمة، وفي مكان المئذنة! الحمام لا يعرف قوانين الحرب، وإن كان يعرفها فهو لا يهتم بها. ذهب النّاس، وذهبت القبة، وسكت صوت المؤذن، لكنّ الحمام مازال يذكر الله، وهو يواجه سكون الباحة والحي، وينفتح على قبة السّماء الغارقة في الزرقة. سألتُ المقاتل: «كيف ترى نهاية هذه الحرب؟». ردّ: «كنّا نقول، إنّ سوريا ليست العراق، سوريا ليست أفغانستان، سوريا ليست

الصومال، لكن كما ترى، الوضع في سوريا صار شائكاً أكثر من الوضع في تلك البلدان، إنّه أكثر وحشية مما يتخيّله أيّ عقل. القتل، الذبح، الجوع، القصف، المفخخات! الروس كانوا يقاتلون في أفغانستان بأيديهم، هنا يقاتلون بأيدي الآخرين، إيران تقاتلنا، وحزب الله، وعصائب أهل الحقّ العراقية، وأمريكا.. كيفما التفتّ ترى «الغرباء» نحن لا نقاتل النّظام وحده، إنّها مؤامرة كونية حقّاً، كما قال هُبل، لكن علينا نحن. مع كلّ هذا، لستُ متشائماً!».

رفعت رأسي صوب المئذنة التي نسفها القصف، لم يكن المكان خالياً. كان وجه حنين هناك، ابتسامتها ترف وسط أجنحة الحمام! وملأ المكان هسيسٌ له إيقاع مريب، خفت تدريجياً، وأحاط بي من كلّ جانب. خلت للحظات أنّي أرتفع عن الأرض، ويخترقني جسدٌ هلامي أنفاسه غمرتني بالرعشة، انفتحت من السّماء عيونٌ تأملتني، وضحكت. الكون يضحك وجسدي غارق في الحمى!

في المساء استطعنا العودة إلى حي «الجديدة»، وبتنا ليلتنا عند صديق مسيحي.

لم أنم طيلة الليل، عينا فضيلة الغارقتان في الحزن تلومانني باستمرار، وتحمّلانني مسؤولية اختفاء الفتاتين، وإن لم تتكلّم. من الصعب إقناعها أنّي لا أملك وسيلة توصلني بمن اختطفهما، هي مقتنعة أنّي أعرف جميع الفصائل المقاتلة، وتشكّ أنّ لديّ طريقة لمعرفة مكانهما وأتقاعس عن فعل ذلك. أشفق عليها، ولا أستطيع أن أقدّم لها، ولي سوى المزيد من الصبر والانتظار.

في مهب الحبّ

لم أستطع النوم، كان القمر بدراً، وأصوات الرصاص الآتية من حلب القديمة والقلعة تصحبها انفجارات مفاجئة تخلع أوتاد القلب. خرجت إلى أرض الديار، لم أكن بحاجة إلى شمعة لأرى طريقي، كانت أزهار اللوز تضيء ساحة البيت، وأوراق الليمون الخضراء تنفث عطرها في المكان. أعترف أنّ شيئاً غريباً أنزل السكينة على قلبي هذه الليلة، وأخرس القلق على آناتا وأنتونيتا، وأعادني سنوات إلى الوراء، شممت رائحة البرودة المتسربة من مدخل بنايتنا في أيام الصيف الحارّة، رائحة المعروك، والسوس، والتمر هندي، وسمعت إيقاع طاسات النّحاس في يد البائع قبل مدفع الإفطار. صوت أبي قادم من الغرفة الداخلية، كريمة تنزل طنجرة المحشي عن موقد الغاز. تتسرّب رائحة اليبرق[11]، والحرارة، وأشعر بالعطش.. ويحضر آرام بهياً! أسمع صوته، كان يشبه صوت نزار والقصيدة تتضوّع بين أصابعه. لمعت عيناه في العتمة، ابتسم لي، تلك الابتسامة الدافئة، المصحوبة بدعوة غامضة، وقال: «علّقت حبّي لكِ في أساور الحمام

(11) محشي ورق العنب

ولم أكن أعرف يا حبيبتي/أنّ الهوى يطير كالحمام/.

جلست على حافة «البحرة»، ولم أنتبه إلى لورينزو، وهو يهبط من العلية، ويقترب مني. قال هامساً: «ماذا تفعلين هنا؟». قلت: «سمعته يناديني، نزلت من الغرفة، فلم أجده. أتعتقد أنّه كان وهماً؟». قال بثقة: «ما دمتِ قد سمعته فهو حقيقة، لا شكّ أنّ روحه كانت في الجوار، ينتابني مثل هذا الإحساس أحياناً». قلت: «لم يؤلمني شيء في حياتي بمقدار ما آلمني عدم ارتباطي بحبي الأوّل.. لماذا يكتب علينا مفارقة من نحبُّهم بذلك العمق، وعدم نسيانهم طيلة حياتنا؟». قال: «لكنّك ارتبطتِ بغيره!». قلت: «نعم حدث أن ارتبطت بغيره، وحدث أن أحببت. لكنّها الأقدار الغريبة التي تجعلنا على قيد الحنين دائماً للعلاقة الأولى، ورصدنا لحجم خساراتنا بفقدها». قال مواسياً نفسه: «لستِ وحدكِ». تمتمت: «أعرف.. لست وحدي! معظم النّاس مثلي، يحصون كلَّ يومٍ خساراتهم بروح مهزومة». جلس قربي، وأحاط كتفي بذراعه، سألني باهتمام: «ما الذي حدث حتّى افترقتما؟». قلت: «لم يحدث شيء، فهو لم يرتبط بي حتّى يتركني! مرّت السنة الدراسية الأولى، ولم أحظَ بالتفاتة، أو نظرة منه تدل على اهتمام أو إحساس بوجودي! فقط كنت أنتظره، لكنّي كنت أكثر تحملاً من جنان». سألني بحياد: «مَن جنان؟». قلت:

(جنان صديقتي في الكلية، توطدت علاقتي بها منذ تعارفنا، كنّا نلتقي يومياً في الجامعة، وأسبوعياً في بيتها الواقع آخر خطّ سيف الدولة. على الرغم من ضيق البيت وصغره، وكثرة الأولاد، إلا أنّ أمّها كانت توفر لنا جوّاً للدراسة، ترسل الأولاد إلى الحارة ليلعبوا مع رفاقهم،

وتذهب هي لزيارة جارتها، بعد أن تحضّر لنا شطائر وإبريق شاي! لم تكن والدة جنان تترك البيت قبل أن تطمئن أنّنا لا نحتاج شيئاً. اعترض أبي مرّة على ذهابي للدراسة عندها؛ لأنّي أعود في وقت متأخر، وهو يخاف عليّ، وسألني، لمَ لا تأتي هي للدراسة عندك؟ عندما أخبرتها، ضحكت، وقالت: «ولمَ لا؟ سأفعل». بعد عدّة زيارات، لم يعد أبي يهتم كثيراً إن جاءت هي، أو ذهبت أنا. فهمت أنّه اطمأن من ناحيتها. لم يكن لجنان أخوة ذكور، سوى أحمد وأيمن، وكانا طالبين في الابتدائية، ولم يكن والدها موجوداً؛ لأنّه يعمل في الخليج. جنان أكبر أخوتها، وهي محط رعاية الأسرة؛ لأنّها الأمل الذي سيرفع من شأنهم، وينهي سنوات غربة والدها!

عدنا في أحد الأيام فلم نجد والدتها في البيت، وكانت جنان قد نسيت مفتاحها. فقالت لي: «تعالي، سنذهب إلى الحديقة، ونشتري فلافل». لم أكن أعرف المنطقة جيداً، ولم أدخل الحديقة قبل الآن، لكنّ الهدوء والجمال فيها شجّعاني على الأكل، وهدر الوقت، من دون دراسة. همست جنان: «لو أنّه يمرُّ الآن.. أعرف أنّه يقضي ساعة كلَّ عصر هنا في هذه الحديقة». تساءلت من تعني، فأخبرتني أنّها تحبُّ شاباً، يدرس في كلية الهندسة، يسكن في حي صلاح الدين، تعرّفت عليه في الباص الذي يستقلانه من آخر خطّ سيف الدولة يومياً إلى الجامعة. يستبسل، كي يصعد في الزّحام، ويجلس على كرسي، يتخلّى لها عنه عندما تصعد! من الطبيعي أن يتخلّى الشباب الجالسون في المقاعد، عن أماكنهم للسيدات، والعجائز، لكنّ فايز كان يتعمّد ترك المكان لها؛ ليحيطها بذراعيه، ويبعد أيّ شاب آخر تسوّل له نفسه الاقتراب منها!

مرّ فايز فعلاً أمامنا، وابتسم لها، وجلس في مقعد آخر في الظلّ. لكزتها قائلة: «أنتما على موعد، أليس كذلك؟». قالت، ووجهها قد احمرّ حتّى غدا أشبه بوردة جورية: «لا والله، هو فقط أخبرني مرّة، أنّه يتواجد هنا، في مثل هذا الوقت».

انقضت الساعة وكأنها ثوانٍ. غادر فايز الحديقة قبلنا، وكما في حضوره، مرّ أمامنا، وابتسم مُحيّياً برفع أصابعه إلى رأسه.

حين وصلنا البيت، لم تكن أمّها قد عادت، فذهبنا لنبحث عنها عند الجارة التي تسكن في أوّل الزقاق، وبيتها يطلّ على الشارع الرئيس. كانت تسكن في الطابق الأوّل، ولا يفصل شرفتها عن الرصيف سوى بضعة أمتار، هي مساحة الحديقة للطابق الأرضي. نادت جنان من الشارع: «يا ريّا»، فارتفعت ستارة الشرفة، وظهر وجه طفلة في العاشرة، أخبرت جنان أنّ أمّها قد ذهبت إلى السوق برفقة أم جنان. فطلبت منها أن تفتح لنا الباب، ودخلنا. جلسنا على أريكة في الشرفة، وجلبت لنا ريّا كأس ماء، وجلست على كرسي من القش.

لاحظت أنّ لهجة ريّا لم تكن حلبية، بل تشبه لهجتي إلى حدٍّ بعيد! حين جاءت أمّها عرفت السبب. رحّبت بي السيدة السّمراء بلهفة، وقبّلتني، واحتضنتني أكثر من مرّة، ثمّ ذهبت لتحضر القهوة. عندما انتهينا من شرب القهوة، قالت لي، وعيناها البنيتان تضحكان فوق غمازتين عميقتين: «اقلبي فنجانك لأقرأ لك بختك» شممت رائحة أمّي في اللهجة والكلمات، وقبل ذلك في طريقة غلي القهوة! قلبت الفنجان، وناولتها إياه. أدارته بين أصابعها بخفة، وقالت لي: «أمامك سكة سفر...» ابتسمت مباشرة لهذه العبارة المعتادة التي تقولها كلٌّ واحدة

تقرأ فنجان قهوة! مدّت بهية يدها بالفنجان إليّ، وأرتني الطريق المفتوح من أسفله إلى حافته، وتابعت: «لكنّها سكّة طويلة جداً، ربّما ستأخذ عمرك كلّه. ستبدأ بعد إشارة أو اثنتين. ستركضين من دون توقف بحثاً عن شيء سيضيع منك، في الأغلب هو حبيب، سيسبقك في السّفر، وستبقين طيلة عمرك في بحث دائم عنه». شعرت بغصة وقفت في حلقي، وارتباك، أنا على يقين أنّه مجرد كلام لا يعني شيئاً، لكنّ صوتها كان كالسحر، لعب بمشاعري، واستطاع أن يُدخل الكآبة إلى نفسي. ناولتني الفنجان، كي أبصم داخله. أثر إصبعي داخل الفنجان جعلها تقطّب حاجبيها قليلاً، ثمّ تقول: «ربّما ستجدين الفرج آخر الأمر». لا أدري لم شعرت أنّها كانت ستقول شيئاً آخر، ثمّ غيّرت رأيها خوفاً عليّ! تناولت الفنجان من يدها، ونظرت إلى قاعه، كان الشكل الذي خلّفته إصبعي يشبه زهرة النيل!

بحركة فيها الكثير من الافتعال، جمعت بهية الفناجين في الصينية، وهي تضحك، وتقول: «هذه قهوة أهلاً وسهلاً، كما يقول أهل حلب، سأصنع غيرها». وهذا يعني أنّ علينا المغادرة بعد شرب القهوة الثانية؛ لأنّها ستكون قهوة «مع السلامة». نهضت لأغادر، ولكنّها حلفت يميناً معظّماً «وحياة سيدنا الحسين ما انت رايحة قبل ما تشربي القهوة».

حين عادت تحمل الفناجين، سألتني بشكل مفاجئ: «صحيح أمّك قبطية من قرارة؟». قلت هامسة: «الله يرحمها». قالت: «أنا أيضاً من المنيا، شفتِ الدم بيحنّ».

حين خرجت من بيت السّيدة بهية تنفست الصّعداء، وحاولت أن أنسى فنجان قهوتها، لكنّ كلماتها رافقتني حين اندسست في الفراش

آخر الليل محاولة النوم. امتدت يدي إلى المسجل الصغير، ووضعت كاسيتًا لعبد الحليم، ليس مصادفة أن أسمع قارئة الفنجان.. فأنا أسمعها تقريباً بشكل يومي. لكنّ المصادفة، أنّ كلام الأغنية، لا يختلف كثيراً عمّا قرأته السيدة بهية في فنجاني. لم أجرؤ بعدها على تكرار الزيارة، رغم إلحاح جنان، وتأكيدها أنّ السيدة تسأل عني دائماً. لم أكن في مزاج يسمح لي بمزيد من نبش الذكريات الخاصة بأمّي، ولا بسماع تنبؤات تصيبني بالإحباط والكآبة. فلم يكن آرام، حتّى تلك اللحظة، يعلم شيئاً عن تعلّقي به!)

قال لورينزو: «تعلمين، كنت أفكّر منذ دقائق أنّكِ متضايقة مني؛ لأجل ابنتيكِ، تخيّلت أنّك تحمّلينني مسؤولية اختفائهما، وتعتقدين أنّي لستُ جاداً في البحث عنهما. أودّ أن أخبركِ أنّي حقّاً أتحمّل بعض المسؤولية؛ لأنّي ساعدتهما على المجيء إلى سوريا، وزيّنت لهما الأمر على أنّه آمن، وإنساني بالدرجة الأولى. أرجوكِ لا تغضبي مني، وتأكدي أنّي أبذل قصارى جهدي في البحث، وقد أجريت اتصالات مع عدّة جهات، وسألت عنهما. ولديّ أمل أن نصل إليهما قريباً. وأرى أنّ استعادة الماضي ليس أمراً سيئاً، بل سيساعدك على تحمّل فترة الانتظار، ماذا حصل بينك وبين آرام بعد ذلك؟».

(بعد سنة التقينا. كنت وقتها قد استأجرت بيتاً في حي الجميلية، مع بنات يدرسن في الجامعة. مجرد مصادفة جعلتني ألتقي بآرام عند تقاطع شارع اسكندرون مع شارع الصدّيق، مقابل مقهى العطري،

وكنت في طريقي إلى البيت. كانت أوّل مرّة يمدُّ يده ليصافحني! قال بحياد: «ما رأيك أن نتناول فطورنا عند القصّاص؟». دعوة كنت أنتظرها منذ زمن، وافقت من دون تردّد.

دخلنا الدكان الذي حوّله صاحبه إلى شبه مطعم بوضع بعض الطاولات لخدمة الزبائن العابرين، لكنّه صار مقصداً لكلّ من يأكل عنده مرّة، فتحوّل إلى مطعم بسيط.

على الرغم من الفاجعة التي أعيشها، ومظهر السواد الذي لم أتخلَ عنه، إلاّ أنّي ابتسمت يومها لآرام، وضحكت، وعجبت من الزمن الذي يمنحنا السّعادة في لحظات اليأس. لم آكل في حياتي أطيب من صحن الفول، وصحن الحمّص في ذلك اليوم. ومازال طعم مخلّل الخيار واللفت تحت لساني. كنت آكل، وآرام يحكي لي عن حياته، تحديداً عن علاقاته بالنساء. لمَ اختار آرام هذا الموضوع بالذات، ليحدّثني عنه؟ هل كنت سعيدة حقّاً وآرام يحكي عن خيباته المتكررة في الحبّ! لماذا؟ وفي هذا التوقيت؟ بقي السؤال في حلقي، لم أنطق به أبداً، لم أقل لآرام، إنّي كنت أنتظر هذه اللحظة منذ سنتين، لم أخبره أنّي أحبّه، لكنّه فاجأني، أنّه يعرف كلّ شيء! نعم يعرف. قال لي: «أتظنين أنّي لم أكن ألاحظ نظراتك عبر طاولة التشريح؟ لم أشعر بكلّ تلك الحرارة التي يضج بها جسدك وأنت تلمسين -بشكل عابر- كتفي ونحن نجلس في المدرّج، وتعتذرين مباشرة! لم يفتني ذلك، فأنا أملك حساسية كافية لأقرأ العشق في عيون من حولي».

كنت أودُّ أن أقول لآرام في تلك اللحظة، «اللعنة عليك، تعرف كلَّ هذا، وتتجاهل!». لكنّي بقيت صامتة، وأنا أتعذب بسماع نبرة صوته يحدّثني

عنها! عندما توقف عن الحديث، سألته: «أين هي الآن؟» كان سؤالي في منتهى الغباء، من الواضح أنّ آرام كان يتحدّث عن فتاة ميتة. ردّ بانزعاج: «بيروا[12] لم تكمل العاشرة من عمرها حين فاجأها مرض السرطان، غزا دمها بقسوة، فاعتزلت في البيت، كانت أمّي تنسج لها قبعات الصوف، والقطن، لتغطي رأسها بها، كي لا يذكّرنا رأسها الخالي من الشعر بمأساتها. في أوائل السبعينات دخلت المستشفى في حالة إسعاف من غيبوبة، ولم تخرج! هذا كان الدافع الحقيقي لدراستي الطب. سنوات طويلة من الإصرار والتفوق كي أحارب هذا المرض، وأهزمه...».

شعرت بطعنات عنيفة في قلبي. ماتت وهي في العاشرة! أيّ حبّ هذا؟ تردّدت في التعليق، اكتفيت بإبداء أسفي. لكنّ آرام لم يكتفِ بهذا، تابع حديثه عن فرح التي عشقها في الثانوية العامة، وكانت جارتهم في البناء المقابل. واكتشف بعد علاقة استمرّت أشهراً أنّها كانت مسيحيّة. أهله في ذلك الوقت ضغطوا عليه، وربطوا موافقتهم بتخرجه من كلية الطب بامتياز. لكنّ فرح تزوجت، وهو في السنة الأولى. تزوجت ثرياً أرمنياً يعمل في تصليح السيارات، وسافرت معه إلى الخليج! كنت أريد أن أنهي تلك الحكايات القاتلة على الرغم من فضولي لأعرف أكثر.

شكرت آرام على الفطور، واعتذرت منه؛ لأنّي مرتبطة بموعد!

نهضنا معاً لنغادر المكان. صافحني بحرارة، وافترقنا. كانت المرّة الأخيرة، التي أرى فيها آرام في حلب!)

---

(12) من أسماء حلب

إنّها حلب

كنت أستمع إلى حكايتها بجوارحي وأستقبل الصباح الرمادي بانقباض. لا تدرك فضيلة حجم الحبّ الذي يربطني بها حدّ الرغبة في امتلاكها، وأسرها بين جدران القلب وتقييدها، على الرغم من اتفاقنا المبدئي -منذ بداية علاقتنا- على استقلالية كلٍّ منّا في حياته الخاصة، وعدم الخضوع لرغباتنا وعواطفنا، وتنظيم لقاءاتنا بما يمنحنا فرصة التفكير العقلاني بالحاجة للتواصل. قبلت بتلك الشروط، وأنا مدركٌ تماماً أنّي لا أستطيع الالتزام بها، لكنّي مع ذلك احترمت رغبتها، وحاولت السيطرة على عواطفي، وتطويعها بشكل تقترب فيه من ميثاقنا! الغريب أنّي لم أشعر يوماً بأنّ هناك تناقضاً بين عواطفي تجاهها، وتلك العاطفة التي تقيّدني إلى أسوار قلعة غامضة الحضور. كان ذلك في بداية السبعينات، تحضرني برؤيا واضحة، يقطر من بين أصابعها الحبر ممزوجاً بزهر الليمون، يتشكّل نوتة موسيقية، تتحوّل إلى أنغام تسحبني وراءها، فأجدني طفلاً أضرب في الأرض الخلاء في المسافة الواقعة ما بين «الكرة الأرضية» ونهاية حي «صلاح

الدين».. ترعبني خيام «القرباط» الواقعة في الأرض المقفرة قبل نهاية الحي بمئات الأمتار، منظر العنزات السود والراعية السّمراء التي تهش الأغنام بعصاها، وتنظر إليّ بعيني «ميدوزا» فأهرب خشية التحوّل إلى حجر. عندما نصل إلى نهاية الخط. أتنفّس الصّعداء وأظنّ أنّي في مأمن من عينيها المخيفتين.

لكنّي اكتشفت حين أصبحت شاباً أنّي لم أكن في مأمن أبداً، فقد عدت إلى حلب بحثاً عن عينيها اللتين تحولتا إلى جوهرتين سوداوين فلم أجدهما! تلك المسافة من الخلاء اكتظت بالأبنية والمحلات، ولم يعد للنوَر وجود!

انتبهت إلى نظرات فضيلة تتفحصني باستغراب، انتفضت واقفاً، وسألتها: «ألن نغادر؟». قالت: «نعم لم يبقَ في حلب شيءٌ يربطني بها». قلت: «تكررين هذه العبارة كثيراً. لماذا توجعك بهذا القدر، إن لم تكوني مرتبطة بها في أعماقك!». قالت: «لا، لستُ مرتبطة بها، وهي لا تعنيني في شيء، هي ذاهبةٌ إلى الفناء، دعنا نذهب». قلتُ مستنكراً: «لماذا هذا الموقف من حلب؟ كأنّك لم تقرئي تاريخها!». قالت باستخفاف: «ولماذا أقرأ؟ لست بحاجة إلى التاريخ، أنا أعيش يومي في المدينة التي أحلُّ فيها، ثمّ أغادرها، وأنساها». قلتُ بحدّة: «أنت تخدعين نفسك، لأنّك لا تريدين التورط في عشقها». قالت باستياء: «وأنت؟ أستغرب حقّاً أن تكون إيطالياً، وتحدّثني بهذه الطريقة!».

«إيطاليٌّ! نعم، لكنّي لا أنسى جذوري أبداً، هل تعلمين لماذا جئت إلى هنا؟ ليس بسبب سبق صحفي، وليس لأنّي أسعى لأكون مراسلاً لأكبر محطات العالم الإخبارية، بالتأكيد سأصنع تقريراً مميزاً عن هذه

الأيام التي قضيتها هنا، لكن ما لم تعرفيه أنّي جئت إلى القلعة بحثاً عن رفات أجدادي».

ضحكت فضيلة ضحكة عالية ممطوطة، انتهت كمواء قطة جائعة. التفتت إليَّ، وقالت: «كأنّي أشاهد فنتازيا تاريخية. صدّقني أكره هذا النوع من الدراما. لكنّي لن أخجل من الاعتراف بأنّك على صواب في تحليلك لمشاعري. دائماً أحاول أن أبني بيني وبين المدن التي أعيش فيها جداراً من الكراهية، كي لا يجرفني الحنين، ويوقعني في فخ العودة إليها. أحياناً أتساءل: هل يمكن للمكان أن يفقد غوايته إلى هذا الحدّ؛ لأنّ مواقفنا تغيّرت من البشر؟ بالمناسبة، لماذا تريد البحث عن رفات أجدادك؟ أنا لن أغامر بالعودة إلى محيط القلعة. يكفي الرعب الذي عشناه في المرة السابقة. ذكرياتي عن القلعة في الزيارتين اللتين قمت بهما إليها ذكريات بائسة. في المرّة الأولى في الثمانينات كانت رحلة مع أصدقائي في الكلية للتعرف على المعالم الأثرية السياحية في البلد. كانت دعوة من سوزان. غنمت وقتها من تلك الزيارة جمجمة من رفات أجدادك، ولعلّها لأحد جنود تيمورلنك، ومن يدري قد تكون لأحد المعارضين للحكم أيام سيف الدولة. في مطلق الأحوال كانت مهمة بالنسبة لي في مادة التشريح، فلم أضطر وقتها لدفع خمسين ليرة لحارس «مقبرة هنانو» الذي اشتريت منه في السنة الأولى عظام الأطراف. كان حارس المقبرة ينبش القبور ليلاً، ويخرج بضاعته، ويضعها في غرفته الصغيرة في المقبرة، يفرزها، ويصنّفها، ويضعها في أكياس سوداء. طلاب الطب في الثمانينات تعودوا على زيارته ليلاً للحصول على العظام، والجماجم، أو الهيكل كاملاً، ولكلّ قطعة

سعر! أنا كنت جارته، أمرّ بشكل يومي تقريباً من أمام البوابة، أسلّم عليه، وأمازحه، ولهذا السبب، كنت أحصل على العظام بسعر رمزي، وقد قبل أن أعيدها إليه آخر السنة الدراسية، ويعيد لي نصف المبلغ! قلت له مرّة مازحة: «يا عم أحمد عليك أن توصي بعدم دفنك هنا بعد موتك؛ لأنّ مصيرك سيكون في مشرحة كلية الطب». ضحك، وقال لي: «ما يضرُّ الشاة سلخها بعد الذبح!». ضحكت وقلت له: «ألا تخاف نبش القبور؟» قال لي مستنكراً: «معاذ الله، من قال إنّي أنبش القبور؟ هذه الجماجم كانت مدفونة في قلعة حلب، إنّها جماجم المغول الذين احتلوا حلب، تأكدي من شكلها، كان هناك تلة من جماجمهم». حارس المقبرة الجاهل الذي لا يعرف التاريخ جيداً ظنّ أنّ سكّان حلب هم الذين صنعوا تلة من جماجم المغول. لم يعرف أنّ تيمورلنك قد ذبح عشرين ألفاً من سكّان المدينة، وأمر ببناء تلة من جماجمهم».

قلتُ لها: «نعم في ذلك الوقت، أنشأ المسيحيون حي «الجديدة» خارج حدود السّور الشمالي، وكانوا همزة الوصل بين تجار حلب في الداخل، والمحيط الخارجي، فقد كانوا يتمتعون بحماية الممالك الصليبية في القدس وانطاكية؛ لأنّهم من الأقليات! المهم في كلّ هذا أنّ أجدادي كان لهم دور هام في تلك الفترة، وقد برعوا في صياغة الذهب، وتجارة الحرير.

ضحكت فضيلة: «بعد قليل، ستقول لي، إنّ الصاغة في الجديدة وتجار الصوف أيضاً من نسل أجدادك الذين قدموا من إيطاليا مع جوستنيان. لا أستغرب أن تجد شجرة عائلة خاصة بك، وتأخذ الجنسية السورية».

قلتُ بجدية: «ما يضحكك قد يكون عين الحقيقة هذه Aleppo[13]».
بدأ النهار يرسل بعض الدفء في الأزقة العتيقة، وأصحاب الدكاكين فتحوا محلاتهم. وسرت همهماتٌ في الفضاء، وعلت أصوات الباعة والناس، وأخيراً اتصل السائق ليخبرنا أنّه بانتظارنا في زقاق قريب من شارع القوتلي!
عشرات من البشر توزعوا على رصيفين، كأنّنا في مسابقة شدّ الحبل. نحن على رصيف، وهم على الرصيف المقابل. أما الحكم بيننا فهو قنّاص باب النصر. نعم إنه القنّاص الذي يقع شارع القوتلي تحت مرماه، والذي كاد يصطادني منذ سنة تقريباً.
بدأت المسابقة حين أطلق القنّاص رصاصة أصابت أحد الأعمدة في الشارع، فانقسمنا تلقائياً إلى مجموعتين. لا نحن نتقدم نحوهم، ولا هم، وكلٌّ منا متشبث برصيفه!
وبعد أن مرّ وقت ثقيل، غامر شابّ في مقتبل العمر، وركض نحونا، فبادر آخر وركض نحوهم، ثمّ ركضت فتاة ممسكة بيد صديقتها، وإذ نجتا، كانت الابتسامات تملأ الوجوه والقلوب مع بعض التصفيق، وكلّما ركض واحد أو واحدة منا، أو منهم، كنّا نمسك قلوبنا حتى ترتعش بفرح النّجاة. وامتدّت المسابقة بين العابرات والعابرين، الّذين كلّما نقصوا واحداً، ازدادوا عشرة...
كانت الأرصفة تكتظّ بالمارة والراكضين، على حين أنّ الشارع كان يصفر من الخوف والبرد والفراغ. أمّا القناص فقد خاب أمله بضحية صباحية لهذا اليوم، حين وصلنا إلى السّيارة بأمان!

(3) التسمية الإيطالية لحلب

طريق الحرير

اختبأت الشّمس فجأة، تلبّد الصباح البارد بغيوم سوداء تنبئ بمطر قادم، لم أتوقع أن يكون بهذا العنف. عندما وصلنا طريق «الكاستلو» علّق السائق قائلاً: «المطلّق ما بيطلع من بيته». ابتسمت متسائلاً عن معنى العبارة. شرحتها فضيلة وهي تراقب السائق بحذر، فقد كان شكله الضخم وشارباه المفتولان يوحيان بالريبة. اختلستْ نظرات سريعة إلى عينيه الصقريتين في المرآة، وهي تتعوّذ بالله. سألتها بالإيطالية عمّا يقلقها فأجابتني بصوت منخفض. ضحكت معبّراً عن استخفافي بشكوكها. السائق الفطن، قال مازحاً: «ضحّكنا معك خيّو، ولّا ماني معبي عينك؟». قلت بتلقائية، وبلهجة حلبية: «تحرز البركة.. كنت أسأل زوجتي عن سبب تسمية الطريق بهذا الاسم، فقالت إنّ أحد أجدادي مرّ من هنا، أيام ازدهار طريق الحرير، وأطلق عليه هذا الاسم تيمناً باسم أشهر قصور ميلانو». عبّر السائق عن دهشته قائلاً: «ما شاء الله، ما كنت بعرف ها المعلومة من قبل، يخزي العين، يعني جدك خاي كان تاجر كبير؟ معناها نحنا أهل.. على راسي حارتك».

ابتسمت قائلاً: «طبق ورد» استغرق السائق بضحكة مجلجلة، كادت تفقده السيطرة على السّيارة، انتشى بكون هذا الزبون الإيطالي يعرف المتداول من ألفاظ أهل حلب في التّحية! فضيلة هي الأخرى كانت تبتسم باستمرار، سألتها عن السبب، قالت: «زوجتي» لقد أصبح لي صفة رسمية، لم أفكّر فيها قط طيلة سنوات حياتي التي تجاوزت الخمسين. لكنّي على يقين أنّك قلتها متعمّداً، وليس من أجل أن يطمئن السائق إلى شرعية وجودنا معاً، لكنّك أخطأت التقدير حيث ظننت أنّك أصبت!». السائق قطع علينا الحديث الخائب بوضعه قرصاً مدمجاً في مسجل السيارة، انطلق منه صوت صباح فخري يغني «درب حلب ومشيته، كلّه سجر[14] زيتوني، حاج تبكي، وتنوحي، بكرا منجي يا عيوني» وارتفع صوته مع الأغنية! فوجئت بأنّه يملك صوتاً جميلاً، قاطعته فضيلة قائلة: «يبدو أنّ أهل حلب كلّهم أصحاب أصوات جميلة!». هزّ السائق رأسه بنشوة، وعلا صوته بالغناء: «ويا عمي خدني معك ع الشام لأتفرّج، وأنزل على خان الحرير، واشتري لها المْدرّج...» قالت فضيلة: «لم أسمع صباح فخري قبل الآن يقول، لأنزل على خان الحرير، بل على سوق الطويل!». ردّ السائق: «هذه الحفلة الخاصة التي عملها لمخرج حلب العظيم مصطفى العقاد، الله يرحمه».

ترنّمت روحي باللحن وحلّقت عالياً، ورأيت «حنين» تخطر في «خان الحرير» ترفل بالحرير، وأنا أراقبها كيف تختار القماش واللون، تتلمّسه بأصابع من العاج منقوش عليها بالحناء زهرة ياسمين، تلتفت صوبي، ترخي أهدابها بخجل، ويشع أسفل عنقها عقد لؤلؤ ينافس

(3) شجر

صدرها ببياضه الآسر...

توقف السائق فجأة بجانب الطريق، وسألنا بجدية: «هل معكما ما يثبت زواجكما؟ لا تؤاخذاني، هذا أمر يخصكما، لكنّنا سنمر على حاجز للدولة الإسلامية، وقد يعرّضكما عدم وجود وثيقة للاعتقال، ثمّ لا تؤاخذاني، يجب أن تغطي أختي رأسها جيداً، وإذا كان لديها عباءة، يُفضّل أن تلبسها. سأخرج من السيارة، ريثما تتدبّران أمركما».

أمسكت يده، وطلبت منه البقاء، قائلاً: «لا عليك، تابع الطريق، «حريتان» تحرّرت من داعش، الحاجز القادم للجيش الحرّ، ولن يضايقنا أحد».

لم يكن السائق على علم بالأمر، تنفّس الصّعداء وهو يتابع طريقه. عند مدخل «حريتان» توقفنا أمام الحاجز. نظر شاب مسلّح داخل السّيارة، حين رأى فضيلة في الخلف أشار إلينا بالمرور.

تذكرته جيداً، ليست كاميرتي وحدها من توثق الوجوه، والأحداث، بل ذاكرتي المتقدة أكثر أمانة وأدق من صوري الفوتوغرافية. هذا الشاب التقيت به السّنة الماضية هنا في «حريتان» في بيت محمد سعيد قبل اغتياله بأشهر. كان يومها يشدّد على سلمية الثورة، وعلى عدم التورط بالقتل، ويرى أنّ البلد بحاجة إلى نبذ السلاح، والتفكير بطريقة لوقف المجازر، والاستمرار في الحياة. كان إعلامياً سلاحه كاميرا، يومها احتدّ النقاش بينه وبين محمّد، حول اختطاف فريق الأورينت، والمصور عبود حداد من قبل تنظيم الدولة الإسلامية. محمّد كان على يقين أنّ داعش هي التي قامت باختطافهم. ومن الواجب عدم السكوت على الأمر!

التفتُّ صوب فضيلة، كانت تراقب الطريق، وتفتح النافذة كلّ دقيقة، وتغلقها عندما يصفعها الهواء البارد. كان وجهها محتقناً، تكاد الدّماء تنفر منه. قلت: «ما رأيك أن نتوقف في البلدة، لنشتري بعض الطعام، ألستِ جائعة؟». قالت: «لا، لا أريد، لكن يمكنك أن تشتري لي حبوب باندول، رأسي يؤلمني جداً».

توقف السائق عند صيدلية «حريتان». الصيدلي عبّر عن أسفه لعدم وجود المطلوب، لكنّه أعطاني حبوباً مهدئة صناعة محلية، ونبّهني أن آكل قبل تناولها.

لم تجرؤ فضيلة على تناول شيء، كانت تشعر بالدوار، والرغبة في التقيؤ. عند مدخل «عندان» توقف السائق أمام الحاجز. خرج رجل مسلح من الغرفة الصغيرة المدهونة بطلاء أبيض، وقد كتب على الجدار بخطّ جميل «أخي المجاهد، نحن في خدمتك... خفّف السرعة.. الهيئة الشرعية. ابتسمت فضيلة عندما تجاوزنا الحاجز، وهي تقرأ على الجدار الآخر بصوت مسموع «رافقتكم السلامة»! من المريح للقلب قبل العين أن تجد أناساً يهتمون بجمال بلدهم في أوقات الحرب! كنت أتوقع أن أرى الدمار فقط بعد القصف والمعارك الطاحنة التي دارت في المدينة خلال العام الفائت من الثورة؛ لكنّ ما رأيته كان أقوى دليل على إصرار الشعب على الحياة، وسط كلّ هذا الموت المحيط به. اشتريت لها من المدينة طعاماً، أكلتْ لقيمات، وتناولت الدواء، ولفت جسدها جيداً بشال سميك من الصوف الخالص، وأغمضت عينيها. آخر شيء رأته بساتين الزيتون، والتربة الحمراء النّدية، والسّماء الّتي لم تكف عن إرسال الغيث طيلة الوقت.

في «الابزمو» انتظرنا «الحجي» ساعات طويلة، ولم يأتِ، لم تستطع فضيلة أن تصبر أكثر، قالت لي بعصبية: «ألم تقل إنّك اتصلت هاتفياً به، وأخبرك أنّه سيكون هنا اليوم؟». لم أستطع أن أرد، في الواقع أنا لم أتصل به شخصياً، ردّ عليّ أحد مرافقيه، وقال لي، إنّهم عائدون اليوم إلى «الابزمو» وكنت متفائلاً بأنّي سأقابله، وأعرف مصير الفتاتين. في تلك اللحظة شعرت بالقلق أكثر منها، وانتابتني حالة من عدم التركيز، احترت، هل نعود إلى حلب ثانية للبحث عن الحجي؟ ولكن، أين سنجده؟

حلقة مفرغة

ساد الصمت بيننا طيلة الطريق، قطعه السائق عدّة مرّات ببضعة أسئلة لا معنى لها، ثمّ مدّ يده إلى مسجل السيارة، وانطلق صوت غناء يقرع الرأس بقسوة. تضايقت فضيلة، ونظرت إليّ مشيرة بأن أطلب منه خفض الصوت قليلاً، لكنّها سألته فجأة: «مَن هذا الذي تستمع إليه؟» ردّ السائق بابتسامة، وقد جاء الفرج أخيراً: «هذا أحسن مطرب بمنطقتنا، أحلى أبو أحمد» اكتفت فضيلة بهذا السؤال، لكنّ السائق استمر في الحديث عن المطرب، ونشأته، وأغانيه، وأعراس المنطقة أيام زمان، التي كان له فيها «في كلِّ عرس قرص[15]» وأضاف: «والله حلّت علينا البركة يا خيت[16] بوجودكم، لو كانت الأيام رايقة مثل زمان، كنت عزمتكم على عرس، وشفتِ بنفسك تقاليدنا». سألته فضيلة من دون اهتمام: «من أين حضرتك بلا زغرة[17]؟» ضحك قائلاً: «يعني من وين بدي كون خيت؟ من سراقب، بس الصراحة، الظاهر

(15) مثل شعبي، يعني أنّ له حصة من كل شيء.
(16) خيت/أختي.
(17) تعبير شعبي، يعني «لا أستصغرك»

حضرتك عندك خبرة باللهجات، معك حق، يعني أنا من الريف، بس ما قلت لحضرتك، لأنّه صعب تعرفي القرى» وخفض صوته: «كأنّ زوج حضرتك لا يعرف العربية، طول الوقت ساكت؟». ابتسمت، ولم ترد.

لم يخطر ببالنا أن نضطر للعودة إلى سراقب، كما لم يخطر لنا أن نبتلي بسائق صاحب ذوق خاص في سماع الأغاني. لكن لم يكن لدينا خيار، فهو السائق الوحيد الذي وجدناه في «الابزمو» وأبدى استعداداً لأخذنا -في طريقه- إلى سراقب، وهناك نتدبر أمرنا!

اعتذر السائق بأنّه مستعجل وعليه أن يصل «معردبسي» قبل المغيب. سألته: «قريتك مع النّظام أم محرّرة؟». ضحك السائق، وقال: «نحن على الحدود، نبيع ونشتري من الطرفين». دهشت من جوابه، فوضّح عبارته: «معردبسي» محرّرة، لكنّها قريبة من خطوط التماس الباردة، أقصد من حاجزين للحرّ، والنّظامي، متفقين، أقصد بينهما هدنة؛ لأنّ الحاجز النّظامي موجود هناك لمراقبة خطوط النفط، أقصد حصته من النفط حسب الاتفاقية، وهو مؤلف من خمسة عشر جندياً وضابط، يأتون إلى القرية، يشترون ما يلزمهم، ويتزودون بالطعام، تحت نظر الثوار الذين يقيمون أيضاً في القرية، وخارجها!».

أنزلنا في السوق، وقال لنا: «ستجدان سيارات كثيرة هنا في خدمتكما!». السوق كان يعجّ بالناس، حركة البيع والشراء تلفت الانتباه، مع أنّ الوقت قبيل المغرب! سألنا عن سيارة تنقلنا إلى حلب، فلم نجد. أحد الباعة أرسل معنا صبياً؛ ليدلنا على بيت سائق في الحارة الشمالية. كان المشوار بعيداً، ومرهقاً. زوجة السائق التي فتحت الباب لنا، قالت بصوتٍ متهدج: «ليس هنا، ذهب إلى «أبو الضهور». سألتها بانزعاج:

«ماذا سنفعل الآن؟» لم أكمل الجملة، فقد اهتزّت الأرض تحتنا فجأة، وتصاعد الدخان إثر الانفجار القريب. المرأة التي لم تغلق الباب بعد دعتنا للدخول، وقالت: «انتظراه، لكنّه لا يأخذ طلباً في الليل برّا البلد». شكرناها بلطف، وقلت: «ألا يوجد غيره يستطيع نقلنا؟ ليتكِ ترشدييننا إلى سائق آخر». المرأة غابت قليلاً، وعادت ومعها إبريق شاي. صبّت لنا، وقالت: «اتصلت بأبي محمّد زوج أختي، هو أيضاً عنده طلب، لكنّه أصرّ على أن تبقيا هنا ريثما يصل». سألتها فضيلة: «كيف اتصلتِ به، لا يوجد تغطية؟» ابتسمت المرأة: «التغطية هنا غير موجودة، والهواتف الأرضية لا تعمل سوى داخل البلد، لا أحد يستطيع الاتصال بنا من المناطق المجاورة، ولا نستطيع الاتّصال بأحد. نحن نستخدم قبضات اللاسلكي». لم أستغرب كلامها، فالنّاس في ظروف الحرب يتحايلون لإيجاد وسيلة للتعايش مع الواقع. سألتنا المرأة: «ألستما جائعين؟» نظر كلٌّ منا في وجه الآخر متسائلاً، أيرفض، أم يقبل؟ ضحكت المرأة، وقالت: «لدينا ما يكفي، لا تخشيا شيئاً، سأحضّر لكما الطعام. جلسنا في فسحة أرض الدار، نتأمل القمر الذي أصبح بدراً، ونفكّر في الخطوة القادمة. سألتها لأقطع الطريق على الأفكار السيئة التي تراودني، بالاستماع إلى حكاياتها: «ماذا حصل لجنان؟ لم تكملي لي حكايتها مع فايز».

(السنة الثانية كانت بالنسبة لجنان أقسى سنوات حياتها بعد الحادث الأليم الذي فطر قلبها، وأخلّ نظام الكون من حولها. كنّا في نهاية العام الدراسي عندما غابت جنان عن الامتحان، وكنت قبل ليلتين عندها، سهرنا حتّى الصباح ندرس سوياً. يومها لم نستطع التركيز جيداً، بسبب

صوت الرصاص الذي لم نستطع تحديد جهته. أنا قلت لجنان، إنّه من جهة حي الزبدية. لكنّ الكتاب وقع من يدها فجأة، ووقفت لتنصت بكلّ حواسها، وقالت، وهي تنتفض: «الصوت قادم من الأنصاري». لم يكن مهماً بالنسبة لي من أين جاء الصوت، المهم أنّ هناك أرواحاً قد غادرت أجسادها في تلك اللحظة. كنّا نعرف أنّ «سرايا الدفاع» تمشط بعض الأحياء، ومنها الأنصاري، وتعتقل الناس، وتقتلهم لأتفه الأسباب، وعلى الشبهة. لم تُخفِ جنان خوفها، وقلقها، كانت في أقصى حالات التوتر، ولم تعد راغبة في الدّراسة؛ بقينا حتّى الصباح على تلك الحالة، نشرب القهوة، والشاي، ونتحدّث همساً. أعرف أيّ نوع من الحبّ يربط بين فايز وجنان، لكن لم أستطع أن أفهم ما حصل لها حين سمعت صوت الرصاص!

حين خرجتُ من الامتحان، ذهبت لأطمئن عليها، فوجدت باب غرفتها مقفلاً، وأمّها جالسة في الصالة تندب حظ ابنتها. لم أيأس من المحاولة. بقيت على بابها أرجوها أن تفتح، حتّى تحرّكت أكرة الباب بعنف، وامتدت يدها وجرّتني إلى الداخل، وأغلقت الباب بالمفتاح. «ماذا جرى؟». نظرت إليّ باستغراب، وعركت عينيها الحمراوين مراراً. كان الدمع قد نشف في مقلتيها، وتخرّش صوتها من كثرة النشيج، قالت، وكأنها تلومني: «لا تعرفين ما جرى؟ يا لمصيبتي! وكيف ستعرفين؟ أنتم لا تهتمون لنا.. من يهتم لنا أصلاً...». كانت أوّل مرّة أسمع جنان تتحدّث بهذه الطريقة «أنتم، ونحن». قلت معاتبة: «منذ متى نحكي عن بعضنا، أنتم، ونحن؟ نحن فقط، شعب واحد، وأنت على يقين من ذلك. لكن ما الذي حدث؟ قولي لي؟». قالت بحرقة: «فايز راح.. فايز مات.. قُتل».

لم أستوعب ما قالته، احتجت إلى دقائق طويلة، لأستوعب الكلمات، وأفهم معناها. لم أكن بحاجة لأسأل كيف. فقد انفجرت جنان فجأة، وقالت: «أنتم قتلتموه، لم يكن له ذنب، فايز لم يعرف سوى دراسته، لم يكن ينتمي إلى منظمات، ولم يهتم يوماً بالسياسة، كان يفكر فقط بالتخرج، والعودة إلى فلسطين، فايز الأول على دفعته، وحيد والديه، ينتظرون عودته ليفرحوا به، وبشهادته. لماذا قتلتموه؟ لماذا... اخرجي من بيتي، لا أريد أن أراكِ، لا أريد أن أرى أحداً».

خرجت بسرعة، كنت أدرك أنّ جنان ستهدأ بعد فترة، وتفهم أنّها تصرفت بطريقة فظة معي، أفهم ما تعانيه؛ لذا قلت لخالتي أم أيمن، سأعود لزيارتها بعد أيام.

ما حدث لفايز لا يمكن أن يحتمله عقل حقّاً، فكيف تحتمله جنان؟ حين سمعنا تلك الانفجارات وصوت الرصاص تلك الليلة، كانت روح فايز تحوم حول جنان، مثلّما توقعتْ.. لم يكن شحوبها عابراً.. لقد أحسّت به، وهو يغادر الدّنيا، شعرت بروحه تلامس جسدها؛ فاقشعرَّ! أصبحتُ على يقين أنّ النساء العاشقات يملكن تلك المقدرة على التواصل الروحي، مهما بعدت المسافة مع من يحببن.

احتفظت جنان بصفحة الجريدة التي نشرت صورة فايز، وكتب تحتها، أنّه أحد أفراد عصابة الإخوان المسلمين المارقة الذين قُتلوا أثناء اقتحام وكرٍ لها في حيّ الأنصاري! مدّت يدها المرتعشة بالجريدة لتريني صورته. لم أستطع النظر إليها، إلى اليوم، لا تحضرني صورة فايز، إلا نقية، صافية، مشرقة، وهو يبتسم، ويرفع أصابعه بالتّحيّة. لا أستطيع أن أتصوّر أنّه رحل بتلك الطريقة المأساوية. لم تقتصر

المأساة على موت فايز، بل على تشويه سمعته، فقد تداول الطلاب اسمه علناً، وكأنّه لعنة، من يعرفه لم يصدّق أنّه من الإخوان، لكنّ الغالبية من الطلاب كانوا كالقطيع، يردّدون ما يبثه الإعلام الرسمي الذي لا يوجد غيره في البلاد بجرائده الثلاث المقدسة في دمشق، وجريدة «الجماهير» اليتيمة في حلب. كانوا يرونه مجرماً، وهذا ما جعل جنان لا تطيق الحضور إلى الكلية، وسماع الأقاويل حول جريمة قتله. «القاتل يصف القتيل بالمجرم!» كانت تردّد ذلك بذهول: «انظري ماذا فعلوا به». لا أستطيع أن أنظر، لا أستطيع.. لم أتمكن من النظر إلى أيّ ضحية في أيّ مجزرة حضرتها.. على الرغم مما عرف عني من قوة القلب والأعصاب.. وعلى الرغم من تعاملي العادي مع الجثث في المشرحة. لا أدري كيف أفصل بين هذين الأمرين.. مع أنّ تلك الجثث أيضاً قد تكون ضحية، ضلّت طريقها إلى المقبرة، فجاءت إلى المشرحة! الدكتور الذي درّسنا المادّة كان يشرح لنا كيف نصنع جداراً بيننا وبين الجثة أثناء العمل. وكان يصرّ أنّ هذه الجثث كانت لمحكومين بالإعدام على جرائم شائنة!

مقتل فايز بتلك الطريقة المتوحشة لم يؤثر على مستقبل جنان بتأخرها في الدراسة فقط بل قضى عليه نهائياً. دخلت المشرحة في بداية العام الدراسي، بعد رسوبها في السنة الثانية، لتجده أمامها على طاولة التشريح!

فايز كان وحيداً في البيت، يدرس لامتحان المادة الأخيرة في السنة النهائية للهندسة الكهربائية.

فجأة سمع طرقات عنيفة على باب البيت، أصابه الفزع، ولم يتجرّأ

على فتح الباب، نادى على الجيران مستنجداً، لكن من يجرؤ على نجدته؟ أمام الرصاص يخرس الحق، ويجبن الناس...

أمطر المقتحمون الباب بالرصاص، وكان فايز يقف خلفه، فقتل على الفور. فتح المقتحمون الباب، وجرّوا جثته من رجليها. أربعون درجة من شقته إلى الشارع، رأسه ترك بقعة من الدم على كلِّ درجة. رموا جثته في الشارع، وبقي هناك عدّة ساعات، كي يصبح عبرة لكلّ من تسوّل له نفسه رفع رأسه. سمعت جنان أنّ والده جاء من فلسطين للبحث عن جثة ولده، لكنّه عاد خالي الوفاض، ليفقد عقله، بعد فقد ولده!

انهارت جنان، حين رأت الجثة على طاولة التشريح، رمت المشرط، حطّمت كلَّ شيء رأته في طريقها، شتمت القتلة، شدّت شعرها، وتقيأت وسط الغرفة، وخرجت لا تلوي على شيء. قالت لي: «أربعون ثقباً في جسده، أربعون ثقباً في روحي!».

لم تكن جنان وحدها من ترك غرفة التشريح يومها، كان زميلنا أسعد في حالة ذهول، واضطراب، جعلته يتقيأ أيضاً، ثمّ ترك المكان، ولم يعد إلى الكلية.. التقيت به بعد سنة من ذلك التاريخ في حي الجميلية عند صالون حلاقة، كان صاحب المحل يدفعه ليخرج، ويربت كتفه، وهو ينبّهه إلى عدم العودة.

ناديته ليتوقف، ريثما أعبر الشارع، نظر إليّ باستغراب، وأنا أمدُّ يدي لمصافحته. كان يمسك بيده فوطة، يشدّ عليها بقوة، ويعصرها، وهو يقول: «خليها تبرم مئتي دورة في الثانية بتصير متل صحن طائر». وقفت مذهولة وسط الرصيف، وتابعته بنظراتي، وهو يعبر الشارع صوب صالة الأسد الرياضية.

لم يكن أسعد وجنان وحدهما اللذان عاشا مأساة صعبة تلك السنة، بل أحمد أيضاً، فقد فوجئنا في أحد الأيام بعد انتهاء محاضراتنا في التاسعة مساء، وقبل وصولنا إلى موقف الباص، بصوت رصاص عند مدخل كلية الطب، من جهة الحديقة. تجمّهر الطلاب بسرعة، وركض من كانوا يقفون قربنا لمعرفة ما يجري، ورأيناهم يحملون شاباً، ويركضون صوب المستشفى الجامعي القريب من المكان! عرفنا في اليوم التالي أنّ زميلنا أحمد قد أطلق على نفسه الرصاص رغبة بالانتحار؛ لأنّ سمية تركته! كان الأمر صاعقاً ومفاجئاً لسمية، وحين أرادت أن تزوره في المستشفى، وتعتذر منه، طردها الطبيب المعالج، وكان أستاذنا أيضاً.. قال لها: «الآن أعجبك؟ انقلعي من وجهي، لا أريد رؤيتك ثانية». بعد هذه الحادثة غابت سمية عن الكلية، ولم أرَها وقت الامتحان!

قرآن الطغاة

منذ الصباح الباكر بدأ القصف من معمل القرميد، لم تترك القذائف فرصة للناس للخروج إلى أطراف البلدة، فقد انشغلوا بإسعاف جرحاهم، وتفقد بعضهم. معظمهم اتجه غرباً للمساعدة في نقل الجرحى والتبرع بالدم، ودفن الشهداء. عقّبت فضيلة: «ليت الأمر يمرُّ على خير، كي نغادر اليوم إلى حلب».

الهدوء الذي أعقب القصف جعلني أنتبه لرائحة شواء قريبة، سألتها بفضول: «ما هذه الرائحة؟». قالت، وهي تستنشق الهواء بعمق: «رائحة شواء الفريكة، يا إلهي أحسّ بجوع رهيب. من تراه يرتكب هذا الجرم الآن، وفي هذا التوقيت! أذكر حين كنت أقف على السطح، عند الجارات، وهنّ يغربلن الفريكة بغربال كبير، أقف في مواجهة الريح الّتي تمر فوق الغرابيل، وتذري القش، أغمض عينيّ، وأفتح ذراعيّ؛ فأشعر بذلك الوخز الخفيف للقش. حين تتوقّف الغرابيل عن الحركة، وتفرغ النسوة الفريكة في الأكياس، أفتح عينيّ، لأرى أثر الريح، والقش على جلدي.. تلك البقع الحمراء الصغيرة، كانت تثير غضب أمّي.. لكنّها

سرعان ما تبتسم لجارتنا، حين تحضر لنا هدية الموسم، منسف الفريكة المكلّل بلحم الخروف.. كانت جارتنا أم محمّد تقول، وهي تسكب الطعام، «العز للفريكة، وليس للرز، والبرغل شنق حاله». ضحكت، وقلت: «يبدو أنّك طبّاخة ماهرة، ليتك تشرحين لي كيف تطبخ؟». ضحكت هي أيضاً، وقالت: «ربّما أطبخها لكَ يوما.. من يدري!».

من يدري.. تردّد صدى العبارة في الفضاء مصحوباً بضجيج، وتكبير رهيبين، جعل صاحبة البيت تخرج من دون أن تكلّمنا. حين عادت كانت عيناها مليئتين بالدّموع، استفسرنا عن السبب، فأخبرتنا، أنّ «أبو المقدام» قد استشهد، وهم يصلّون عليه صلاة الغائب. سألتها: «هل تستطيعين إرشادي إلى الطريق، أريد أن أحضر العزاء». نادت المرأة لولد يلعب في الشارع، وطلبت منه مرافقتي إلى المسجد، وإلى مجلس العزاء، وإعادتي إلى البيت.

عدت مساء من مجلس العزاء بصحبة السائق صاحب البيت الذي أصرّ على استضافتنا حتّى الصباح.. قائلاً: «الأفضل أن نمشي على ضوء، للنّهار عيون، وأنا لا أحبّ السّفر ليلاً!».

فضيلة أيضاً لم تحبّ فكرة السّفر ليلاً، مع أنّ النّهار عادّة يحمل البراميل المتفجرة، والقذائف من معمل القرميد.

كنت أشعر بالضيق، فكلّما لاحقت خبراً، ورأيت أنّه الأفضل لصناعة فيلم عن الثورة السّورية، تفاجئني أحداث أكثر أهمية. في هذا البلد بالذات، كنت أتمنّى أن أصنع فيلمين، عن شخصيتين ثوريتين استثنائيتين، محمد حاف، والداعور. لكنّ أبا المقدام ظهر لي بطريقة مثيرة، هذا الشاب الشهيد يمتلك من الحضور في أذهان الناس ما

يفوق الحضور الجسدي للأحياء. السائق شارك بالحديث قائلاً: «قد تكون على حق من مبدأ أنّ كلّ اكتشاف جديد له بريقه الخاص، وهذا سيجعلك تدور في حلقة مفرغة؛ لأنّ كلّ يوم في الثورة السّورية فيه شهداء استثنائيون وأبطال؛ لذا أعتقد أنّ عليك أن تحسم أمرك، والشخص الذي بين يديك الآن يستحق ما ستفعله لأجله، ولأجل الثورة». اقتنعت بكلامه، وسألته: «هل لديك معلومات كافية عن أبي المقدام؟». ردّ السائق: «بإمكاني تزويدك بكلّ ما تحتاجه، لكن هل ستكتفي بالحديث عنه؟ لماذا لا تصنع فيلماً شاملاً مثلاً، تتحدّث فيه عن نظام المقبور الفاسد، وعن الأسباب الحقيقية لقيام الثورة؟». قلت: «أنا بصدَد صناعة فيلم قصير، الفيلم لا يحتمل سوى شخصية محورية واحدة.. وبالنسبة للأسد الأب، فقد كتب عنه الكثير، وحياته لم يعد فيها جديد يمكن الكتابة عنه، أنا لا أريد أن أكرر ما قيل عن ذكائه، وفطنته، وحكمه الصارم للبلاد». قاطعتني فضيلة، قائلة: «ومن قال لكَ إنّ الديكتاتور كان ذكياً وفطناً؟ أنا استمعت لكلّ خطاباته المسجلة، إنّه شخص عادي، فقير الروح، وفقير الذهن، لكنّه يمتلك طاقة هائلة من الكراهية، والحقد، صقلت تلك المخططات الموضوعة مسبقاً له، وأخرجتها بشكلها الذي أبهر معجبيه، وأنت تعلم أنّ عين المحبّ عمياء، وعين الخائف رمداء؛ الرهبة يمكنها أن تخلق أوهاماً حول الشخص الذي تخافه. كانت لنا جارة، فلاحة طيبة، ذهبت إلى القرداحة، وقابلت أمّه، وأخذت منها توصية لمقابلته ليحلّ لها مشكلة، حين عادت للقائه مرّة أخرى، تذكّرها مباشرة، وصافحها، وشدّ على يدها مودّعاً. هو بالتأكيد لم يتذكرها، بل حاول إيهامها بذلك؛ لأنّه على

يقين أنّها ستشيع ذلك في كلّ مكان تذهب إليه؛ وإن كان تذكّرها حقّاً، فذلك لأنّه نادراً ما يقابل الناس، حتّى سكّان دمشق لا يمكنهم رؤيته إلاّ على شاشة التلفزيون. بالمناسبة جارتنا تلك، لم تمل خلال سنوات من رواية الحكاية لكلّ شخص تراه، حتّى حفظ الحكاية كلّ الناس». قلت: «إذن أنتِ ترجحين أنّه كان غبياً!». ردّت: «ليس تماماً، هو داهية، لكنّ الدّهاء لا علاقة له بالعقل، فبعض الحيوانات تملك دهاءً أيضاً». قال السّائق مشاركاً في الحديث: «يقال، إنّه كان يضع صورة صلاح الدين في مكتبه، وأنّه قرأ عنه طويلاً؛ ليعرف كيف استطاع التّعامل مع أعدائه، وليستفيد من تجربته!». اعترضت فضيلة بحماس: «مَن.. هو؟ هل تصدق أنّ الطغاة يقرؤون؟ ولماذا يقرأ، وكلّ شيء مرسوم له ومخطط، وهو يمشي على السراط كما يريدون! هل تعلم أنّ الأسد أخذ إذنا خطياً من إسرائيل لدخول لبنان؟». سألتها: «إذن، كيف أشيع عنه كلّ ذلك؟» قال السائق: «لا شكّ أنّها لعبة المخابرات، ليست مخابراته، بل المخابرات العالمية، فمعظم الذين تكلّموا عن ذكائه، وحنكته، وحسن إدارته لقضايا البلاد، هم أجانب!».

سألت السائق: «هل أنت سائق حقّاً؟ أشكّ في ذلك!» ردّ: «أنا سائق فعلاً، لكنّي خريج كلية الآداب، قسم اللغة الانكليزية، وحاصل على ماجستير، لكن لا عمل لي في دولة البعث!».

زهرة النيل

الليل في سراقب له خصوصية يدركها أبناؤه الذين لا يهتمون كثيراً بقطع الكهرباء، وقذائف النّظام، ولا ينتظرون هدوء القصف، إلاّ بما يسمح لهم بدفن موتاهم. بعدها يمكن أن تراهم يخرجون من بيوتهم؛ ليقوموا بزيارة بعضهم، خاصة في الليالي الدافئة. النّجوم هنا قريبة جداً، كما لو كنت في الصحراء! والسّماء تمنحك أسرارها في لحظة تأمل، فتعرف سرَّ التّربة الحمراء الّتي تصبغ البلاط، حين تهبُّ الريح حاملة تراب السّهول المحيطة بالبلدة. لكنّ النساء اللواتي يحرصن على نظافة الأسطح يقمن بشطفها بهمة، فتنزل المياه حمراء، تبلّل الشوارع، وتفسح المجال لرطوبة المساء باحتلال قسم من أحاديث النسوة أمام الأبواب قبل الصعود إلى السطح. ليل يسكنك، ويأسرك، لكنّ القذائف القادمة من معمل القرميد تنبّهك مباشرة إلى أنّ عليك أن تنزل بسرعة خوفاً من الإصابة. هو الليل بسكونه رغم أنف الحرب، يسحبني وراءه إلى صباي، ويعيدني إلى القاهرة لأرصد تلك الأحاسيس الفجة لصبية مازالت على أعتاب الحلم!

أخرجت كمبيوتري المحمول، لم يكن فيه من الشحن أكثر من ساعة، تصفحت البريد بسرعة، ودخلت صفحتي على الفيس بوك، ثمّ أغلقته. الصور التي لم تفارقني أثناء رحلتي كانت إحدى الحيل للعيش خارج الواقع. فتحت ألبومي الصغير، شاهدت صوراً لابنتيّ، آناتا وأنتونيتا، وصورة لآرام، وأخرى لأمّي وأبي.. وصورة لفتاة جميلة في ثوب الزفاف الأبيض، كنت دائماً أتمنّى لو أنّ هذه السّيدة هي جدتي الحقيقية؛ لأنّي لا أملك لجدتي سوى صور مهزوزة شكّلتها حكايات أمّي، لا أعرف يقيناً إن كانت هي حقّاً أم لا؟ لكنّ سطوة الحكاية لا تفارقني. الحكاية التي عرفتها من أوراق أبي بعد موته فشعرت أنّ لعنة جدتي ستلاحقني طيلة عمري؛ لأنّي أحمل الكثير من صفاتها الجسدية، والروحية، كما كتب أبي! لم تكن جدتي من المنيا، كما راق لأمّي أن تخبرني، بل جاءت من مكان ما إلى قرية قرارة التابعة لمركز مغاغة في محافظة المنيا...

كان اختيارها لهذه القرية النائية والمهمشة قسرياً، فلم تكن تعرف عنها شيئاً قبل ركوبها «المعدية» مع أفواج الناس القادمة من مركز مغاغة، ومن قرى أخرى! وجدت نفسها في رفقة امرأة تحمل «سبتاً» من الفطير، وكعكاً وأشياء أخرى، جاءت بها من قريتها، لتوزعها عن روح الميت. ساعدتها في حمل الأشياء، وحين سألتها عن وجهتها، قالت بعفوية، إنّها أيضاً ذاهبة لزيارة أمواتها! أحسّت أنّها تورطت في الكلام، لكنّها لم تعد تستطيع التنصل منه. المرأة المسنة نظرت إليها بإشفاق. فلم تكن تحمل معها شيئاً سوى صرّة ملابس صغيرة قماشها عتيق، والثوب الذي ترتديه لم يكن جديداً، ولا مناسباً للعيد.

حين وصلت المعدية إلى الشاطئ، أسرعت الخطى لتبتعد عن المرأة

المسنة التي لاحظت ذلك، فنادتها بصوتٍ عالٍ؛ كي تنتظرها. أبدت المرأة كرماً استثنائياً فقد نفحتها بضعة قروش، وأعطتها بعض الفطير، والكعك، وقالت بابتسامة فاضت حناناً: «عن روح ابني، اقرئي له الفاتحة». أسرها الكرم، فحملت عن السيدة أشياءها، وسارت خلفها بين المقابر. جلستا على المصطبة المصبوغة حديثاً بلون فيروزي تنعكس عليه شمس الظهيرة، وتترك وهجاً من أقواس قزح أمام عينيها. تغمضهما قليلاً، وتعود لتفتحهما على المشهد العبقري للجبال الصفراء المحيطة بالقرية، والقبور المبنية على سفحها، والمقام في أعلى قمة قريباً من روح السماء. خطر لها فكرة، اضطربت دقات قلبها لها. «ماذا لو...؟». ستفعل، فليس أمامها حلٌّ آخر. نهضت، واستأذنت المرأة المسنة، بأن تذهب لزيارة قبر والدها الواقع هناك في الأعلى. ودّعتها المرأة، وهي تضغط على يدها، وتقول: «إن احتجتِ شيئاً زوريني في المركز، اسألي فقط عن عمتك نجيّة أم محمّد، الكل يعرفني». لم تحفظ الاسم، لأنّها أصلاً قرّرت البقاء هنا، لن تعود أدراجها أبداً. إن وصلوا إليها في هذه القرية فسيكون قدرها، وإن لم يصلوا فستتدبّر أمر معيشتها.

الطريق إلى مقام الولي، في رأس الجبل، كان مرهقاً إلى حدّ أنّها توقفت لترتاح بين القبور أكثر من مرة، وحين ابتعدت عنها، وبدأت بتسلّق الطريق الرملي، كانت تشعر أنّها أقرب إلى السّماء، وأخفّ بكثير. روحها تحرّرت من قبضة الخوف، ولم تعد تسمع صوت الخطوات الثقيلة لأخوتها تتبعها عبر حقول الذرة، أو في شوارع المدن. هنا سكونٌ يُطمئن النفس، لا يبدو في الجوار أحد، ولي الله الصالح يحمي مقامه

من العابثين، واللصوص، والأغراب، وأصحاب النّفوس السّوداء.

تلاشى صوت الأطفال الذين يقرؤون القرآن حول القبور، لم تعد تسمع سوى صوت الرّيح. دخلت المقام البسيط، بخوف ممزوج بالرهبة. بضع دقائق، تقطّعت فيها أنفاسها، وهي تحدّق في أرجاء المكان. في كلّ الأحوال كان المقام ملائماً لصبية هاربة من حكم بالموت! ستجرّب العيش بين الأموات، مادام الأحياء لا يستطيعون التعايش بسلام!

أكلتْ لقيمات من الفطير، ولفّت الباقي بشاشية بيضاء، دسّتها داخل صرة ملابسها، واتكأت على الجدار، وغفت. لم يكن التّعب وحده الذي جعلها تنام مدّة لا تعرف كم طالت، فعندما صحت لم تجرؤ على الخروج من المقام. بقيت لساعات طويلة تفكّر فيما أقدمت عليه. وفي كلّ مرّة كانت تصل إلى النتيجة نفسها، لا خيار لديها سوى الموت بيدهم، أو بيد غيرهم! لكنّها لم تتخيّل أبداً الطريقة التي ستموت بها. كانت تتصوّر في لحظات الخوف أنّهم يعبرون النّهر إليها، ولن يلبثوا أن يكتشفوا مكانها. وكانت ترى أنّ رصاصة ستستقرُّ في قلبها وهي تركض هاربة في الفضاء الرحب للجبل، أو أنّ سكيناً ستنغرس في صدرها وهي نائمة. سيصلون إليها! هذا هاجسها الوحيد.

لكنّ الأيام مرّت، ولم يصل إليها أحد. واكتمل شهرها السابع، وهي تنتظر الموت الذي لا يأتي! عاشت على سرقة النزور التي تقدّم للولي، والصدقات التي يجود بها الأحياء الذين يزورون المقابر في كلّ يوم جمعة. كانت على يقين أنّ «الولي» يحميها، ويخفيها عن عيون أهل القرية وزوارها من المسلمين الذين يحجون إليه تبركاً بعد زيارة قبور أمواتهم أسفل الجبل.

في قرية مهمشة، ومنسية في الخرائط، يسهل على السكّان معرفة الغريب، على الرغم من الأعداد الضخمة التي تأتي لدفن الأموات، وزيارتهم!

القرية الغريبة في تكوينها تعيش على الموت، فالمساحة المروية الصغيرة لا تكفي لزراعة محصول يعين الأهالي على الحياة. لكنّ النيل واهب الحياة، والموت، كان يفيض على القرى المنخفضة في البر الغربي، ما جعل سكّانها يبحثون عن مكان يدفنون فيه أمواتهم، ووجدوه في هذه القرية القبطية. صباح كلّ جمعة، يستحم أبناء القرية، ويرتدون «جلابيبهم» البيضاء، ويذهبون إلى المقابر، ليمارسوا عملهم. الصغار أكثر حظاً من الكبار، فالنساء يُفضّلن المقرئ الصغير، خاصة إن كان يملك صوتاً جميلاً، والأطفال يعرفون كيف يستميلون النّساء العجائز بصوتهم المليء بالحنان والخشوع. منذ الصباح الباكر يرابطون عند الشاطئ الشرقي بانتظار الزوار. يقرؤون القرآن حسب الطلب، يضعون الأجر داخل جيوبهم، ويرفعون أيديهم بجوار آذانهم -كما يفعل القرّاء من المسلمين- ويتلون ما يحفظونه...

في الأعياد، لا يمكن أن تميّز بين مسيحي ومسلم، جميعهم يحتفلون بالعيد، ويقرؤون القرآن في المقابر!

المسلمون في القرية يذهبون إلى الكنيسة قبل المسيحين لرؤية السيدة العذراء، ويسهرون حتّى الصباح ليتمتعوا بنفحة روحانية، هم على يقين، أنّ السّيدة تهبها لعيال الله مهما كانت ديانتهم! فهي تشفي المرضى، وتحقق المعجزات للطرفين. وفي رمضان يتسابق المسيحيون لشراء المكسرات، والتين، والزبيب، ويتبركون بمقام الولي في الأرض

المنخفضة، وإن كانت بهم حاجة ملحة يصعدون إلى الولي في رأس الجبل. السيدة أم جرجس، والتي لم تصبح أمّاً سوى بالاسم، نذرت أن تصعد إلى مقام السيدة الصالحة كلّ يوم أحد، وتشعل عندها شمعة، علّ الله يستجيب لدعائها، ويمنحها جرجس الذي انتظرته عشرين عاماً بعد زواجها، ولم يأتِ!

أشعلت الشمعة، ووضعتها أمام القبر، وعادت لتجلس مقابل باب المقام. شعرت -وهي تدعو بخشوع- بحركة فظنّت أنّها صادرة من داخل القبر، تجمّد الدم في عروقها، حاولت أن تقف، وتتراجع إلى الخارج، لكنّ الخوف شلّ حركتها.. رأت على الحائط ظلّ امرأة منحنية، في وضعية السّجود، لم تستوعب مباشرة أنّ هناك امرأة غيرها داخل الغرفة الصغيرة، حتّى همست الأخرى بجزع «بسم الله الرحمن الرحيم». انتفضت السيدة كريمة، وهي تحدّق بالجسد الذي استقام بصعوبة، وأصبح واضحاً أنّها لا ترى شبحاً، بل امرأة من لحم ودم تكاد لشدّة نحافتها تبين عظامها. تقدّمت منها بحذر، وسألتها بصوتٍ هامس: «من أنتِ؟». لم تستطع الغريبة أن تجيب. سقتها بعض الماء، وأطعمتها، وأسندتها؛ لتنهض إلى خارج المقام. تنفستا الهواء النقي، وسألتها مرّة أخرى: «من أين أتيتِ؟ وكيف استطعت الوصول إلى هنا وأنتِ على هذه الحال؟». عرفت السيدة كريمة من أحاديث المرأة الصبية المتشعبة، والمشتّتة، أنّها هربت من قبيلتها، لتتزوج رجلاً من قرية مجاورة أحبّها، وأحبته، لكنّ أهلها ترصدوه، وقتلوه. هربت هي، وتاهت في المدينة، ووجدت نفسها في قطار أوصلها إلى المنيا... وحطّت الرحال أخيراً هنا!

طيلة الفترة التي قضتها في المقام بانتظار مولودها، كانت السيدة كريمة تحضر لها ما يكفيها من الطعام كلّ أحد، ولم تعد تضطر للبحث في المقابر أو انتظار الحسنة من زوارها.

كان يوماً صعباً واستثنائياً عندما وضعت طفلتها، فقد فاضت السّماء الّتي حبست مطرها لأشهر، ولم يكن سهلاً أن تصل السّيدة كريمة في موعدها، فغادرت المقام، وانحدرت في الطريق الصعب، حتّى وصلت إلى القرية، وهي في أسوأ حال. كانت تنتفض من البرد، وقد تسرّبت المياه إلى عظامها، ولم تعد تعرف ما الذي يجري لها. دارت الأرض فجأة، وسقطت وسط بركة من المياه والطين.

حين استعادت وعيها، كانت في غرفة نظيفة، وحولها مجموعة من النساء. وفي أقل من ساعة، امتلأت الغرفة بصراخ طفلتها.

في اليوم التالي نقلتها السيدة كريمة إلى بيتها. كانت بحاجة إلى طبيب، لكنّ القرية المهمشة لم يكن فيها مركز صحي، ولا أحد يخرج من بيته في ذلك الطقس المخيف.

كان عليها أن تنهض لتعتني بطفلتها، وبنفسها. قبل أن ينتهي الأسبوع الأوّل لولادتها حملت ملابسها، وذهبت إلى حافة النّهر، لتغسلها. جسدها كان أضعف من أن يحتمل الجهد اللازم للانحناء والغسيل في مياه النهر. انزلقت قدمها فجأة، وسقطت في الماء، مدّت يديها، وتشبثت بجذور الأزهار الطافية على وجه الماء، لم تستطع الصراخ، صوتها لم يخرج من حنجرتها، وكأنّها داخل حلم أخرس، استسلمت فيه لقدرها. فجأة شعرت بيد قوية تسحبها من الماء، وذراعين قويتين تحملانها. آخر ما رأته ملامح مشوشة لرجل ضخم يحدّق فيها. ثمّ

ذهبت في غيبوبة!

لم تكمل هنية اليوم، توفيت بعد أن تقرّح جلدها، ولم يعرف أحد السبب، لكنّ شائعات سرت في تلك الليلة، واشتبه البعض بموتها مقتولة، على الرغم من تأكيد القابلة أنّ جسدها كان سليماً حين غسّلوه، وكفّنوه، ولم يكن به سوى قروح سطحية، بلون أزرق!

همست السّيدة كريمة، وهي تحمل المولودة اليتيمة «إنّها لعنة زهرة النيل.. يا زهرة».

لعنة الحبّ

لم يكن هذا العنوان من اختياري، لم أشأ أن أتحدّث عن حياة جدتي، وأمّي تحت مسمى اللعنة. إنّه العنوان الذي تركه أبي على دفتر مذكرات، حرص طيلة إقامته في حلب على أن ينفرد به في غرفته، ويكتب لساعات طويلة من الليل قبل أن ينام! لم تجرؤ إحدانا أنا، أو كريمة، أن تمس دفتره، وأوراقه الشخصية أثناء حياته. لكنّها صارت مباحة لي بعد رحيله عن الدّنيا. وكان صادماً جداً ما قرأته فيها.

(ثلاثة جبال تنتصب كآلهة فرعونية، تحيط بالقرية من جهات ثلاث، تاركة للنيل الجهة الغربية، يعبر منها النّاس إلى العالم الفسيح الذي يختصره المركز أحياناً، وأحياناً يمتدّ إلى المحافظة أو العاصمة. لكنّ الذين يأتون ليستقروا في تراب القرية إلى الأبد أكثر بكثير من هؤلاء الذين يغادرونها في رحلات قصيرة قبل أن يعودوا إلى ترابها. مرقص أفندي عبد الجليل، أحد هؤلاء الذين غادروا؛ ليدرس في جامعة القاهرة. هناك تعرّفت عليه. شاب لطيف، ومثقف، ومتحمس جداً للثورة. كان يرى في عبد الناصر منقذ الأمة، وبطلها الذي سيرفع شأن

الفلاحين، ويهتم بأحوال القرى المنسية، وقريته من تلك القرى. لم أكن أتخيّل أنّ تلك الزيارة ستكون فاتحة لوقوعي في شِباك الحبّ.

بيت مرقص كان عبارة عن دورين، يسمونه «الدار» بينهما سلّم من الخشب يؤدي إلى السطح. على السطح أكوام من أعواد الذرة، والقطن الجافة، وأقراص من الجلة، «زلع الجبنة الحادقة» والمخلّل، يتلوى داخلها دود أبيض صغير! جلست وسط تلك الاحتفالية الريفية الّتي ذكرتني بأجواء ريفنا في حماة. رحت أراقب المقابر الزاحفة صوب قمة الجبل، وتساءلت، كم عاماً تحتاج حتّى تغطي القمة فيصبح هذا الجبل جبل المقابر؟! فجأة لمحتها. اقتربت من سور السطح، وتشاغلت بالنّظر إلى أسفل. لا أعرف كيف تجرّأت وسألتها عن اسمها!

«زهرة» همست بسرعة، وغابت عن ناظري. شككت أنّها كانت طيفاً. لكنّي لمحتها بعد ساعات، تخرج من باب الدار برفقة أمّها، وتتّجهان صوب المقابر. لكزت مرقص أفندي، محاولاً أن ألفت انتباهه إليهما من دون كلام. فهم قصدي مباشرة، وقال مازحاً: «هل تريد زيارة قبر أجدادك؟». تبسّمت بارتباك، وبقيت صامتاً. سحبني من يدي، ونزلنا السّلم، ومشينا حتّى المقبرة. كنت محرجاً من النظر صوب المدفن الذي تقفان داخله، شعرت أنّ الدنيا تصغر، والناس يغيبون عن ناظري، والسكون يخيّم على المكان. كان هناك ثلاثة حرّاس أشدّاء، يحيطون بمكان مقفر إلاّ من الريح.. وأنا وهي.. لم يعد هناك مقابر، ولا بيوت. النيل يجري من جهة الشرق، والمردة الثلاثة يحيطون بنا.. يقتربون إلى درجة لم أعد أرى زرقة السّماء، كان اللون الأصفر للجبال يعشي عينيّ، ويفتح كوّة صغيرة، تتحوّل إلى زوبعة، تحمل معها زهرة،

وترميها في النيل! كنت أرتجف.. بفعل الريح، أم الحبّ، أم الهذيان؟ لا أدري.. فقط سيطرت عليّ فكرة، كان من المستحيل التراجع عنها. في المساء، رافقتني أم مرقص إلى بيت السّيدة كريمة التي أبدت تردُّداً في قبول طلبي. ثمّ انفردت بي؛ لتخبرني قصّة ابنتها بالتبني الّتي لم تصدّق أنّ الله منحها إياها بعد زمن طويل من الانتظار، والعقم، فكيف تتخلّى عنها لغريب لا تعرف عنه شيئاً؟ ولم تره سوى مرّة واحدة!

كانت السيدة محقة في خوفها على مصير «زهرة» لكنّي كنت واثقاً أنّ زهرة ستوافق، فطلبت منها أن تستشيرها.

ليلة زفافنا واجهتنا مشكلة أخرى، السيدة كريمة كانت تريد أن أعقد على زهرة في الكنيسة، وأنا صمّمت أن نكتب كتابنا عند شيخ من القرية. ثمّ واجهتني مشكلة ثالثة، زهرة مكتومة، وليس لها قيد نفوس! استطعت أخيراً أن أقنع السيدة كريمة أنّ زهرة ابنة رجل مسلم، وأمّها كذلك، وهي لن تنسى اليد التي امتدت إليها بالعطف، والإحسان، وتنازلتُ عن عقد الزواج بطريقتي!

قبل أن أسافر بصحبة زوجتي، عانقتني السيدة كريمة، وقالت وهي تبكي: «هذه آخر مرّة سأرى فيها زهرة، أنا على يقين أنّي سأغادر قبل أن تأتي لزيارتي.. لكن لا تحرمني من زيارتها لقبري.. هي تعرف أين ستجدني.. سأكون هناك بجانب أمّها» وأشارت بيدها إلى الجبل.

لم يشأ القدر أن يمنح زهرة فرصة زيارة مدفن أمّها، والسّيدة الّتي ربّتها.. هي أيضاً اختارت أن ترحل وتتركني وحيداً.. وحمّلتني نتائج تلك اللعنة الغامضة.. لعنة الكادميوم..

طواحين الهواء 2013

لا أعرف لماذا كُتب عليّ أن أعود إلى حلب في مثل هذه الظروف! حتّى في زيارتي السابقة، لم أكن سعيدة بحضوري إليها، شعرت أنّ كلّ شيء هنا يتآمر عليّ، بدءاً بالذكريات، وانتهاءً بالكوابيس التي لم تفارقني حتّى شعرت أنّي داخل الجحيم. ربّما كان لقائي بسوزان عند الحدود اللمسة الحانية الوحيدة، في جحيم الحرب.

كان الجوّ مائلاً للبرودة، على الرغم من أنّنا في أواخر تموز، حين اجتزنا معاً البوابة الحديدية لمعبر باب الهوى، ودخلنا الأراضي السّورية. قبل أن أصل إلى السّيارة التي تنتظرنا، رأيتها. لم تتغيّر كثيراً، الأناقة نفسها، الابتسامة، وحتّى لهجتها في الكلام، عباراتها العربية الّتي تخاطب بها مرافقيها مخلوطة بالفرنسية، والإنجليزية! صرختُ من دون تفكير «سوزان». تقدّمت نحوي بالخطوات الهادئة الموزونة نفسها، واحتضنتني بالطريقة «الأكابر» نفسها، حتّى لم أتمالك نفسي من الضحك، وأنا أقول لها: «سبحان الله، لم يتغيّر فيكِ شيء» ضحكت نصف ضحكة،

كما كانت تفعل، تختصر حتّى الضحكة، ولا تتركها تأخذ مداها. وقالت: «كيف لم أتغيّر، لقد أصبحتُ عجوزاً، أنتِ التي لم تتغيّري ما شاء الله تبدين في الثلاثين، ماذا تفعلين حتّى تحافظي على شبابك؟». اقتربت منها، وهمست في أذنها «الحبّ، هو الذي يجدّد الشباب دائماً». دفعتني برفق، وقالت: «يا إلهي! معقول! حقّاً لم تتغيّري». تبادلنا العناوين، ودعتني لزيارتها في باريس.. ووعدتها أن أفعل.

لم يفارقني إحساسي بالقلق، فالأخبار التي وصلتنا قبل مغادرتنا ميلانو، كانت سيئة، وتدعو للخوف. لكنّي لم أستطع أن أرد طلباً لآرام، فكيف وطلبه في مرافقة صديقه الإسباني يتوافق مع رغبتي في زيارة حلب؟ لم أعمل قبل اليوم مترجمة، لكنّ المهمة على خطورتها كانت ممتعة، وخدمتنا الظروف في عبور الريف الشمالي، ووصلنا إلى حلب. أحياناً أكون على يقين أنّ حظي السيء لا يمكنه مفارقتي، وإن فعل للحظات، أقول: «ربما يأخذ استراحة ليستعيد نشاطه».

حين دخلنا القلعة وقف خوان مذهولاً. همس لي: «ما أعظمها!» قلت ضاحكة: «أنت رأيت عظمة أجدادنا قبل الآن، فما الذي يدهشك في بناء القلعة؟ العرب في الأندلس تركوا وراءهم أجمل المباني، والحدائق، والصناعات». ردّ خوان بخبث: «صحيح، تركوا حضارة وليدة، إسلامية فقط. هنا الأمر يختلف، يوجد تلاقح حضارات مختلفة، ومتتابعة». أردت أن أعترض، لكنّه تركني واقفة، وتابع سيره صوب الحمّامات. التقط صوراً للأسطح، كانت القمريات تلمع تحت أشعة الشّمس، ويعكس زجاجها ألوان قوس قزح. بدت في الصورة، وكأنّها مجرّة وسط سماء زرقاء. قلت له: لن أركض وراءك ثانية،

عليك أن تمشي ببطء، كي أشرح لكَ تاريخ ما تريد تصويره». ردّ خوان بلباقة: «معكِ حق سيدتي، من المعيب أن أترك سيدة جميلة تركض خلفي! أمّا عن التاريخ فلا يهمني كثيراً، الصورة بالنسبة لي هي التاريخ، والأهم هنا، ما سيقوله هؤلاء عن معركتهم، ووجودهم في هذا المبنى الأثري. أليس سيئاً أن يلجأ المقاتلون إلى مكان كهذا ليحتموا به؟ لماذا لا ينقلون معاركهم بعيداً عن هنا؟». قلت بغيظ: «النظام يقاتلهم هنا، هذه بلدهم، أين تريدهم أن يذهبوا؟ أتظن أنّ هناك جبهات قتال بين طرفين؟ أنت مخطئ.. المعركة ليست بين طرفين، وإلا أخذتك لتقابل الطرف الآخر أيضاً». ابتسم بلطف، وأشار إلى كاميرته، وإلى مئذنة الجامع الكبير، وإلى الطاحونة الهوائية: «معاركي هنا.. لا أستبدلها بشيء آخر مهما كانت المغريات كبيرة، ثمّ أنا لست مراسلاً حربياً، أنا فنان، وأفتخر بحفاظي إلى الآن على حياديتي المطلقة، وعدم انتمائي إلى الأيدولوجيات المحنطة بأحزاب». التقط صورة للحفريات الألمانية الجديدة، وأشار بيده إلى فتحة في جدار، فيها درجات ضيقة، تؤدي إلى عمق الأرض، وتساءل: «ما هذا؟». قلت ضاحكة: «هذا نتاج الحضارات السابقة للإسلام.. يسميه الناس هنا «حبس الدم» في الأسفل، في باطن الأرض، غرفة ضيقة، الهواء راكد فيها، والعتمة مقيتة، ويمكنك أن تجلس دقائق معدودة لتجرّب أحاسيس سجين من القرون الغابرة». قال باستياء: «لا أحبّ الأماكن الضيقة، وأكره كلّ ما يذكّرني بالتاريخ الدموي لمحاكم التفتيش». ضحكت من قهري، وقلت لخوان: «محاكم التفتيش! لعبة صغيرة إذا أردت أن تقيسها بما يفعله الطاغية بالمعتقلين في سوريا». شعرت بالغصة تذبح حنجرتي،

وساد صمتٌ بيننا. لم يعقّب خوان على ما قلته، بل صعد درجات المئذنة، ناسياً ما قاله قبل قليل! هذه المرّة لم أضطر للركض خلفه، كنت أصعد الدرجات ببطء شديد محاذرة الانزلاق.

بعد أن تنفست هواء بارداً، ونقياً، وأضعت خوان، وهو في بحثه المحموم عن زوايا لالتقاط أفضل الصور لحلب من الجهات الأربع للمئذنة؛ قرّرت أن أهبط، وأنتظره في الأسفل، فقد اشتدت ضربات قلبي، وتشنجت عضلات صدري، وأحسست بذلك الألم الذي يفاجئني قبل حدوث كارثة! عند المسرح الحديث، وقفت، وقلت لخوان: «المسرح بني في الثمانينات لإقامة الحفلات الغنائية عليه، ما رأيك أن تلتقط صورة لي هنا». ضحك، وقال: «لا أحبّ التقليد.. مسرح قزم، وسيء التنفيذ، والصورة لن توحي بعمق الزمن الذي أريد تجسيده. لماذا لا تتركون الأشياء كما كانت! هذا المسرح يعبر عن فقر المخيلة، وعقلية اللصوص.. من الواضح أنّ متعهده سرق أضعاف ما رُصد لبنائه. أيّ شخص عادي، وليس مختصاً بالبناء، يمكنه ملاحظة ذلك. دعينا نذهب إلى مسجد إبراهيم. سأكتفي بصوره، وصور قاعة العرش».

كنّا في قاعة العرش حين سقطت قذيفة فوق القلعة. تبعتها زخات رصاص من أسلحة مختلفة. ثمّ حدث اشتباك عنيف.

تحرّك الشباب بسرعة، خرجوا من مخابئهم، قاصدين أطراف القلعة. لم أتعرض لتجربة ركض بهذه الصعوبة منذ سنوات، فشوارع المدن كانت معبّدة، ومحاطة بما يشغل البصر، ويوقف الجسد عن الحركة. اكتشفت الآن أنّ رياضة المشي الّتي كنت أمارسها في السنوات الأخيرة، كانت مجرد تسكع في الحدائق والمنتزهات لا يمنح لياقة بدنية.

أثناء انحدارنا صوب مسجد إبراهيم، وقبل أن أصل إلى منطقة صالحة للركض التوى كاحلي، وانبطحت أرضاً. لم أصرخ، كنت أئن بصوت خافت. أحسست أنّ عظم ساقي قد كُسرت. «خوان» سبقني بمئات الأمتار، لم أعد أرى منه سوى شبح يتحرّك بمهارة فائقة بكاميرته، يصور ما يجري ذاهلاً عمّا حوله. اقترب مني شاب، وانحنى يريد أن يساعدني، في اللحظة التي سقطت فيها قذيفة أخرى بالقرب منّا، غمرتنا بالتّراب، ولم أعد أسمع أصوات العالم؛ خرس كلّ شيء، رأيت الشاب يحرّك رأسه، ويتكلّم. لكنّي لم أعد أسمع شيئاً، وسالت قطرات من الدم فوق يدي، وأنا ما زلت متكومة في جلستي لا أستطيع حراكاً. فجأة رأيت الشاب يهزّني بعنف والدّم يسيل على وجهي. علّق سلاحه على كتفه، وحملني بين ذراعيه، وركض. لم أعِ ما يحدث، إلا عندما وضعني على أرضية رطبة في سرداب معتم. حينها شعرت بألم شديد في أذنيّ، وسمعت صوته يقول: «الحمد لله على سلامتك» عرفت أنّه لو لم يحملني في تلك اللحظة، ويركض، كنت الآن أشلاء مبعثرة على سطح القلعة! مسح وجهي، وقال بلطف: «أعتذر لأنّي حملتك بشكلٍ فظ، لكنّي عرفت أنّك لم تسمعي ما قلته لك. حاولت أن أشرح لكِ أنّه يجب أن نغادر المكان.. من دون جدوى». ابتسمت ابتسامة واهنة، ولم أقل شيئاً. لم يتوقف النزيف من أنفي، شعرت بالرعب، وأنا أرى المنديل القماشي قد امتلأ، ولم يعد ينفع في سدِّ النزيف. رميته، وأخرجت من حقيبتي منديلاً آخر. مدّ الشاب يده، أسندني، وحملني ثانية. أدركت أنّنا نسير في نفق، لم أرَ شيئاً، لكنّ رأسي كان يرتطم أحياناً بالسقف، أو الجدار، فينهمر فوقي التّراب، ويدخل عينيّ، وأذنيّ، وفمي، فأخبئ

رأسي بين كتفيه! كنت على وشك الإغماء، حين لمحتُ ضوءًا ضعيفاً، فعرفت أنّنا وصلنا نهاية النفق. دخلنا المدينة القديمة. أنزلني أرضاً، ونادى أحد الشباب ليهتم بي، وعاد من حيث أتى! أردت أن أستوقفه، أن أشكره، أن أفعل أيّ شيء.. لكنّي لم أستطع أن آتي بحركة!

خرجنا من فتحة تهوية لإحدى القنوات، ووجدت نفسي في أرضٍ خلاء.. دخلنا بعدها خندقاً سرنا فيه حوالي مئتي متر، حتّى وصلنا لمقرٍ تحت الأرض، لم يكن فيه أحد، وأخبرني الشاب الذي رافقني، أنّ الشباب يحاصرون سجن حلب المركزي، وأنّ «زوجي» هناك، وسيعود بعد قليل!

حينها عرفت أنّنا في «تلة حيلان» التي تشرف بشكل مباشر على السجن، وعلى مدخل المدينة الصناعية، وعلى مخيم حندرات الفلسطيني، وعلى قلعة «آكوب». مجموعة من التلال والطرق الوعرة، سيطر عليها الثوار كمقدمة لتحرير السجناء!

عاد «خوان» بعد ساعتين وهو مرهق، ومكتئب. لم أسأله ما به، من الواضح أنّه مشى مسافات طويلة، ولم يتناول طعاماً منذ البارحة. قال فجأة: «كم هي عظيمة هيلانة تلك، لولاها لما وجدنا منفذاً نخرج منه، ولدفنّا أحياء». سألته باستغراب: «من تقصد؟ الملكة هيلانة [18]؟ تاريخياً لا شيء يثبت أنّها هي من أمر بحفر قنوات الري، العوام فقط يعتقدون ذلك، ويعتقدون أن اسم «حيلان» مأخوذ من اسمها. الثابت أنّ حلب تأخذ ماءها من عيون «إبراهيم الخليل» القريبة من هنا، وهي ثلاثة حفائر مختلفة، واحدة يقال لها «الشيخ خليل» والثانية «بركة

(18) هيلانة والدة الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير.

العبد» والثالثة «بركة هيلانة أو بركة الرشح». قال بلا مبالاة: «أنا أميل إلى ما يعتقده العوام، فهم أقرب إلى روح الحكاية، والحكاية هي أصل الفكر، والمنبع العجيب لأيّ اختراع عبر التاريخ!».

تحولات النّهر

خبر سيطرة الدولة الإسلامية على مطار منغ العسكري بعد وصولنا إلى «حيلان» بأيام، فرصةٌ ذهبيةٌ جاءت تسعى على قدميها، و«خوان» لا يترك الفرص تذهب هباءً.

هدفنا إعزاز، والقصد زيارة مطار منغ العسكري، بعد العملية الّتي نفّذها تنظيم الدولة الاسلامية في العراق والشام، بالاشتراك مع باقي الفصائل الّتي حاصرت المطار لعام كامل. لكنّ «داعش» دخلت المطار وحدها، ومنعت باقي الفصائل من الدّخول!

كانت إعزاز مع مجموعة قرى في الريف الشمالي، مركزاً رئيساً لداعش، وقد نبّهني السائق مباشرة إلى ضرورة ارتداء النقاب، والأفضل أن يدّعي مرافقي أنّه زوجي، وأن يكون مسلماً!

كان علينا أن نمر على حواجز كثيرة للدولة، عند كلّ حاجز يقول السائق كلمة السرّ كي يسمحوا لنا بالمرور. ويشير إلى أنّه ينقل رجلاً أجنبياً مسلماً مع زوجته العربية، ويقصدون زيارة الأمير، وأخذ أمور الدين عنه! كان الأمر مضحكاً بالنسبة لي بمقدار ما هو مهين، ومحزن.

لم يستطع «خوان» أن يلتقط صوراً لأيّ حاجز، فقد منعوه من ذلك. وقالوا، إنّه بحاجة إلى تصريح من الهيئة الشرعية، أو الأمير شخصياً! عقدٌ يتألف من خمسين قرية، في كلّ واحدة مقرٌ للتنظيم! وقد أمّن للدولة خطوط إمداد وصولاً إلى حلب، حيث المقر الرئيس في قاضي عسكر. هناك يقيم والي ولاية حلب «أبو الأثير».

لم نستطع الحصول على إذن لمقابلة «أبو الأثير» أو أحد القادة الكبار من فصائل التنظيم. ولم يكن غريباً أن يدعونا السائق للمبيت في بيته حتّى الغد، لكنّ المفاجئ أنّه يسكن بستان القصر، وأنّنا وجدنا أنفسنا في أكثر المناطق سخونة. كنّا في منتصف آب، وحرارة الجوّ لا تطاق، ولا ينقصها حرارة الاشتباكات، والقصف، وقصص الموت على معبر بستان القصر. قصصٌ لم يسكت السائق عن روايتها حتّى وصلنا بيته. الإرهاق سلبني طاقتي على الصحو، فطلبت مكاناً للنوم، وتركت «خوان» يستمع لحديث صاحب البيت، وللشباب الذين جاؤوا يزورونه، عندما عرفوا أنّه يستضيف صحفياً إسبانياً!

أدخلوني إلى غرفة تتبعها شرفة، تطلّ على الشارع مباشرة، فتحت أباجور الباب، فلم أكن أطيق النوم والأبواب مغلقة، ورفعت الستائر أيضاً. قبل أن أغفو بلحظات رأيته، كان جسده الممتلئ يسدّ باب الشرفة، نظر إليّ نظرة مفعمة بالعتاب، وهمس: «لماذا لم تبحثي عني؟ لماذا تركتني أهيم وحيداً في هذه الدنيا؟» انتفض جسدي بعنف، وسمعت ضربات قلبي تطرق أذنيّ، و وشيش فيهما ألزمني مكاني على الفراش. لم أجرؤ على النهوض، ولا الحركة، شيء أقوى مني كان يمسك بجسدي، ويثبّته مكانه. خرست تماماً. لم أستطع أن أخبره أنّي

بحثت عنه في كلِّ مشافي حلب، ولم أجد له أثراً! قال لي بصوت خفيض واضح النبرات: «هل بحثتِ عني في النّهر؟».

في النّهر! لم تكن المرّة الأولى التي يزورني فيها أبي وهو بكامل صحته وقوته وبهائه، لكنّ عينيه مليئتان بالعتب واللوم والحزن. كان دائماً يسألني السّؤال نفسه، لكنّها المرّة الأولى التي يخبرني فيها عن المكان الذي يجب أن أبحث عنه فيه!

رأيتُني أركض في حديقة «الطلائع الثورية»، أتعثر، وأنهض، أرمي نفسي في النّهر!

أخوض في مياهه الموحلة، والمطر ينهمر بعنف، لا أستطيع أن أفتح عينيّ، والمطر يجلدني بقوة. كنت أرتجف وأصرخ طالبة النجدة. أمدّ يديّ أمامي لأحمي نفسي من الاصطدام بشيء لا أعرف ما هو، لكنّي أحسّ به. هناك أنفاس تتلاحق في الفضاء، مئات البشر حولي. أحسّ بأنفاسهم تلتفُّ كزوبعة حول عنقي، فأكاد أختنق. المطر لا يتوقف، ومنسوب المياه في النّهر يرتفع فيغمر صدري. أكتشف أنّي لا أجيد السّباحة، وأنّ تياراً مائياً يجرفني بعيداً عن جسر السنديانة. قرّرت الاستسلام، تركت جسدي حرّاً من دون مقاومة، لم تعد قدماي تلمسان أرض النّهر، لكنّي شعرت بأعشاب تلتفّ حول ساقيّ، وتشدّني إلى الوراء.. صرت أصرخ، ولا أسمع صوتي. حين توقف المطر كنت في مكان بعيد، لا يسمع فيه سوى صوت رصاص قنّاص «حي الإذاعة»، ورأيت أمّي تناديني. كنت أعرف أنّها أمّي، لكنّ ملامحها تشبه السيدة التي في الصورة.. الصورة باللونين الأسود والأبيض، وأمّي باللون الأبيض الباهت. أعرف أنّها مجرد شبح يهيمن على الفضاء الواسع

من حولي. تطلعت صوب الضفة، تقدّمت إليها، وكأنّي أسير على أرض جافة.. جفّ النّهر فجأة، وظهر قاعه مليئاً بالجثث!

استيقظت من نومي مذعورة. احتجت إلى بضع دقائق، لأستعيد هدوئي، وتنتظم ضربات قلبي. من الغرفة المجاورة وصلتني أصوات الشباب، وهم يحاولون التفاهم مع خوان بالإنجليزية التي لا يتقنها جيداً.. كلا الطرفين كان يضحك على ركاكة الجمل المستخدمة في الحديث!

كانت فرصة لا تعوّض بالنسبة للشباب، أن يصل صوتهم إلى إسبانيا، تمسكوا بوجودي لأقوم بالترجمة، وبطبيعتي لم أعد أستطيع النوم! شهداء النّهر كانوا محور حديث الشباب، فعلى الرغم من كلّ القصف والمجازر التي تعرّضت لها حلب، لكنّ مجزرة النّهر كانت أكبر، وأعنف مما يحتمله البشر. في كلّ بيت قصة، فقد تجاوز عدَد الشهداء المئة، ودفن كثيرون من دون أن يتعرّف عليهم أحد.. كان صاحب البيت يحكي عن شخص من جيله، كبرا معاً في الحي، لكنّ صديقه كان «على البركة» كلّما مرّ به أحدٌ من سكان الحي، يوقفه، ويقول له: «أنت مخالف، يا بتدفع ليرة يا بكتب لك مخالفة». كانت العملة النقدية بالنسبة له كلّها «ليرة» كبرت أم صغرت، وبائع الفلافل يعطيه بها «سندويش» سواء أكانت من فئة الخمس ليرات، أم العشر ليرات، أم الخمس وعشرين» هو يصرُّ على دفع الثمن، كلّ ما معه! وحين يكون مفلساً يرفض أن يأخذ طعامه اليومي، حتّى يكتب مخالفة للمحل، ويقبض ثمنها، ثمّ يشتري به طعامه! كنّا جميعاً ننصت للحديث، وخوان مثلنا، وكأنّه يفهم ما يقال! لم يطلب مني ترجمة شيء من الحكاية، حتّى شككت بأنّه يفهم العربية، ويخفي ذلك عني. غادر الشباب مع نداء الفجر..

وذهب أهل البيت للنوم. لكنّي لم أستطع معاودة النوم، شيء غامض كان يقبض على حنجرتي، ويمنعني من التنفس. خرجت إلى الشرفة طلباً للهواء، نظرت إلى الأسفل، لم تهدأ الحركة في الشارع بعد. العائدون من صلاة الفجر، وبائعو الفول والحمص عند عرباتهم، استعداداً لصباح الجمعة. طقسٌ لم يتخلَّ عنه السكّان في هذا الحي على الرغم من أجواء الحرب.

جاء الصباح مسرعاً، وتباطأت الحركة في الشارع. ثمّ ما لبث الضجيج أن تصاعد مع اقتراب موعد الصلاة. نزل الرجال بملابسهم البيضاء، وارتدت النساء ملابس الخروج، وتحجبن، ودخلن إلى المطبخ! علقت إحداهن ضاحكة، حين رأت استغرابي: (نستعد لاستقبال الموت).. صاحب البيت لم يكن لديه أولاد صغار، يعيش مع أختٍ عزباء، وزوجته.. وله ابن يخدم في الجيش لا يعرف عنه شيئاً منذ سنة! حاولتُ مساعدة زوجته في تنظيف البيت، لكنّها رفضت بقوة: «لا ومئة نبي، عيب.. أنت ضيفة».

كان خوان ينتظر السائق «أبو جمعة» ريثما يعود، لينقلنا إلى الريف الشمالي، كي نسلك طريق إدلب القديم، في طريقنا إلى سرمدا. وأثناء ذلك، كنت أستمع للمحادثة التي سجّلها للشباب، وهم يحكون عن مجزرة النّهر. فجأة سمعنا صوت مروحية. أغلق خوان المسجل، واستأذن النسوة، ونزل إلى الشارع.

ركضت مع النساء إلى الشرفة حافية القدمين، النساء اللواتي شلّهن الرعب في البيوت المجاورة فتحن الأبواب، واندفعن إلى الشارع. الرجال كانوا في المسجد.. وفجأة سمعنا صوت الانفجار الرهيب الذي

هز الحي، صاحت إحداهن: «صاروخ، يا ربي، الولاد بالجامع، وأبوهم، يا الله» وجدت نفسي في الشارع، أركض مع الراكضين، وأتبع النساء، اللواتي انعطفن في شارع آخر، وأنا وراءهنّ! لم أعرف لماذا أركض، لم أفهم ما الذي جعلني أتوسط الشارع المليء بالأنقاض، والدماء تسيل في كلّ مكان، والرجال يجمعون الأشلاء، ويضعونها في بيك آب! ويسحبون الجثث والجرحى من تحت الأنقاض. عائلة كاملة خرجت سليمة، والباقي غيّبهم الموت.

رأيت الجحيم الحقيقي بأم عينيّ. حتّى الأطفال كانوا يركضون للمساعدة في رفع الأنقاض، والبحث عن الشهداء، ملابسهم البيضاء ملطخة بالدم. الصورة كانت باللونين الأحمر والأبيض. الصورة فقط بالأحمر.. والرمادي المنبعث من غبار البيوت المدمرة يسدّ الأفق، ويمنع الرؤية. دقائق فقط، وانفجر الشارع بأصوات الرجال يصرخون «لا إله إلا الله» وتراجعت النساء إلى مداخل البيوت. أنا أيضاً كان يجب أن أعود.. لكنّي لم أعرف الطريق.. وقفت مذهولة وسط الجموع، كنت حافية، ومكشوفة الرأس، والدّماء تلطخ ملابسي.. لونين فقط أحمر وأسود!

تجمّع الناس أمام المبنى المنهار، اختلطت أصوات الاستغاثة بالبكاء، بالدعاء، وطغى عليها نداء «الله أكبر».

فجأة سقطت قذيفة هاون على المنقذين، فركضوا في كلّ الاتجاهات! المنقذون يحتاجون لمن ينقذهم. لكنّ أصوات التكبير والاستغاثة بالله، لم تتوقف!

ساعة مضت، وأنا أدور في الشوارع، أشاهد ما يجري بذهول.. هل

يمكن التصالح مع كلّ هذا التوحش في القتل.. أطفال ونساء، رجال وشباب.. موتٌ مجاني.. وقتل عشوائي، وبالجملة!

لا يقارن ما رأيته اليوم بما حدث في الثمانينات في حي المشارقة، يومها لم تكن هناك طائرات حربية تقصف المدينة، لا صواريخ، ولا براميل الموت، كان الرصاص وحده بصحبة الدبابات، يثير من الرعب ما يكفي ليخرس البشر، ويعميهم عن رؤية ما يجري.

في ذلك اليوم، اتصلت والدة جنان بي طالبة مني أن أحضر إليها لأمر هام. كنت قلقة على جنان كثيراً، بعد أن تدهورت صحتها بشكلٍ مفاجئ، وصارت تدخل في غيبوبة، قال الطبيب إنّها لا تشتكي من شيء عضوي عدا نقص التغذية، وإنّها تسير إلى الموت بإرادتها!

قبل المغرب بساعة، وصلت بيت جنان. شرحت لي أمّها الأمر «الهام» الذي استدعتني لأجله. جاء من يطلب يد جنان، وتريدني أن أقنعها، علّها تخرج من حالة الكآبة التي تخنقها، وترميها في هاوية اليأس. لم يكن سهلاً إقناع جنان بأنّ الحياة مستمرة، وأنّ عليها أن تعيشها متجاوزة المحنة التي تمرُّ بها. حين دخلتُ غرفتها، كانت الستائر مسدلة كالعادة، وجوّ الغرفة قد سحب منه الأوكسجين، وأصبح خانقاً. فتحتُ الشبّاك على مصراعيه. وتسلّلت نسمة خفيفة، مع أصوات الشارع الذي ارتفعت وتيرة الحركة فيه إلى الذروة. حمى الشراء في ليلة العيد، خاصة شراء الحلويات والضيافة. تبدأ في المساء، ولا تنتهي قبل منتصف الليل.

كنت مصرة على إقناعها بالعودة إلى الحياة من دون أن أتطرق إلى موت فايز، أو علاقتها به. فوجدتها تقنعني أنّ تخليها عن فايز خيانة كبرى

لن تقترفها أبداً. أسقط في يدي، فقد كنت أشعر في أعماقي، أنّي أيضاً لن أتخلّى عن حبي لآرام، وإن اختفى من حياتي. صحيح أنّ هناك فرقاً بين الغيابين، لكنّي لن أفعل. كنت على يقين من مشاعري إلى درجة حاولت إقناع والدة جنان بأن تتركها تغرق في عالمها الذي تعيشه مع فايز، وألا تطالبها بالارتباط بشخص آخر. قالت باستياء: «لكنّ الحياة ستستمر من دون فايز، كيف ستواجه الحياة وهي تعيش مع ميت!».
لم يكن لديّ جواب. فأنا حتّى تلك اللحظة كنت أعيش الحياة من دون تفكير بكيفية مواجهتها، والاستمرار فيها.

لم ننم تلك الليلة سوى ساعتين، استيقظنا على تكبيرات العيد، وقفنا وراء النّافذة نراقب الشروق، وأفواج الرجال العائدين من الصلاة، والأطفال بملابسهم الجديدة، بحزن، عبّرت عنه جنان بنشيج مفاجئ، وعبّر عنه قلبي، بانقباض لم تفلح مظاهر العيد، وفرح أخوة جنان، في إزالته.. افتقدنا البهجة، وشعرت كم يمكن للمشاعر السلبية، أن تطفئ الفرح، وتقتل الرغبة في الحياة!

«يا لنا من تعساء!» همستْ جنان بحرقة. كنت على قناعة أنّ التعيس لا يعيش حاضره، فهو، إمّا يجترُّ ماضياً يتوهم جماله، أو ينتظر حاضراً أفضل! وكنت أنتظر أن يأتي الحاضر الأفضل مرتبطاً بآرام.

لم يفارقني الإحساس بالخطر طيلة طريق العودة. كانت خطواتي تتعثّر بظلّي، وكنت أشعر أنّ كارثة قد حلت بأهلي! تهيّأ لي أنّ جرّة الغاز انفجرت، أنّ حريقاً التهم بيتنا، أنّ كريمة اختنقت في الحمّام. صور كانت تستوطن دماغي، وتأبى أن تفارقني. لكنّ ما كان ينتظرني شيء مختلف تماماً عن كلّ ما صورته مخيلتي! لم أستطع البكاء، أصبت

بالصمم، أصبت بالخرس، كلّ ما حولي أصبح بعيداً، ونائياً، ولا علاقة لي به. كنت أسمع همساً يدور بين الناس عمّا تفعله سرايا الصراع من مداهمات، واعتقال، وقتل لوجهاء حلب، وأطبائها، ومحاميها.. كلُّ الناس كانت تعرف، وترى، وتصمت! لا أحد يجرؤ على الحديث علناً عن تلك الأمور، كانوا يخرجون الجثث التي ترميها تلك القوات الخاصة قرب حاويات النفايات، ويدفنونها ليلاً بتكتم كبير. مع هذا كانت القصص تنتشر، والأخبار تسري كغاز السارين في الجوّ، تتسرّب إلى البيوت، مع المزيد من الرعب والحذر. لكنّي لم أتصور أن تحدث هذه المجزرة، وبذلك الشكل الوحشي، وأن تأخذ في طريقها كلّ أحبتي!

في صباح أوّل يوم من عيد الأضحى في الحادي عشر من آب 1980، أمر المقدم هشام جنوده بتطويق المشارقة. انتشر الجنود في الحي، وأغلقوا مخارجه بالدبابات. وخلال أقلّ من ساعة أفرغت البيوت من السّكان، أنزلوا الرجال، والشيوخ، والشباب بحجة أنّ الضابط يريد التحقيق معهم. اصطفّ أكثر من مئة شخص في الشارع، وأمر المقدم جنوده بإطلاق النّار. المشهد المكرر من مجزرة دير ياسين.. بالتقنية نفسها، فقد كان المقدم معجباً بالطريقة التي اقتحم بها الاسرائيليون البيوت، وكيفية إخلائها، وكيفية إطلاق النار.. فعل ذلك بالحرفية نفسها، وبمنتهى الرضا عن النفس!

كان الجنود المنتشرون في الحي بكامل عتادهم يأمرون الناس بعدم مغادرة البيوت، وإلا سيدمرونها فوق رؤوسهم. من بقي في البيوت، لم يعرف ما يجري في الخارج! حين توقف إطلاق الرصاص بعد ساعات، وانسحبت الوحدات الخاصة من الحي، وغادرت الدبابات، فتح النّاس

أبواب منازلهم، ليجدوا جثث الشهداء مكومة فوق بعضها، وبينهم جرحى لم يفارقوا الحياة بعد. لم يجد سكّان الحي جميع الشهداء.. فقد ربط المقدم بعض الجثث من أرجلها إلى الدبابات، وجرّهم في أحياء المدينة، ثمّ رماهم في مدخلها عند «التمثال» الذي أصبح مكانه الآن النفق بعد «دوّار الموت». لم تخفف المأساة الجماعية من صدمتي، بل زادتها عنفاً وقسوة. فريدة كانت برفقة أبي بين من قتل بالرصاص، ولم أشاهد جثتها، ولا جثة أبي!

لم يكن في البيت الذي خيّم عليه شبح الموت سوى كريمة. كانت ملقاة على السرير وسط بركة من الدّماء. وحولها ملابسها الداخلية، وثوب عرسها، وقد خلع المقتحمون باب خزانتها، ورموا كلَّ محتوياتها أرضاً.. وسرقوا الذهب، والمال، وكلّ العطور، والأحذية التي رتّبتها بعناية فائقة في صناديق بانتظار انتقالها إلى بيت زوجها!

حين اقتربتُ من السّرير، ورفعت عن جسدها ملابسها الممزقة بالمقص.. شاهدت ما هو أقسى من القتل.. كانت يد كريمة اليسرى مقطوعة، ومرمية على الأرض.. ومقص الخياطة مغروس في قلبها.. وعينها السّليمة تحدّق في الفراغ برعب، وتقلصات الألم لم تفارق ملامحها بعد الموت!

بقيت لأسابيع مصلوبة خارج النوم، كنتُ أخشاه، أخاف أن أغفو ولو لدقائق؛ لأنّ الفاجعة الحقيقية كانت في تلك الصور الّتي تهاجمني أثناء النّوم. أحياناً يكون من الحكمة أن نعيش المأساة بكلّ جوارحنا كي لا تلاحقنا سنين طويلة. الرقابة والانضباط اللذان يفرضهما العقل أثناء الصحو يقلّلان من وقع المصائب والأذى على النفس! فرصتي

الحقيقية كانت في النوم، في المنام تتعرى العواطف من سلطة العقل، فتتبدّى أكثر عمقاً، وأشدّ ألماً. لكنّ النّوم أبى أن يمدّ يده لإنقاذي، وحين استطعت اقتناصه أخيراً، احتله أبي معاتباً، ولائماً، ومتألماً، وبقيت جثته طيلة تلك السّنوات هائمة تبحث عن مرقد لها!

أوّل شيء فعلته حين وصلتُ إيطاليا، أضفت سوزان إلى قائمة أصدقائي في الفيس بوك والسكايب. قضينا أوقاتاً طويلة نتحدّث عن الماضي، ونسترجع ذكرياتنا في حلب. سألتها ماذا كانت تفعل هناك؟ أخبرتني أنّها كانت تعمل مع منظمة أطباء بلا حدود، وأنّها زارت الكثير من المدن في ريف حلب، وإدلب، وكانت تعمل بإيمان وهمة، لكنّها لا تفكّر أبداً بإعادة تلك التّجربة. ولما سألتها عن السبب، قالت: «لا أستطيع تحمل رؤية كلّ ذلك الدّمار في الأمكنة والنفوس، نحن نعمل في ظروف غير إنسانية، في البداية عملت في المشافي الميدانية، وكنت أشعر بالارتياح حين أساعد في إنقاذ روح إنسان، لكن لكثرة ما رأيت من تشوهات، لم أعد أتحمّل فكرة إنقاذ روح لتعيش أبشع حياة، تصوري أن تعيشي بلا يدين، بلا أطراف، بلا عينين، تصوري أن تعيشي بأجزاء فقط من أعضائك الداخلية بسبب رصاصة متفجرة! ثمّ بعد أن أنقذ ذلك الإنسان، أيّ مصيرٍ ينتظره؟.. الذل، والفقر، والنزوح، والعطب، العطب الجسدي لا يمكن أن يبقى جسدياً يا فضيلة، سيطال الروح، والمشكلة أنّ التشوه لن يكتفي بالضحية، بل سيطالني أنا أيضاً!.. أنا أشعر أحياناً، أنّي مسؤولة عن تلك التشوهات؛ لأنّي أقف عاجزة عن إعادة الجسد كما كان، وهذا أمر لا يستطيعه سوى الخالق. ثمّ جاءت

قضية صديقي الطبيب البريطاني لتدعم قراري. لم يعد الأمر مقتصراً على العجز أمام الحالات الصعبة، لم يعد الأمر متعلّقاً بمشاهد الموت تحت القصف العشوائي، الأمر أصبح مرتبطاً ببذرة الخوف الّتي عادت لتنمو في روحي من جديد. نعم أعترف أنّي خائفة!».

لم تتغيّر طبيعة سوزان الحذرة، والانتقائية، والحساسة منذ عرفتها أوّل مرّة بعيداً عن أجواء الكلية.

دعتنا سوزان لزيارتها في بداية العام الدراسي، كانت تسكن في منطقة الشهباء حيث الفيلات الجميلة تحيط بها حدائق الورد، أسكرتني رائحة الغاردينيا قبل أن نعبر الحديقة، ونصعد ثلاث درجات إلى الشرفة، قدّمتها سوزان لنا بقولها: «حبيبة أمّي، هي التي زرعتها» كنت مأخوذة بجمال منظر الحديقة الرائعة التنسيق، وقفص العصافير، وحوض السّمك، وشلال الماء المحفور في قلب صخرة كبيرة. تفاصيل شديدة البذخ، والأناقة، لم أرها من قبل. تشعب الحديث، واشتدّت حماسة صديقاتي في النقاش، وكنت الوحيدة التي التزمت الصمت حين دخل الحديث في الدهليز المظلم «الحبّ» لم أكن أحبُّ البوح، بأيّ كلمة تخصّ مشاعري الملتهبة نحو آرام، لكنّ سمية فتحت الباب على مصراعيه، وحكت لنا تفاصيل علاقاتها العاطفية منذ كانت طالبة في الثانوية وحتّى الآن، خاصة علاقتها بزميلنا أحمد الذي تركته منذ فترة؛ لأنّها تعلّقت بشخص آخر أكثر غنى وجاذبية منه! سوزان لم تستطع المحافظة على لباقتها، حين سمعت حديث سمية، قالت لها بفظاظة: «هذا تصرف لا يليق، ويدل على أنّك، إمّا فتاة لعوب، أو غير ناضجة عاطفياً». سمية تجرّعت التوبيخ، وحوّلته إلى نكتة،

وطلبت من سوزان بليونة ولطف أن تحكي لنا عن تجربتها العاطفية الناضجة! كان ردّ سوزان غير متوقع منا، فقد قالت بصراحة: «ومن قال لكِ إنّي ناضجة عاطفياً؟ أنا أصلاً لم أجرّب عواطفي نهائياً، لأنّي دفنتها بكلّ بساطة حين اخترت دراسة الطب.. كنت أمام طريقين، إمّا أن أنسى كلَّ عاطفة تجاه الجنس الآخر، وأعمل لمستقبلي، أو أدرس الآداب، وأنسى الطب.. وقد ساعدني على اتّخاذ الخيار الأوّل رغبة أهلي، وإلحاحهم لأدرس الطب». وقتها قلت لسوزان: «ومن قال لكِ إنّ دراسة الطب تتعارض مع العواطف، أو تلغيها؟ أعتقد أنّكِ أخطأتِ التّقدير.. الحبّ لا يعني أبداً الركض وراء العواطف والغرق فيها لدرجة العجز عن أيّ فعل آخر في الحياة بل ربّما تكون دافعاً قوياً للإنجاز والتميّز أيضاً؛ صحيح أنا لا أستطيع أن أفعل ما تفعله سمية، ليس لأنّها مخطئة وإنّما لاختلافي عنها بتركيبتي النفسية.. بصراحة، أعتقد أنّ الحبّ ثابت، لكنّ الرجال يتبدلون!».

كنا قد تأقلمنا مع جثث الأموات، وزال الخوف والرعب اللذان منعاني خلال السنة الأولى من تناول اللحوم، واستطعت السيطرة على معدتي أخيراً، وصرت أذهب إلى «مقصف كلية الطب» بعد انتهاء المحاضرة، وأتناول شطائر السجق مع الشاي. ولم تكن مصادفة، في اعتقادي، أن نجد أمامنا باستمرار على الطاولة الملاصقة للباب الزجاجي المطل على حديقة المستشفى الجامعي، أربعة شبان من زملائنا يتناولون الشاي والشطائر، ويتحدّثون بصوت هامس. أحمد، وحسن، مصطفى، وصادق. في البداية لم أنتبه إلى نظرات صادق، لولا أن نبّهتني سمية مازحة: «هنيئاً لكِ هذا الفظ، وجهه لا يضحك للرغيف الساخن».

تساءلت ببراءة: «مَنْ تقصدين؟». قالت: «صادق، ألا تلاحظين أنّه يلاحقك بنظراته كيفما تحركتِ؟ في المدرّج، ومن وراء طاولة التشريح، وهنا، كلّما جئنا يأتي وراءنا». لم أكن قد لاحظت ذلك، وفوجئت فعلاً بكلام سمية، مع هذا نسيت الأمر بمجرد خروجنا من المقصف.

كنّا نتحرّك في الكلية كتلة واحدة، لا نفترق أبداً، في المحاضرات، في الكافتيريا، وفي المشرحة. فقط حين نخرج من الكلية نفترق، تذهب سميه باتجاه المدينة الجامعية، وجنان تستقل باص سيف الدولة، وسوزان تذهب في سيارة والدها، وأنا أنحدر في طريق كلية الهندسة، لأختصر الطريق مشياً إلى المشارقة. سمية كانت أكثرنا ميلاً لتضييع الوقت، واللهو، لم يكن يهمها كثيراً أن تنجح في جميع المواد، كانت تقول: «الحياة لن تنتظر حتّى أنهي دراستي، كي تفتح لي ذراعيها، لكنّ الدراسة يمكنها أن تأتي على مراحل! ولم يكن لديها مشكلة في عدم حضور المحاضرات كاملة، مع علمها أنّ ذلك سيؤثر على علاماتها. وكان مفاجئاً لنا جميعاً أنّ سمية، استطاعت الانتقال إلى السنة الثانية! وحملت معها أربع مواد. وحصلت سوزان على أعلى مجموع في دفعتنا هي وحسن! أحمد وآرام كانا في المرتبة الثانية، وجنان الثالثة، وأنا نجحت في جميع المواد من دون ترتيب!

برومو قاهر الدبابات

كلّما ولجت بوّابة من بوّابات مدن الشّمس أشعر أنّي ولدت هنا! تقودني قدماي إلى الجهة الغربية للبلدة، أتجاوز العمران، وأتوغل في السّهول الفسيحة، قاطعاً مسافات طويلة. تبرد النّسمات القادمة من جبل الأربعين حين أدخل بساتين الزيتون. أجلس في ظلّ شجرة، وأشعر بسكون غريب! تتلاشى أصوات البشر، ضجيج المدينة الصباحي، القذائف القادمة من معمل القرميد. وكلّ ما حولي ينبئ أنّ الزمن لا علاقة له بما يجري خارج محيط الشجرة.

كان صوت «أبو المقدام» يملأ فضاء الرّوح، وصورته لا تفارق عيني، أعرف هذه الحالة التي تتلبّسين حين أريد الكتابة عن شخص، أو عمل فيلم عنه، يسيطر عليّ حدّ التماهي، وأشعر أنّي أعيش في زمن غير زمني، ومكانٍ آخر غير ذاك الذي يحتوي جسدي.

فتحت حقيبتي، وأخرجت دفتر الملاحظات الصغير. القلم ينساب على الورق تلقائياً من دون أن أستطيع التحكم فيه، وكأنّ أصابع غير أصابعي تمسك به! لا أعرف كم ساعة مرّت، وأنا منكب على الأوراق،

لكنّ الشمس الّتي مالت عن وسط السماء نبّهتني إلى جسدي الذي تيبّس في وضعية الجلوس تلك.

وضعت القلم جانباً، ونهضت بصعوبة، حرّكت ساقيّ، وذراعيّ، ورقبتي. ثمّ حملت أشيائي، وقبل أن أمضي صوب المدينة، غيّرت رأيي، وجلست لأراجع ما كتبته. فوجئت بمحتوى الأوراق! من غير المعقول أن أكون أنا من كتب هذا. لا شكّ أنّه المثنى! تطلعت حولي بحذر، حدّقت في الطريق البعيد، داخل الشجرة، رفعت رأسي إلى السّماء. كلُّ شيء عادي، وهادئ، ولا ينبئ عن مرور أحد من هنا! ما الذي حدث إذن؟

التقطت صوراً كثيرة، عدّة صور للشجرة، للمدينة البعيدة جهة الشرق، للسهول الفسيحة في الجنوب، والشّمال. تابعت طريقي صوب عمود الإذاعة، أخذت صوراً في الاتجاهات كلّها.. عند تقاطع الطريق الصاعد شرقاً، المتجه إلى السّوق شمالاً، توقفت أمام صيدلية عند الزاوية، لا أدري ما الذي دفعني لتصوير المكان المزدحم بالنّاس، فالوقت ظهيرة، واليوم أحد، وهو يوم البازار الأسبوعي في المدينة.. لم تتوقّف الكاميرا عن التقاط الصور، وأنا في طريقي، متجولاً بين الحارات حتّى وصلت إلى البيت.

على الدرج في الظلّ، جلستُ، واستعرضت الصور كاملة. كاد قلبي يقع من مكانه لشدّة ذهولي وارتباكي. فوجئت بأشخاص وجوههم مألوفة لديّ، أعتقد أنّي رأيتهم قبل الآن.. بل أنا على يقين. أمام الصيدلية حيث توقفت، ظهرت في الصور الملتقطة خيمة كبيرة، وكان هناك شباب ورجال، يحتسون الشاي، ويغنون! بيد أحدهم طبل، إنّه هو لا يمكن لعيني أن تخطئه، كما عرفه القلب.. الشاب الصغير، حارس

الطريق! وبجانبه شاب آخر يصفق بحماسة وضحكته تملأ وجهه نوراً.. واكتمل المشهد بالمثنى، وهو يرفع كأس الشاي عالياً، وأصابع يده ترسم إشارة النصر!

كنت ألهث حين طرقت الباب، وناديت فضيلة، لم أستطع النطق بشيء، ناولتها الكاميرا، وطلبت منها أن تنقل الصور إلى الكمبيوتر، وتتأمّلها، وتقول لي ماذا ترى. حدّقت فيّ طويلاً، ظهرت عليها علامات القلق، والدهشة. أردت أن أقول لها، إنّي بخير، لم أستطع أن أنطق حرفاً. عدت للجلوس على الدرجات الخارجية للمنزل. شربت كأس ماء بارد أحضرته لي صاحبة البيت، وحاولت أن تفهم مني، إن كنت موجوداً في مكان انفجار البرميل صباحاً. لم أشأ أن أنفي ذلك... الوشيش ارتفع في أذنيّ حدّ إفقادي حاسة السّمع، رأسي كانت تلفّ، ودخان كثيف في الأفق يمنع عني رؤية ما حولي. كنت هناك مع المثنى، وهو يحكي قصته:

(على دراجتي الهوائية كنت في الصباح الباكر، أقطع الدّرب التّرابي الضيّق المؤدي إلى الحقول الخضراء، خلف الجسر الشرقي للمدينة. متعتي الكبيرة كانت في الاستلقاء بين الزرع، مستقبلاً السّماء الزرقاء الّتي تبسم شمسها بلطف في الصباحات الربيعية تاركة أنفاسها على خدّ شقائق النعمان التي تحرّكها نسمات خفيفة؛ فتعبق رائحتها في الأفق ممزوجة برائحة الأقحوان والسّنابل الغضة. ليس الربيع وحده ما يأسرني في هذه السّهول، فللصيف حضوره، حين تكتشف أسراب النحل طريقها إلى ماء سال بالصدفة من بطيخة حمراء تشقّقت في السّهل الفسيح. هنا وعلى أطراف البلدة الغافية بعيداً عن الضجيج،

استقرّ أجدادي. وإلى ترابها عادوا بعد أن صارعوا الحياة طويلاً، فمنحوها، وأخذوا منها ما استطاعوا؛ ولأجل هذا اخترت الانتساب إليها، فكلّنا سنعود إلى رحمها، وسيحضننا ترابها. ليس سيئاً أن تبدأ يومك من دون أن يكون لديك تصورٌ مسبق لما ستفعله؛ لأنّ ذلك يمنحك لذة اكتشاف ما يجري لك، ومراجعته مرّة أخرى بالحديث عنه بدهشة! هكذا كانت حياتي مليئة بالمفارقات المبهجة. فمن طبيعتي أن أجد في كلّ شيء يحدث لي شيئاً جميلاً يمكن أن يعطي للحياة نكهة مميزة. اليوم الذي بدأت فيه التخطيط للمستقبل، والتّفكير فيما سأفعله خلال السّاعات القادمة من النّهار، وتوقع نتائجه، هو اليوم الذي قرّرت فيه الالتحاق بالثورة. لم يعد هناك شيء يستطيع أن يدهشني، أو يبهجني، أو يأتيني على حين بغتة. ومع أنّ الحياة بهذه الطريقة المدروسة والمحسوبة مسبقاً لا تنسجم وطبيعتي، إلاّ أنّي وجدت فيها متعة فريدة، وهي تنفيذ الأفكار والمخططات بدقة متناهية، وتحقيق الهدف منها! لم يكن سيئاً ما توصلت إليه. بدأتُ رحلة الألف ميل بخطوة، وما زالت تلك الخطوة قادرة حتّى الآن على إدهاشي، ودفعي بمقارنتها بكلّ ما أنجزت من عمل أنا على يقين أنّه حقّ، وأمام الحقّ تهتز الجبال، وتركع.. لكنّي أيضاً أدرك جيداً «أنّ للباطل جولة».

وراء أجمة من أغصان الزيتون الّتي تزيّن قاعدة الصاروخ كمنت، على رأسي أغصان زيتون، وعيناي تراقبان الطريق بحذر. تباغتني صورة طفلي يبتسم، تلك الابتسامة الشفيفة ترهق روحي، أريد أن أبعد تلك الصور الأليفة عن عينيّ، لا أريد أن أرى سوى الطريق الذي

ستمرُّ منه قافلة المؤازرة. ظهرت أولى الدبابات على الطريق، واستمرّ الرتل يتقدّم أمام عينيّ. يدي الثابتة تقذف الصواريخ تباعاً، وتحصد الرتل القادم بنار تزداداً استعاراً لحظة بعد أخرى! وسط كلّ الركام الذي خلّفته ورائي، كنت قادراً، وأنا أدير ظهري لأغادر المكان، أن أرى ابتسامة طفلي تملأ الفضاء من حولي. لم أكن أدرك، وأنا في طريقي إلى القلمون، أنّها ستكون آخر معاركي، على الرغم من يقيني أنّ من يدخل الحرب، لن يخرج منها! لقد سقطوا قبلي، الداعور حارس الطريق، ومحمد حاف، وأنا سأذهب خلفهم.

لكنّي امتلكت أيضاً طاقة الأمل التي تجعلني أتمنّى أن أرى نهاية الحرب، وسقوط الطاغية.

بدأ الزحف صوب المستودعات 599، كان منظر الدبابات وهي تنفجر تحت وقع صواريخ التاو، مشهداً من الجحيم، رأيته، لكنّي لم أشعر بنشوة النصر! كان هناك شيء غريب يلحّ على روحي، ويسيطر على جسدي! ثمانون دبابة مدمرة، وخمسة وثلاثون غنمتها! حجم الخسائر والغنائم ارتبط بحجم ما أخسره من عمري، لم يكن الأمر متعلّقاً بالسنين، أو الأيام، ولا حتّى بالثواني بل بالإنجاز. كنت أشعر أنّه لم يتبقَ لي الكثير! سيطر هذا الشعور البغيض عليّ طيلة طريق عودتي من القلمون، الهواء حولي يفقد الأوكسجين، وصور أحبتي أكثر حضوراً، وأنا أنطلق مسرعاً لعلّ الموت يترك لي فسحة للقائهم! لم يكن الموت قريباً، فأنا خارج المعركة الّتي انتهت بانتصاري. مع هذا أشعر به ملازماً لي! لم تفارقني صورهم، رأيت في تلك الدقائق كيف رمى الداعور طبله، وتخلّى عن حلمه في تعلّم العزف على العود، وحمل

السلاح ليحمي الطريق من «اللصوص». ورأيت كيف قتل على يد عصابات اللصوص التي تشكّلت على هامش الثورة! كان محمد حاف حاضراً أيضاً بصوته الذي أجّج المظاهرات السّلمية في المدينة، وقتله النظام، حين اجتاح سراقب بالدبابات!

عندما اقتربت من حماة اعترض طريقي ملثمون من تنظيم الدولة الإسلامية، اقتادوني في الخلاء الفسيح مقيّداً، كنت أراه، ذلك المصور الذي يلتقط لي الصور، وفي عينيه انعكست صورة قاتلي! أمسك برأسي جيداً، وأركعني أمامه، كنت أشعر بنصل السكين يقترب، لامس معدنه البارد عنقي، وفي لحظات، رحت أركض في السّهول الشرقية.. صغيراً، وخفيفاً كفراشة، أحطّ على أزهار البطيخ، فنشكّل معاً لوحة الربيع المبهج. ألوان قوس قزح تبدو في قبة السّماء.. أحمر، وأزرق، وأصفر.. ولازوردي.. أندفع بقوة حصان في السّهل، أقطف البطيخ، أرتبه داخل سيارة نقل كبيرة، أرشف آخر ما تبقى في كأس الشاي، وأفتح زهرة القندريس؛ لأخُرج منها قلبها اللذيذ.. أناوله للطفل الذي يلاحق الفراشة، يمضغه على مهل، ويلوّح بيده الصغيرة مبتسماً، أحاول أن أمدّ يدي لأمسح على شعره، يغيب فجأة.. وترتفع أصواتهم مطالبة بالحريّة.. ها أنا حرٌّ أخيراً!)

حين انتهت فضيلة من رؤية الصور، ناولتني الكمبيوتر بارتباك، وهي تقول: «هل أخذت هذه الصور اليوم حقّاً؟ أليست منقولة من ألبوم أحد أصدقاء «أبو المقدام[19]»؟ أنا مرعوبة بالفعل من فكرة أن تكون الصور حقيقية، وأن تكون حقّاً قد التقيت به». قلت بهدوء: «لم ألتقِ

(19) أبو المقدام السراقبي، المعروف بقاهر الدبابات.

به، هذه الصور لي، التقطتها لنفسي أثناء مشواري هذا الصباح، تاريخ الصور موثق لديكِ. كنت على يقين طيلة وجودي في السّهل أنّي لم أكن وحيداً! وأنّه يلازمني كظلّي. انظري جيداً إنّه أنا!».

أنا على يقين أنّ الشخص الذي ظهر في الصور هو جزء مني حتّى استطاع احتلال ملامحي، ولم يكتفِ بذلك، صرت أشعر بنبضه، بدقات قلبه داخل صدري، بأحداث غريبة تعبر ذاكرتي، لم يكن من المنطقي أن تكون من ماضيّ، إن شئت أن أحسب الزمن الحقيقي لوجودي في سوريا!

بين طرفي الرحى

وكأنّنا لم نفترق كلّ ذلك الزمن، عادت علاقتي مع سوزان أقوى من قبل، وأكثر حميمية، وفي جلسة بوح، حكت لي عن تفاصيل عملها في ريف حلب، تلك الأشياء التي رفضت الحديث عنها سابقاً، لأنّها كانت تشعر بالقهر والعجز والصدمة. لم تشأ في البداية أن تتحدّث عن حبيبها الذي انتظرته طيلة فترة دراستها للطب. كان الموقف في منتهى البشاعة والخذلان. أحياناً ترفض أن تصدق ما رأته، وأحياناً تحاول إقناع نفسها، أنّ كل ذلك مجرد كابوس، ستصحو منه يوماً، لتجد نفسها في بيتها على شرفة أمّها.. أمام شجرة الغاردينيا.. والمساء دافئ ورطب، ومن المطبخ تسمع صوت أمّها تدندن «أوّل عشرة محبوبي هداني خاتم ألماس» ورائحة الكبة تداهم الشرفة، وتستنفر عصارة معدتها. هل يمكن أن يحدث ذلك؟ كانت تشعر أنّها بحاجة لأن تنزل الحمل عن كاهلها بالحديث عنه لشخص ما. وأنا خير من يستمع إليها، ويحفظ سرّها. كتبت إليّ: «سأقول لك شيئاً، اعتبريه إحدى الروايات التي تقرئينها، ولا يبقى في ذهنك منها شيء لرداءتها. نعم، هي حكاية رديئة جداً؛ ويؤسفني أنّها حكايتي.

حين غادرنا حلب في طريقنا إلى غازي عنتاب.. أوقفنا في الطريق بعد حوالي 20 كيلومتراً، حاجز للجيش الحر، وطلب منا أن نقوم بإسعافات أولية لبعض المصابين! نزلنا من السيارة، سأقول لكِ بكلِّ صراحة إنّي لم أكن أعرف شيئاً عن حصار نُبّل والزهراء، سمعت بهما من الإعلام أثناء الثورة، اكتشفت كم هي معلوماتي في الجغرافيا فقيرة، ليست فقيرة فقط، بل معدومة للأسف.. حتّى داخل حلب، يوجد مناطق وحارات وأسماء لم أسمع بها إلاّ بعد الثورة! زرت بعض الأحياء القديمة، والقلعة، كما يفعل السائحون. تنازلت، وجلست مرّة في المقاهي المكشوفة مقابل بابها العظيم. عدا ذلك لم أكن أعرف حلب، حتّى شككت بانتمائي إليها! حين دخلنا المستشفى الميداني الذي أنشأ على عجل، رأيته. اختلط عليّ كلّ شيء، مشاعري اتّقدت فجأة ناسفة ثلاثة عقود من حياتي! كنت أشعر بخفة خطواتي، بخفة يدي، وهي تخرج الرصاصة من ساعده، وتضمّد جراحه، كلُّ ما فيّ كان يرتعش. لكنّ المفاجأة أنّه كان يتحاشى النظر إليّ، وحين يضطر، كانت نظرته حيادية باردة، بل كانت صاعقة. نعم، كانت نظرة غريبة جداً، لم أستطع تفسيرها! في البداية كنت أظنّ أنّي أسعف أفراداً من الجيش الحرّ، لم أميّز انتماء ملابس الجنود، مع أنّه أثار استغرابي هو وثلاثة التزموا الصمت تماماً أثناء علاج الفريق لهم. قبل أن أتكلّم لأزيح عن كاهلي ثقل الصمت، لاحظت العصابة على جبينه مكتوب عليها «يا حسين». أخرستني تماماً، ولم أستطع أن أنطق بكلمة. نعم، لم أستطع أن أقول له، «الحمد لله على سلامتك» أو «تراك تذكرني.. أنا...» قبل أن أصل باب الغرفة، سمعت صوته: «ليتكِ لم تفعلي، كي لا أكون

مديناً لكِ» ارتجف قلبي، ولم ألتفت. كيف يفكّر؟ لم يكن ممتناً لأنّي أنقذته! ألهذا الحدّ تصل الكراهية النابعة من المعتقد؟! هل كنت غبية إلى درجة أنّي أحببت شخصاً متعجرفاً، وقاتلاً؟ حين خرجت من الغرفة، سألت أحد المقاتلين الذين طلبوا منا المساعدة: «من هؤلاء الجرحى؟». قال لي: «وما يهمك يا سيدتي سوى القيام بعمل إنساني؟». قلت له: «يهمني بشكل شخصي، لو سمحت أن تخبرني». قال لي: «أسرى من حزب الله، ونُبّل، وإيران، كانوا يقاتلوننا في الطريق المؤدي إلى نُبّل والزهراء». فتحت فمي دهشة، سألته، لماذا تعالجونهم؟ خاصة الإيرانيين! قال لي: «لدينا معتقلون يموتون تحت التعذيب، نريد إخراج عدَد منهم بصفقة تبادل، النّظام لا يبادل إلاّ على الإيرانيين، وبعض الشيعة من حزب الله. أمّا جنوده، فلا فرق لديه، ولو ذهبوا إلى الجحيم؛ وهؤلاء يذهبون إلى الجحيم حقّاً، لا أحد يهتم بإحصائهم، ولا معرفة مكان دفنهم».

بعد ذهابنا، علمت أنّهم بادلوا عليهم بعدَد من المعتقلين لدى النّظام، لكنّي لم أشعر بالفرح! هو حرٌ مرّة أخرى، وسيعود للقتال بطاقة أكبر على الكراهية، وبتصميم أكبر على النصر. مع هذا لم أستطع أن آخذ موقفاً متشدّدًا من الأهالي. رأيت بالفيديوهات التي بثها إعلاميو لواء التوحيد كيف التفوا حول العميد خضور الذي اعتمد عليهم في السّيطرة على مطار منغ العسكري، سمعت هتافهم، رأيت كم الحقد، رأيت، وسمعت، كيف يتحوّل البشر إلى وحوش. لكنّي أيضاً أقف عاجزة وخرساء أمام اللافتات التي يرفعها أطفالهم المحاصرون. ما ذنب الأطفال ليكونوا وقود الحرب، ويموتوا جوعاً؟ لا تقولي لي

أطفال اليرموك، والغوطة يموتون جوعاً أيضاً.. أنا أعرف ذلك؛ ولأنّي أشعر كم هو مؤلم أن يموت طفل في مخيم اليرموك جوعاً، أو في الغوطة.. أحسّ بألم أطفال نُبّل والزهراء. سأكون صادقة معكِ، هذا الإحساس تلاشى تماماً بعد شهرين من العمل في الريف الشمالي، عندما اختُطف عبّاس! كنّا مجموعة أطباء عائدين من حلب. فجأة ومن دون أن نرى شيئاً مريباً على جانبي الطريق هبط مسلّحون، واعترضوا طريقنا، وكأنّهم نزلوا من كوكب آخر! أنزلونا من السّيارة، وعصبوا أعيننا، وقادونا مسافة ربع ساعة، في أرضٍ خلاء، لم يعرف أحدنا الاتّجاه، وكنت الوحيدة بينهم ابنة حلب، مع هذا لم أعرف شيئاً عن جغرافية المكان، ثلاثة من المسلحين الملثمين، كانوا يتحدّثون لغة غريبة، اكتشفت فيما بعد أنّها الفارسية، واثنان كانا يتحدّثان العربية بلكنة لبنانية. مع هذا عرفت صوته! لم أكن أراه هذه المرّة، لم ألمح نظرته الباردة، لكنّي عرفت صوته. كان يقول لصديقه همساً «لنطلق سراحهنّ، لا شأن لنا بالنّساء، ثمّ نحن معنيون باعتقال الطبيب البريطاني فقط». الثاني ردّ بعصبية: «لكنّهن سبايا، ألا تريد أن تتمتّع بإحداهن؟». قبل أن يجيب، دخل الغرفة أحد «الغرباء»، الذين يرطنون بالفارسية، وسأل: «أيّهم عبّاس؟». سحبه خارج الغرفة الّتي حُشرنا فيها مع معتقلين آخرين. في صباح اليوم التالي، أخذوا طبيبة شابة أجنبية، وبقينا ثلاثة أطباء عرب. لم يكن حظاً طيباً ذاك الذي رماني في طريقه مرّة أخرى، لم أكن أريده أن يردّ الدين لي، صدّقيني، كنت أفضّل الموت، على أن يُطلِق سراحي. ويبدو أنّ الله استجاب لأمنيتي، فقد سمعنا صوت اشتباكات استمرّت لساعات،

استولى بعدها مسلّحون من لواء التّوحيد على المقر، وأطلقوا سراحنا، وأوصلونا إلى إعزاز. بعد أشهر علمنا أنّ عبّاس موجود في سجن عدرا، وأنّهم سيفرجون عنه قريباً. الخبر أفرحني، وفكّرت بشكلٍ جدي بالعودة إلى سوريا. لكنّ النّظام نقل عبّاس إلى فرع الأمن ثانية، بعد مجيء والدته إلى سوريا، ثمّ أشاعوا أنّه انتحر! لا يمكن لعباس أن ينتحر أبداً، كان يملك روحاً حرّة، وطاقة على الحياة لا يملكها سواه، فكيف ينتحر؟! لقد قتلوه، اعترفوا بكلّ وقاحة أنّهم قتلوه.. قتلوا طبيباً بريطاني الجنسية، فقط لأنّه كان يقوم بعمل إنساني خالص، لقد قتلوه.. أتفهمين معنى ذلك؟ ما يجري في سوريا لا يمكن أن يصمد أمامه عقل أبداً، ليس غريباً أن يصاب النّاس بالجنون». قلت: «معك حق، ليست المشكلة في هؤلاء الذين لا تعرفينهم، بل بمن عشتِ معهم زمناً طويلاً، وظننتِ أنّك تعرفين كلّ شيءٍ عنهم، ثمّ كشفت لكِ الثورة مدى جهلكِ.. مذبوحة أنا، ولا أجرؤ على الكلام، صدّقيني خيبتك ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة، وهي لا ترقى إلى الفجيعة، فلم تكن علاقتك به عميقة، أنا أصلاً لا أسميها علاقة، هي معرفة فقط». قالت سوزان: «بمن فجعتِ، حتّى تقولين لي هذا؟». تنهّدتُ: «تذكرين سمية؟». قالت سوزان: «طبعاً، كيف لا؟ تلك المحظوظة، التي أحبّها معظم شباب دفعتنا، ما أخبارها؟ أتعرفين عنها شيئاً؟ أنا لم أسمع عنها، ولم ألتقِ بها، بعد تسجيلها في كلية الآداب، لكن سمعت أنّ زميلنا صادق خطبها، وتزوجا بعد التخرج. عرفت كيف تصطاده، هي ذكية في الواقع، وتعرف من أين تؤكل الكتف، تزوجت شاباً سيرث عن والديه عقارات وأراضي كثيرة؛ لأنّه وحيدهما. ما حكايتها؟».

الصندوق الأسود

ارتباطي بسمية كان في مرحلة الضياع التي عشتها عقب مقتل أبي وشقيقتيّ، وعلى الرغم من قوة تأثير تلك العلاقة، ونتائجها التي تركت بصمات سوداء في روحي، إلاّ أنّها أوّل شيء نسيته في الغربة، وتخلّصت منه نهائياً.

في بداية السنة الرابعة، التقيت سمية في مقصف الكلية، كانت بصحبة صادق! اقتربت، وسلّمت عليهما، وسألتها عن أخبارها، فقالت لي إنّها تركت كلية الطب، وسجّلت في كلية الآداب هذه السنة! ومدت يدها لتريني خاتم الخطوبة، قائلة: «باركي لي، لقد خطبت». باركتُ لها، ولم أسألها عن سعيد الحظ، فقد كان واضحاً أنّه صادق! الفظ الذي كان يلاحقني بنظراته أينما ذهبت! لم أسألها كيف ومتى لكنّ سمية كعادتها، لم تشأ أن تفوّت فرصة رواية قصّتها الجديدة لي، فسألتني أين أسكن، كي تأتي لزيارتي. وفعلاً جاءت سمية بعد يومين، وأصرّت أن تدعوني إلى الفطور، وهمست لي، بأنّها تريدني على انفراد، فهي لا تحبُّ أن تتحدّث بوجود البنات اللواتي يشاركنني السكن.

نزلنا إلى الشارع، واشترينا فطائر من عند «أبو حنا»، وتمشينا حتّى الحديقة العامة، وهناك جلسنا على مقعد، وأكلنا، ولم تتوقّف سمية عن الحديث أبداً. لم أكن أعرف من أيّ بلدة هي، فقط عرفت أنّها من ريف إدلب. أخبرتني أنّها من قريّة اسمها «الفوعة»، وأصرّت أن أذهب لزيارتها. لم أتشجع للذهاب إلى هناك، لكنّي وافقت على حضور حفلة يقيمها أصدقاؤها كلّ شهر في بيت أحدهم، قالت لي: «سأمرُّ عليكِ، ونذهب سوياً، كي تخرجي من هذا السّواد قليلاً».

التقيت سمية حسب الموعد، وذهبنا إلى الحفلة، لم تكن في بيت أحدهم، كما قالت لي، بل في صالة ديسكو، وكانت هذه المرّة الأولى في حياتي التي أحضر فيها حفلة مختلطة! عرّفتني على الأشخاص الموجودين، كان بينهم أختها وخطيبها، والحفلة، كما قالت لي، بمناسبة عيد ميلادها. من كلّ الموجودين عرفت اثنين فقط صادق، ومصطفى، والبقية كانوا أصدقاء سمية في كلية الآداب، أو جيرانها، لا أعرف صلتهم بها بالضبط. كنت غريبة وسط ذلك الجوّ. حين جاء النادل يسألنا ماذا نشرب، لاحظت أنّ الجميع طلب مشروباً، شعرت بالحرج، لم تكن هذه الأجواء تناسبني أبداً، طلبت عصير ليمون، وكأنّي ألقيت طرفة أضحكت جميع الموجودين حول الطاولة، تبرعت سمية بسرعة لتطلب بالنيابة عني، كأس «جن» قالت لي: هذا المشروب ليس فيه كحول! الشباب نهضوا بعد قليل، ليرقصوا. سحبتني سمية من يدي، اعتذرت؛ لأنّي لا أعرف الرقص. خلت الطاولة، إلاّ مني ومن مصطفى، هو الوحيد المدعو من دون صديقة! ولم أعرف حينها أنّ الأمر كان مرتباً من قبل سمية! طلبني للرقص، فاعتذرت. نهض من مكانه،

وجلس بجانبي، سألني، لماذا جئت إلى هنا، إن كنت لا أعرف الرقص، ولا أشرب؟ قلت له ببساطة: «لم أكن أعلم أنّي آتية إلى هنا! سمية دعتني إلى حفلة في بيت صديقة لها، لم تخبرني أنّ الحفل في صالة ديسكو، أنا لا آتي إلى هذه الأماكن». كانت نبرة صوتي عالية، وحادة. مدّ مصطفى يده وأحاط بكتفي، وهمس قريباً من أذني، اسمحي لي، هذه الرقصة لا تحتاج إلى علم، أنا سأوجّه خطواتك».

نهضت من دون تردّد، لم أفهم الدافع الذي جعلني أستسلم، كان رأسي يدور، وضعته على كتفه، ولم أعرف أين أضع يدي، أخذ ذراعيّ، ووضعهما حول عنقه، وغمس فمه في شعري. لا أعرف متى انتهت الرقصة، ولا ماذا فعلت. سمعت صوته كما لو أنّه آتٍ من عالم آخر: «أرأيتِ كم هي سهلة، فقط التصقي بي أكثر».

انتهت الحفلة بعد منتصف الليل، سمية دعتنا لإكمال السهرة في البيت. لم أعرف أنّ سمية قد استأجرت بيتاً! فوجئت حين وصلنا حي «الزبدية» أنّ البيت واسع، ولا يوجد فيه أحد. الشباب اقترحوا أن يصنعوا عشاءً خفيفاً، ويتفرجوا على فيلم. أخرج صادق شريط فيديو، وضعه في الجهاز، وشغّل التلفاز. لم أكن أحبّ مشاهدة الأفلام، فجلست بعيداً في زاوية منفصلة. أغمضت عينيّ قليلاً، وشعرت بيدٍ تتحسّس عنقي، نهضت واقفة من الفزع، رأيت مصطفى يبتسم، والباقي يضحكون على الفتاة الريفية الساذجة!

ذهبت إلى المطبخ، واستأذنت من سمية، لكنّها أمسكت بيدي، وقالت: «مجنونة، كيف ستذهبين لوحدك؟ لا يمكن أن أتركك، نامي هنا، في غرفتي إن كنت منزعجة من الشباب».

دخلت غرفتها، واستلقيت على السرير، تلاشت الأصوات تدريجياً، ويبدو أنّي غفوت. أيقظني صوته، ويده تهزني: «ألستِ جائعة؟ العشاء جاهز». انتفض جسدي، نظرت في وجهه وسط العتمة، كان هناك شيء يجذبني إليه، لا أفهمه. قلت: «لست جائعة، أريد أن أنام لو سمحت». قال: «وأنا أيضاً». واندس بجانبي. في تلك اللحظات رأيته وأنا مغمضة العينين، اخترقت مسامات جلدي رائحة عطره المميزة، وانسابت أنامله على عنقي عازفة على أوتار الشهوة، وأحسست بشفتيه جمرتين تتّقدان، وتشعلان حرائقي. همست: «آرام». جاءني صوته غريب النبرة «حبيبتي»! شئت أن أصدق أنّه هو. وشاء أن يتغاضى عن هفوتي بمناداته باسم رجل آخر. تواطؤ غريب، أشعلنا، وأطفأنا تلك الليلة، لا يمكنني تسميته حبّاً، ولم أهتم بالتسمية التي أطلقها مصطفى عليه، لكنّي عشته بكلّ حواسي، ولم أشعر بالندم!

بعد تلك الليلة، توثّقت علاقتي بمصطفى، لكنّها لم تأخذ طابع العشق، مع هذا صرنا نلتقي يومياً في الأماكن العامة. نتغدى في «الجناح» أو «الكوخ»، ونتمشى في الحديقة، وندخل السينما، وصار حاجة يومية لا غنى لي عنها، أحتاجه كما الطعام، أو ربّما كما الماء!...

أخبرني أنّه هو الذي طلب من سمية دعوتي تلك الليلة، وأنّ أكثر شيء أعجبه فيّ أنّي لا أجيد التقبيل! عرفت حينها لمَ اختارني، شعرت بقسوة ما قاله، فقد جرحني عميقاً. ولم يمضِ على علاقتنا سوى شهرين، حتّى عرفت بأنّي حامل، حين أخبرته، أصرّ أن أسقط الجنين؛ لأنّه لا يفكّر بالزواج حالياً، وحين رفضت، قال لي: «أنا لم أعدك بشيء، ولن أستطيع الزواج منك. ظننت أنّك فهمتِ طبيعة العلاقة

بيننا، أو أنّ سمية شرحت لكِ طبيعة العلاقات بين أفراد شلتها».
سمية لم تشرح لي، وأنا كنت غبية، أعترف أنّي كنت غبية إلى درجة لم أفهم فعلاً طبيعة العلاقات التي يعيشها أفراد الشلة، وكثيرون مثلهم، يدّعون التحرّر، ويلصقون كلّ أخطائهم وعقدهم بالمفاهيم الماركسية.
انقطع مصطفى عن رؤيتي، ولم يكن أمامي حلٌّ سوى إسقاط الجنين، لجأت إلى سمية، أخبرتها بكلّ شيء، وبأنّي لا أملك مالاً، طمأنتني، وقالت: لا تهتمي، سأدبر كلّ شيء، النذل، لم أكن أظنّه كذلك، لقد تملّقني كثيراً حتّى أكون واسطة بينكما».
ذهبت معي هي وصادق إلى عيادة طبيب أرمني غير معروف، في السليمانية. بقيا معي طيلة الوقت حتّى صحوت من البنج، وأخذتني سمية إلى بيتها. في المساء جاء مصطفى ليطمئن عليّ، وحمل إليّ باقة وردا! استفزني تصرفه، حتّى تمنّيت لو أستطيع صفعه، وطرده، لكنّي سيطرت على أعصابي، وأخذت منه الورد بهدوء، ولم أكلمه كلمة واحدة، كان يتحدّث لوحده، ويلقي النكت، ويضحك، وأنا صامتة، صمت القبور. وقتها اتّخذت قراري بمغادرة البلاد، خاصة، وأنّي لم أنجح في مواد الفصل الأوّل، ومعي مادتان من السنة الثانية.
بقيت مدّة أسبوع أعاني من الألم، والنزف، وسمية لم تتركني، بل هي التي عرّفتني على الشاب الجزائري صديقها، وأيضاً دفعت لي تكاليف السّفر، وقالت لي: «لا تشعري بالحرج، اعتبريهم دين، وستردينه لي متى وجدت عملاً هناك».
لم أكن بحاجة أن تسألني سوزان عن ابنتيّ كي أشعر بالألم الذي أحاول الانشغال عنه بالبحث، والركض وراء سراب الشائعات الّتي

تصلني عن مكان وجودهما، وكلّ ما أمسكت طرف خيط سيوصلني إليهما أكتشف أنّه سراب!

حادثة اختطاف

حين أخبرتني آناتا وأنتونيتا، أنّهما تنويان الذهاب إلى سوريا، انقبض قلبي، لم يعد الأمر مجرد رغبة بل قرارٌ لا يمكنهما التراجع عنه! عندما عادت آناتا من الهند، استقبلتها، وكأنّها كانت في رحلة استجمام، لم ينشغل بالي من إمكانية تعرّض الصبية لأيّ خطر. لكن سوريا! كان الأمر غير مقبول في نظري. وعلى الرغم من معرفتي أنّي لا أملك سلطة تمنعهما من الذهاب، وأنّهما ناضجتان بما يكفي لاتّخاذ قرارهما من دون مشورتي، إلاّ أنّي حاولت، وبشتى الطرق، أن أشرح لهما خطورة ما تقدمان عليه، خاصة بعد ما رأيته برفقة خوان. لكنّ الفتاتين كانتا مقتنعتين بالهدف الذي تسعيان إليه، وزاد إصرارهما بعد أن تعرّفتا على ناشط من ريف حلب، طلب منهما معدات طبية للمشافي الميدانية بالريف الشمالي. ما جعلني أوافق على مضض رسالة من لورينزو، يخبرني أنّه موجود عند «الحجي» بالابزمو، وأنّه يكاد ينهي مشروعه الذي جاء من أجله. المفاجئ في الرسالة أنّ لورينزو أخبرني بأنّه متواطئ مع آناتا وأنتونيتا، وسيكون سعيداً بمجيئهما إلى سوريا، فالتّجربة

تستحق. وطلب مني ألا أقلق عليهما؛ لأنّهما ستكونان برفقته».

لم يمضِ أسبوعان على سفرهما، حتّى فوجئت بخبر اختطافهما من جهة مجهولة. لم أشأ أن أصدق الخبر. كتبت للورينزو أسأله عن الحقيقة، لم يرد، حاولت الاتّصال به، من دون جدوى، الهاتف دائماً خارج التغطية. أخيراً وجدت رسالة منه، يقول فيها، إنّه سيستقبلني عند المعبر حال وصولي.

طيلة الوقت كنت أشغل نفسي بفكرة واحدة، أنّهما ذهبتا في مهمة سريّة، وأنَّ خبر الاختطاف للتغطية على مكان وجودهما! صرت أخترع أشياء أنا على يقين أنّها ليست الحقيقة، لكنّها تلهيني بعض الشيء عمّا يجري في الواقع. حتّى اللحظة التي ركبت فيها السيارة بجانب لورينزو، واتجهنا إلى القاهرة. كنت أظنّ أنّي لم أغادر سوريا أصلاً، ولم أذهب إلى إيطاليا، وأنّ ابنتيّ ما زالتا هناك في البيت بانتظاري. هزّني صوت لورينزو حين قال: «الحكومة الإيطالية لن تسكت على اختطافهما، اطمئني، أنا متأكد أنّ عملية الخطف هدفها المال فقط.. وسيطلب المختطفون فدية خلال زمن لن يتجاوز الأسبوع، عليك فقط أن تتماسكي، وأنا على ثقة أنّك قادرة على ذلك، أمامنا رحلة طويلة لنصل إلى حلب».

لم يكن حلماً ما رأيته أثناء غفوتي، بل هواجسي التي تسيطر على عقلي في صحوي ومنامي، جعلتني أرى آناتا وأنتونيتا طفلتين، أحمل كلّ واحدة منهما بيد، وأضعهما في جرن العماد، فتغرقان كلتاهما. أمدُّ يدي داخل الجرن، وأنا أصرخ، ولا أجد أثراً لهما! عندما رفعت كفيّ الفارغتين من الجرن، كانتا تقطران دماً! صحوت فزعة، ولم أستوعب

مباشرة وجودي في سيارة، ولم أعرف أين أنا بالضبط.

ناولني لورينزو قنينة الماء، وسألني ماذا بي؟ لم أرد، كنت أراقب الطريق، وقلبي يخفق بشدّة.. «أين نحن؟». سألت باستغراب. أجاب السائق: «اقتربنا من الفوج 46، لم يبقَ الكثير لنصل» سألت: «ماذا تعني؟ أين نذهب؟» قال لورينزو: «نحن في الطريق إلى «الابزمو» ماذا حدث؟ بمَ تشعرين؟» تمتمت «لا شيء، لا شيء، ربّما التبس عليّ الأمر، لم أعرف الطريق». لم يصدق لورينزو ما قلته، فقد مررنا من الطريق نفسه منذ أسبوع.

وصلنا «الابزمو» قبل الظهر بساعة. ونزلنا مباشرة أمام بيت الشاب صديق آناتا وأنتونيتا، كنت آمل أن أمسك طرف الخيط الذي سيقودني إلى مكانهما بعد التحدّث إليه. مرّة أخرى أنكرت أمّه وجوده، وأنكرت معرفتها بمكانه. سألتها إن كانت تعرف الفتاتين، أو رأتهما بصحبة ابنها، فأنكرت ذلك. ثمّ قالت بحدّة: «لماذا تريدين توريط ابني في أمر لا علاقة له به؟ ابني يعرف الله، ومتمسك بتعاليم الدين، وليس له صديقات. أستغفر الله العظيم، ابحثي عنهما في مكان آخر». تمالكت أعصابي، وقلت: «هل تستطيعين إرشادي إلى المكان الذي يجب أن أبحث فيه؟» لم تتوقّع المرأة هذا السؤال، ولكنّها قالت على الفور.. «ربّما الحجي يستطيع إخبارك، أنا لا أعرف شيئاً».

استقبلنا ابن «الحجي» ببرود. نظر في عيني لورينزو مباشرة، وكأنّه لم يره من قبل. مدّ يده ليصافحه بطريقة مستفزة. ارتعشت شفتا لورينزو، وهو يقول: «ألم يرجع والدك؟». قال الشاب باستخفاف: «وما أدراني؟ هل أنا وكيل أعماله؟».

كدت أفقد أعصابي، حين استدار الشاب ليدخل إلى البيت، من دون أن يدعونا للدخول، أو يهتم بما جئنا من أجله. قلت باستياء: «هكذا تستقبلون الضيوف؟ لكن ليس الأمر غريباً عليكم، فمن يترك ضيوفه يختطفون من بيته يتصرّف بفظاظة مع كلِّ الناس، يا حيف بس».

ردّ بلا مبالاة: «أنا ما كنت موجود يا خالة، ما بعرف شيء عن الموضوع». واستدار داخلاً إلى البيت، وصفق الباب خلفه. كان لورينزو في تلك اللحظة يستند على السياج الحجري للمدخل الخارجي. شعر أنّ الباب ارتطم بوجهه، وأنّ الصفعة وجّهت إليه بشكل شخصي. رمى سيجارته، وفتح الباب الحديدي، وارتقى الدرجات بخطوات واسعة، وطرق الباب بعنف.. لكنّ أحداً لم يفتح! التفت، فوجدني قد لحقت به، سحبته من يده، وأنا أقول: «لن يردوا عليك، لو كانوا أشرافاً ما فعلوا ذلك».

رجعنا إلى بيت الشاب «الناشط» الذي اتفق مع الفتاتين للمجيء إلى سوريا. قبل أن أطرق الباب، ناداني شابٌ من الشارع المقابل. التفتُّ، فأشار إليّ لأعبر الطريق إلى حيث يقف. عبرت الطريق مع لورينزو. سلّم الشاب علينا، وقال: «تفضلا معي إلى البيت، عندي ما أخبركما به».

الشاب الذي قدّم نفسه إلينا باسم مستعار «أحمد» طلب منا عدم الحديث عن لقائنا به مع أيّ كائن في البلدة، وأخبرنا أنّه على علم بكلّ التفاصيل. فقد اتفق الناشط «إبراهيم» مع الفتاتين عبر الفيس بوك، وكان قد قبض ثمنهما من «الحجي» قائد المجلس الثوري، وسلّمهما إليه فور وصولهما. وقد قام باستقبالهما عند معبر باب الهوى، ورافقهما بسيارة خاصة، مع صديقه «أبو حمزة» إلى المدينة.

وكان هناك صحفي إيطالي برفقته، سهرا في بيت قائد المجلس الثوري الذي باع الفتاتين بدوره بمبلغ أكبر إلى جهة مجهولة، يُعتقد أنّها داعش، ومسألة الاختطاف من قبل مسلحين كانت مجرد تمثيلية لذر الرماد في العيون. أشيع على إثرها أنّ المسلّحين كانوا بصدَد اختطاف الصحفي الإيطالي الذي تمكّن من الهرب، ولم يجدوا أمامهم غير الفتاتين، فأخذوهما. حدّق لورينزو في عينيه، وسأله: «هل تعرفني؟». نفى الشاب معرفته به. قال لورينزو: «أنا من كان برفقتهما تلك الليلة. حادثة المسلحين حقيقة لا يمكن إنكارها، وكنت حقّاً المستهدف، وقد هربت، قبل اقتحامهم المجلس بلحظات». سأله الشاب باستغراب: «ألم تَرْتَب بالأمر؟ غريب أن تكون صحفياً، ولم تنتبه إلى أنّك لم تكن مقصوداً بعملية الاختطاف؛ لو كانوا يريدون اختطافك، كانوا يستطيعون التربص بك، وأنت خارج من المجلس، وبمنتهى الهدوء، والسريّة، ومن دون أن يلفتوا الانتباه إلى وجودهم بإطلاق الرصاص».
تذكّر لورينزو لحظات هربه بدقة. الشاب على حق، الفصيل المسلّح الخاص بالحجي كان خارج القرية.. قالوا يومها، إنّهم كانوا في معركة داخل حلب. البيت لا يوجد عليه حراسة خاصة، مع أنّ الحجي اعتاد أن يكون ثلاثة من مرافقيه في حالة استعداد دائم أمام بيته! إبراهيم الذي استضافهما، ورافقهما من معبر باب الهوى في سيارة خاصة إلى «الابزمو» انسحب في بداية السهرة، بحجة أنه أصيب بوعكة في معدته! آناتا وأنتونيتا كانتا تحملان معهما ثلاث حقائب ملأى بالمعدات الطبية، وكان مقرراً أن توزعاها على المشافي الميدانية في الريف الشمالي. الحقائب لم تصل إلى بيت الحجي، بقيت في عهدة إبراهيم!

تساءل لورينزو بصوتٍ مسموع: «فعلاً، أنت على حق.. لماذا أطلقوا أعيرة نارية قبل الاقتحام؟».

أسد الله

لم أكن قد غفوت عندما هزتني يد لورينزو بقوة، وهو يناولني هاتفي النقّال: «مكالمة لكِ». نظرت إليه باستياء، كنت بحاجة لساعات طويلة من النوم؛ كي أستعيد نشاطي وصفاء ذهني.. لكنّ المتحدث على الهاتف جعلني أنهض بسرعة، وأصحو تماماً. أجبت باختصار على عدّة أسئلة تخص الفتاتين، وقلبي يخفق بقوة. أغلقت الهاتف، أغمضت عينيّ، وتمتمت: «يا رب». سألني لورينزو بلهفة: «هناك أخبار جيدة؟ من المتصل؟». فتحت عينيّ، اغتصبت ابتسامة، وقلت: «أسد الله حمزة». سأل باستغراب: «من يكون؟ ماذا قال لكِ؟». «قال لي، إنّه سيسعى ليجمعني بأمير المؤمنين، وسيتوسط لي عنده، كي يخبرني بمصير ابنتيّ». أعاد السؤال بصيغة أخرى: «هو أبو حمزة نفسه الذي حدّثتني عنه سابقاً؟» قلت: «نعم.. هو.. تعرّفت عليه في بداية الثورة عن طريق الفيس بوك. كنت وقتها قد نشرت صورة لي، وبجانبي آناتا وأنتونيتا، في وقفة أمام السفارة السورية في ميلانو.. أرسل لي طلب صداقة، ورسالة على الخاص يكبر فيّ روح الثورة، والإخلاص للوطن،

والحريّة. وقبلت الإضافة. ثمّ دارت بيننا محادثات طويلة. لم تمضِ أشهر قليلة، حتّى عرفت عنه كلَّ شيء، كما عرف عني أيضاً، لا أنكر أنّه قد حدث بيننا استلطاف، على الرغم من فارق السن الكبير! لكن، أنت تعرف العلاقات الافتراضية تتجاوز الواقع بمسافات كبيرة، ما دامت في إطار الافتراض». سألني لورينزو باستغراب: «هل كنتِ بحاجة لعلاقة افتراضية، والواقع متاح أمامك؟ أمر غريب حقّاً.. لا شكّ أنّك تعانين من خلل عاطفي!». قلت باستسلام: «ربّما، فأنا لم أعتد على تحليل تصرفاتي، ورغباتي، وتقييمها. أتصرّف بحريّة مطلقة، ومن غير قيود».

سألني: «ماذا تعني الحريّة لك؟».

قلت: « ماذا تعني الحريّة لي؟ أصدقك القول، إنّي لم أفكّر بشكل جدي في الأمر، غالباً أعيش الأمور بكلّ احتمالاتها، وتقلباتها، من دون أن ألجأ إلى تحليلها، ومعرفة مقدماتها، ونتائجها، وأسبابها، بالمطلق لا أحبُّ تحليل أيَّ أمر أرغب بالقيام به. هكذا رأيتُني مندفعة لممارسة الرفض لكلِّ قمع يمارس على الشّعب السّوري، من مبدأ أن هذا ما يجب أن أفعله. أليس رفض ما هو غير إنساني حريّة؟».

قال: « لست مثلك، لقد قضيت حياتي مستعبداً؛ لذا يهمني جداً أن أفهم معنى الحريّة، وأتمسك بحقي في ممارستها. قد لا تصدقين أنّي مارستها منذ صغري. كنّا مجموعة أولاد وبنات، نلعب في السّهل المحاذي للطريق العام... هناك على أطراف الحقول، كنّا نطيّر أحلامنا، وأمانينا الصغيرة، تعوّد الكبار منا أن يسيطروا على الصغار، في الغالب كان يترأس عصبة الأولاد أقواهم، والجميع يجب أن يخضعوا لأوامره، لكنّي لم أرضخ يوماً، كان جيوفاني أقوى مني، وأكبر بسنتين،

ينظّم لقاءاتنا ويفرض علينا أنواع الألعاب، والأماكن التي نلعب فيها. اعتبروني متمرداً، وكمنوا لي برئاسته. يومها عدت إلى البيت، وأنا أحمل كدمات في كلّ جسدي، لكنّي انتزعت احترام الجميع، بإصراري على القتال، وعدم الرضوخ.

بعيداً عن الطريق بحوالي كيلو متر تكدست سيارات تعرّضت لحوادث قاسية، كوّمتها البلدية في ذلك المكان، وصارت لنا بلداً، نجتمع، ونتبادل الألعاب، والمؤامرات الصغيرة. أيضاً لم يستطع جيوفاني أن يفرض عليّ الاشتراك بمؤامرة واحدة ضدّ باقي الأولاد في المدرسة، ما لم أكن مقتنعاً بضرورتها. جيوفاني الآن أكبر سكير في بلدتنا، يداه تلفان بالحرير، كما تقولون، فهو أشطر ميكانيكي في الريف كلّه.

كبرنا، وافترقنا. منا من تابع دراسته، ومنا من خاض معاركه الخاصة مع الحياة بممارسة مهن حقيرة، والفتيات أصبحن صبايا، وغادر معظمهن البلدة الصغيرة. ربّما كنت الوحيد الذي حرص على انتزاع حقّه في الحريّة صغيراً، وكبيراً؛ في المدرسة، والشارع، والبيت أيضاً. والوحيد الذي غادر إيطاليا؛ لأنّه يعتبر سوريا وطناً له».

قلت: «هل تعرّف أنّ هذا الاختلاف بين مزاجينا هو الذي جمعنا؟ فأنا لا أستطيع الاتفاق مع من يماثلني في الطبع». ضحك لورينزو قائلاً: «تؤمنين بالأبراج إذن!».

لم أرد، لم تكن الحكاية تخصّ الأبراج مطلقاً، فأنا لم أؤمن بها يوماً، بل لم أجرّب أن أقرأ ما يكتب عن برجي في الصحف. ثلاثة أشياء كنت أتجنبها: قراءة الفنجان، وقراءة الأبراج، ولعبة الكلمات المتقاطعة. كنت أشعر بأنّها تسلية تافهة لأصحاب العقول البسيطة. فيما بعد

لم أستسغ أيضاً ألعاب الكمبيوتر، أو الهواتف الذكية فالوقت أثمن من إضاعته في أشياء لا طائل منها. هذا بالضبط ما ربيت عليه آناتا وأنتونيتا في الفترة التي قمت برعايتهما فيها، قبل سفري إلى بروكلين. وعندما عدت، كانت الفتاتان قد نضجتا إلى حدّ لم أتصوره، آناتا تعلّمت الإسبانية، والإنكليزية، والألمانية، وتطوّعت في منظمة الإغاثة العالمية. فوجئت أنّها ذهبت إلى زامبيا متطوعة في مراكز التغذية لمرضى الايدز! وفي بداية 2012، ذهبت إلى كالكوتا للعمل مع جمعيات تبشيرية. لم تمكث سوى ثلاثة أسابيع، عادت إلى إيطاليا لتحكي لي عن تجربتها في تقديم المساعدة إلى سكّان الأحياء الهندية الفقيرة. لم تكن آناتا تعرف أنّ الذهاب إلى سوريا أمر مختلف، ولم تصدق الرعب الذي سيطر عليّ، وأرجعَته إلى خوف الأمّهات الذي لا مبرر له، مع يقينها أنّي أعرف الوضع في سوريا كما لا يعرفه أحدٌ سوى من يعيشون هناك. مضى شهر وأنا أنتظر من دون جدوى، على الرغم من كلّ الاتّصالات التي أجريتها مع أشخاص وسطاء وعدوني خيراً، لكنّهم في النّهاية أعلنوا عن عجزهم، فقرّرت اللجوء إلى «أسد الله حمزة».

****

بعد مدّة وجيزة من تعارفنا، وتحت ضغط نفسي كان يعيشه، باح لي بأمر خطير، لم أستطع استيعابه، وطلب مني أن أبقي الأمر سرّاً بيننا؛ لأنّ ذلك يمكن أن يقضي عليه!

ثمّ بدأ يعزف على وتر الملل والرغبة في السّفر وهجر البلاد الّتي لم تعد تطاق. سألته لماذا لا يترك القتال ويعمل ناشطاً مدنياً، إن كان يرى أنّ

الدولة الإسلامية لم تعد تحقّق طموحه في استعادة سوريا، والقضاء على النّظام فيها؟ قال لي: «الكلّ يعمل في الإغاثة، وكلّ من يعمل فيها متهم بأنّه لص، وأنا «لا أريد أن أنام بين القبور، وأرى منامات موحشة» على حدّ قول المثل الشعبي».

حاولت أن أقنعه بأنّ مغادرة البلد ليست الحلّ الأمثل، فإن غادرها كلّ من شعر بيأس من النتائج المرجوة لحربه مع النّظام، فلن يبقى فيها مدافع عن الحريّة، وهذا بالضبط ما يبحث عنه الطاغية، ويرجوه.. يريده بلداً خالياً من الرجال، والشباب.. بلداً مدمراً، يستطيع أن يحكمه كما يشاء لأجيال قادمة. فوجئت به بعد فترة يعزف نغمة أخرى، «لقد وقع في حبّي!» وصار كلّ ليلة يرسل لي وروداً افتراضية في الساعة الثانية عشرة ليلاً، وينسخ قصائد حبّ يرفقها بالورد.. وتدفق الشعر، والورد، والقهوة، وقوالب الحلوى من بريدي، حتّى صرت أشعر بأنّي مراهقة، وبأنّه فتى يحاول استرضائي بكلّ الوسائل. في البداية ضايقني الأسلوب، وأحرجني كثيراً، لكنّي وجدت نفسي تدريجياً قد اعتدت على قراءة قصيدة الحبّ، وتأمل باقة الورد، وشرب فنجان القهوة، قبل أن أنام!

فجأة انقطعت رسائله، وأخباره، ولم يعد يكتب لي. أرسلت له العديد من الرسائل، ولم يصلني رد. أخيراً وجدت نفسي أكتب على صفحتي، كلّ يوم قصيدة مرفقة بباقة ورد، وأستجديه أن يعود، أو يطمئنني فقط إن كان ما زال على قيد الحياة!

لم يطل انتظاري، وصلتني رسالة بعد أسبوعين، كانت قصيرة، ومختصرة، ولم تحتوِ على مرفق! قال فيها إنّه كان في معركة بمدينة أريحا. سألته بلهفة إن كان بخير، ولم يصب بأذى أثناء المعركة. ردّ

باختصار «أنا بخير». مرّت أيام أخرى، لم تصلني منه رسالة! عاتبته بلطف، وقلت إنّي اعتدت على قصائده ووروده. لم يخطر ببالي أبداً أنّها مجرد خطة، ليجعلني أهتم به، وقد وقعت في الفخ. صرت أبادر بإرسال الورود، وفتحت سيرة السفر أخيراً! كانت الطريقة الوحيدة المضمونة كي يصل إلى إيطاليا بشكل آمن، أن أوافق على الزواج منه! المشكلة لم تكن في طلبه، بل في ردة فعلي، لم أشعر بالصدمة، ولم يفاجئني الطلب، وكأنّ شيئاً خفياً في أعماقي يدرك أنّ هذا ما سيحدث بل يرجو أن يحدث! المشكلة الحقيقية في الموضوع برمته أنّي لم أكن أعاني فراغاً عاطفياً، بالعكس، كان لديّ أكثر من صديق، وبإمكاني أن أقيم علاقة مع أيٍّ منهم وقتما أشاء! صديقة لي فسّرت الأمر على أنّه شكلٌ من الحنين إلى الوطن اختصرته برجل، فأنا لا أعرف أين أذهب بكلّ هذا الفائض العاطفي الذي أملكه، بدليل أنّ عاطفتي تجاه هذا الشخص ليست مرتبطة بعلاقة جسدية، وعليّ أن أحسم أمري، فإن كنت أحبّه لشخصه حقيقة فلا شكّ أنّ مغامرة الذهاب إلى سوريا تستحق أن أخوضها. لم أكن أعرف كيف أتأكد من حقيقة عواطفي، وإن كانت ملتبسة أم صافية. وكان الاختبار الوحيد لهذه العاطفة أن أراه.

وقد جاءت الفرصة من غير تخطيط. تواعدنا في «العطشانة»، وحين وصلت إلى هناك مع خوان، لم أجده في انتظاري، كان في مهمة عاجلة داخل سوريا! هكذا قالوا لي.

لم يخطر في بالي أنّي سأعود ثانية إلى سوريا، وأنّي سألتقي به، ليس في العطشانة، وإنّما في الرقة. لم أكن أتوقع طبيعة ذلك اللقاء، ولا الظروف المحيطة به. كلّ ذلك بدا ككابوس لا أستطيع الفكاك منه!

زهرة الشيطان

هواء «العطشانة» البارد جلد وجهي بعنف حين نزلت من سيارة الأجرة. صفع عينيّ منظر لا مثيل له حتّى في مخيلتي، على طول السّهل الممتد على يسار النّهر، كانت الزهرة الشيطانية تفترش الضّفة، وسرير النّهر، ولا أثر للمياه! العاصي جافٌّ تماماً في تلك البقعة، ولا يدل على وجوده سوى اللون الأخضر لأوراق الزهرة المنتشرة على مدّ النظر. وقد ابتلعت الماء بشراهة، وجفّفت التّربة حول النّهر!

السائق التركي ناولني بطاقته، وقال: «في أيّ وقت تحتاجينني أنا في الخدمة. أنا أسكن قريباً، في الريحانية. وإذا كنتِ غير متأكدة من وجود الأشخاص الذين ستزورينهم، أنتظرك». شكرته بلطف، وأكّدت أنّ أقاربي يعرفون بقدومي، وينتظرونني.

حسب التعليمات، كان عليّ أن أسير على امتداد مجرى العاصي، وسأجده بانتظاري في النقطة المحدّدة، يرتدي معطفاً أسود فوق سترة سوداء، ويعتمر قبعة سوداء! لم يكن هناك سوى بضع أشخاص يحثون خطاهم صوب المدينة، متحاشين النظر حولهم. مع أنّ الأمر

يدعو للريبة، لكنّه أراحني؛ لأنّي كنت أعتقد أنّ أيّ شخص ينظر إليّ سيكتشف لماذا جئت إلى هنا. وأيّ ثمن سأدفعه للعثور على ابنتيّ! قبل اختطافهما، وقبل أن أقرّر إخبار «أسد الله» بالأمر، وأطلب مساعدته، لم أكن أشعر أنّ لقائي به سيأخذ طابع الصفقة. فجأة تحوّلت مشاعري تجاهه، حتّى قبل أن تلمس يدي يده في مصافحة باردة، لحظة التقاء الماء بالماء. فقد انفتحت أبواب السّماء فجأة، وتدفق المطر غزيراً، حجب الرؤية، وجعلنا نركض للاحتماء بسقف البيت.

لم يكن البيت على الطراز الريفي كما توقعت، بل كان بناء طابقياً محصناً بسور خارجي من الحجر، تحيط به أشجار الزيتون، والتين، وعرائش العنب الّتي كانت أوراقها الصفراء تقاوم قطرات الماء بوقعها القوي. دخلنا إلى غرفة واسعة، فرشت على الطريقة العربية بالسجاد، والمفارش، والوسائد، وفي زاويتها مدفأة حطب لا نار فيها. لاحظت الدخان المتصاعد من أسطح المنازل. والذي يشكّل غمامات متفرقة في سماء البلدة. علّقت قائلة: «ما شاء الله، معقول الجوّ بارد، ومطر في مثل هذا التوقيت! المفروض أنّنا في أواخر الصّيف!». ردّ المضيف من داخل المطبخ: «السنة الماضية كانت أمطارها قليلة جداً، بل شحيحة، ومتأخرة.. طيلة أشهر الشتاء لم ينزل المطر، لكن هذا العام بدأ المطر بالهطول مبكراً، وربّما يعوّضنا الله عن الجفاف الذي حلّ بنا العام الفائت».

أحضر لنا فطوراً خفيفاً، وشاياً ساخناً، وجلس يشاركنا الطّعام. كلُّ ذلك الوقت لم يتكلّم لورينزو كلمة واحدة، كان ينظر إليّ متسائلاً، ومستفهماً، متى سأبدأ الحديث! أنا أيضاً كنت أنتظر أن يبدأ المضيف الحديث... فوجئت به يقول: «يبلغك أسد الله السلام، ويقول لكِ

البيت تحت أمرك، وعليّ تلبية طلباتك رِيثما يعود من مهمته». حافظت على ملامحي الحيادية، وقلت: «هل سيطول غيابه؟ وهل أستطيع التحدث معه على الهاتف؟». ردّ الشاب بحذر: «لا أظنّ لو أنّه أراد ذلك، لزوّدك برقم هاتفه في الداخل. أعتقد أنّه لا يجوز لأحد أن يتحدّث إليه، فربما يكون خطّه مراقباً».

صمتُّ، ليس لأنّي اقتنعت بالكلام، بل لأستوعب المفاجأة. مرتين خلال سنتين يعدني في هذا المكان، ولا يأتي! في كلّ مرّة، يكون في مهمة داخل سوريا، ولا أعرف أين؟ أردت أن أسأل عن مكانه، لكنّي تراجعت في آخر لحظة، وسألت إن كان في البيت شبكة أنترنت. ردّ المضيف بأنّ البيت لا ينقصه شيء. وزودني برقم هاتفه قبل أن يذهب.

حين أغلق الباب وراءه. سألني لورينزو: «والآن! ماذا ستفعلين؟». لم يكن لديَّ جواب. لن أفعل شيئاً سوى الانتظار، فكلّ الخيوط ضاعت مني، ولم يبقَ سوى أمل ضعيف أن يستطيع «أسد الله» معرفة مصير الفتاتين من خلال علاقته بقادة الفصائل الإسلامية.

فتح لورينزو كمبيوتره المحمول، وخلال لحظات، انطلقت منه موسيقى «النصر» لاندريه ريو.. انقبض قلبي، وامتلأت عيناي بالدّموع. هذه الموسيقى المفضلة عند آناتا. كانت تعشق موسيقى ريو، لم أستطع أن أطلب منه خفض الصوت، غرقت تماماً بالموسيقى، حتّى انتبهت لصوت إشعار من هاتفي بوصول رسالة. فتحت صفحتي، فوجدت رسالة مطولة من سوزان، تسألني أين أنا، وتعاتبني لأنّي لم آتِ لحضور أمسيتها في باريس. كنت قد نسيت الأمر تماماً. كتبت إليها أعتذر، وأشرح لها سبب نسياني الأمر، وأطلب منها أن تحدّثني

عن الأمسية. ردّت سوزان مباشرة: «منذ فترة وفكرة واحدة تلحّ عليّ، نحن -السوريين- في الخارج لسنا لاجئين، ولسنا شحاذين، على العالم أن يفهم أنّ السوري مازال قادراً على الحياة، ومازال يرى الوجود جميلاً. حاضرت عن صبري مدلل، هل تعرفين أنّه غنّى كلّ شيء عن الصوفية!» قلت: «لا أعرف الكثير عنه، سمعت بعضاً من أغانيه فقط. بالمناسبة لماذا لا تحكين عن تجربتك في العمل داخل سوريا، هي تجربة غنية وتستحق». ردّت سوزان: «لا أريد أن أعلن عن ذلك. قرّرت أن أبقى في المنطقة الرمادية، نعم، لا يهم كثيراً ما سيقوله الآخرون عني، ولا كيف ينظرون إليّ، أنا أريد العودة إلى مدينتي، لا أريد قطع سبل تواصلي معها بإظهار موقفي مما يجري. في الحقيقة أنا أعيش حالة من عدم التوازن. لا أعرف هل أنا ثابتة والطريق يتحرّك؟ أم أنّي أتحرّك والطريق ثابت! تشوّشتُ تماماً، حدّ أنّي شعرتُ بدوار فظيع، أنا لا أطيق هذا الكم من العنف، لم أعد أستطيع تحمل رؤيته، فكيف باستيعابه! تعلمين؟ سألت الدكتور سهيل زكّار قبل وفاته بمدة، عمّا إذا كان التاريخ عبر حروبه، ومآسيه، وكوارثه، قد عرف شيئاً يشبه ما يحدث في سوريا! فقال: «لا، لم يحدث».

لا أريد أن أحكي تجربتي، أريد أن أعيشها فقط، ولن أشارك الآخرين بها؛ لأنّ ما لديهم أعمق، وأصدق، ويستحق أن يشاد به. أشعر بأنّي منفية في باريس، إنّها منفى بامتياز. نسيت اللغة، كثيراً ما أشعر أنّ فمي يابس، وأنّ مسامير تنغرس في حلقي حين تخرج الحروف اللاتينية منها، سواء تحدثت بالفرنسية، أو الإنكليزية، أو الإيطالية. أريد أحداً يذكّرني بحرف يخرج من الحلق، بطعم الفستق الحلبي،

ودسم القشطة على الشعيبيات والمأمونية في صباحات حلب. لذلك؛ اتصل كلَّ فترة بصديقة قديمة، حلبية، ألجأ إليها، صوتها يشعرني أنّي آخذ جرعة أفيون، فيه تلك اللكنة الأصيلة للحارات الشعبية التي كنت أنظر إليها على أنّها «شرشوحة» وبيئة.. الآن فقط فهمت أنّ هذه اللهجة المصحوبة ببحة صوتها المخرّش من الدخان، هي ثقافة وحضارة بلد، يُعنى أكثر من غيره بتفاصيل لا يعرفها إلاّ التّجار، تجار حلب وصنّاعها الذين يحبّون تدليل زوجاتهم والعناية بهن حتّى يظهرن بتلك الصورة الآسرة.

التّجار الذين لا يعرقون بالمال، بل يأتيهم على صحاف من فضة، وذهب، هؤلاء لا يستطيعون رؤية نسائهن إلاّ وهنّ غارقات بالذهب والحرير، ونغمات العود، ورائحة «الترابة» الحلبية تفوح من شعرهنّ المبلول ممزوجة بالفل، والياسمين، وزهر الليمون! هؤلاء الذين يعشقون زوجاتهنّ اللواتي يغرقن في المطبخ لساعات طويلة، يُحضّرن أصناف الطّعام الفريدة الّتي تُعرف من رائحتها على مسافة أميال. البناؤون الذين يعرفون بحسهم رائحة الطبخات الحلبية، السّيدات اللواتي يلبسن الحرير، والذهب، ويجعّدن شعورهن، ويبذلن جهوداً كي تبقى قاماتهن ممتلئة، وموائدهن عامرة بأنواع الكبب، والمحاشي، والحلويات المصنوعة بالسمن البلدي.. يرافقهن العود في السهرات، وتمتزج نغماته بأبخرة القهوة، والنارجيلة؛ لذلك أشعر أنّي أخيراً فعلتُ ما أحبّه! ليس من اختصاصي الكتابة عن الثورة. لأنّنا حين نكتب عنها نلامسها من الخارج، من المستحيل أن نلمّ بهذا الكم الهائل من الوجع، والقصص التي لا تنتهي! وأنتِ كيف صرتِ؟ اكتبي لي».

كتبت لسوزان: «أنا! أحياناً لا أعرفني، وأشعر بغربة عني، فأهرب إلى النّوم! تلك المرأة التي كنتها البارحة ماتت، ألم تري التغييرات التي طرأت على جسدي؟ أعتقد أنّ النّوم هو الموت الأصغر حقاً. جرّبت مرّة ألا أنام كي أبقى أنا، لكنّي لم أستطع المقاومة أكثر من ثلاث ليالٍ، والمصيبة أنّي اكتشفت أنّ الصحو أيضاً هو موتٌ أصغر؛ لأنّي في اليوم التالي عند شروق الشّمس لم أجدني في المرآة، لم أكن أنا، كان هناك بقعة بنية جديدة على يدي، وأخرى على جبهتي، لقد كنت امرأة أخرى! لهذا قرّرت أن أعيش يومي متجدّدة، أو متبدلة، لا يهم، المهم أن أصنع تاريخي مع الشروق، وأستسلم للموت آخر الليل.»

أرسلتْ رسم وجه مندهش، ثمّ كتبت: «لقد أصبحتِ فيلسوفة! ما أخبار الحبّ إذن؟». ضحكت، وكتبت: «كما تعرفينه، متبدل أيضاً، أقصد الأشخاص، لكن أهم شيء أنّي تحرّرت من عقدة الحبّ الأوّل، بالمناسبة ما أخبار قلبك؟ ما زال ناسكاً؟». كتبت سوزان: «لم يكن يوماً ناسكاً أبداً. لقد قلت لكِ سابقاً إنّي التقيتُ حسن. تذكرينه ولا شكّ، ذاك الذي كان يتجنبنا، ويجلس في آخر مقعد بعيداً عن البنات.

قاطعتها: «افتحي السكايب، الكتابة على الهاتف تربكني».

«طبعاً أذكره، وأذكر أنّه كان الأول على دفعتنا في السنة الأولى، حتّى عندما حكيتِ لي عن الجريح الذي أنقذتِهِ خمّنت أنّه هو». قالت سوزان: «نعم، هو، لقد أحببته طيلة سنوات الدّراسة، وكنت أظنُّ أنّه هو أيضاً يحبني، وانتظرت أن يقول لي ولو كلمة يغيّر فيها مجرى حياتي لكنّه لم يفعل. بعد تخرجنا، جاءني عريس. ولم أوافق. كنت أنتظر! ذهبت إلى الكلية لآخذ أوراقي، فالتقيت به. كنت أصعد الدرج،

وهو ينزل. توقف قلبي لشدّة ما خفق بسرعة، تلكأت حتّى وصل لعندي وابتسامته الساحرة تملأ وجهه، سلّم عليّ. والله حدث، سلّم عليّ. حينها امتلكت أجنحة، وطرت. قال لي: «أهلاً.. أهلاً.. أهلاً..» فقط، وتابع طريقه! رجعت إلى البيت، وأخبرت أهلي أنّي موافقة على العريس.».
صمتت قليلاً، ثمّ قالت: «لم يخطر لي أبداً أن أجده أمامي بعد عقدين ونصف من الزمان، وفي ظرف من شأنه أن يقتل كلّ إحساس بالحبّ، وكلّ ذكرى جميلة حملتها له في قلبي. وقد حاولت أن أقنع نفسي أنّ هذا الرجل الذي رأيتُه يقاتل إلى جانب حزب الله، وإيران، ضدّ أبناء بلده، لا يمكن أن يكون هو نفسه الشاب الطيّب الذي أحببته، من المستحيل أن أخدع إلى هذا الحدّ! هل يعقل أن يكون الانتماء الطائفي أقوى من الحبّ؟ أرأيتِ كم الصدمات التي ورّطتنا فيها الثورة؟».
قلت: «الثورة عرّت كلّ شيء، فقد «أذابت الثلج، وبان المرج» الحقيقة صادمة عزيزتي، السّبب أنّنا كنّا في ذلك الزمن شعباً واحداً متناغم النسيج، لم نفكّر بطائفة أو حتّى دين! كنّا طرفين فقط، سلطة تقمع، وتقتل، وشباب متمردون على كلِّ شيء، صحيح لم أكن في ذلك الوقت أنتمي لأيّ حزب سري، لكنّي بطبيعتي لم أشعر بانتمائي إلى القطيع، هكذا خلقت، وهكذا ربّاني أبي، ربّما كنت محظوظة بتلك التربية البعيدة عن المنظمات والأحزاب، على الرغم من محدودية الحريّة التي أعطاني إياها أبي.
المهم، حدّثيني عنكِ الآن، ألم تجدي الحبّ بعد؟» أجابت سوزان: «الآن! جاء الحبّ متأخراً جداً. فتحت يوماً باب البيت فإذا الباب المقابل يُفتح، ويخرج منه رجلٌ مكتمل، بهي الطلعة، حيّاني بفرنسية

طلية، ورافقني في الأسانسير. وصرت كلّما خرجت من البيت، ألتقي به. لكن لم يعد في العمر ما يسمح باقتراف الحماقات، مع أنّي أحسّ حين أراه أنّي في العشرين من عمري، وأنّي سأبدأ حياتي الآن، وأعيشها كما عاشها «زوربا». سألتها بخبث: «ألا تشعرين برغبة نحوه؟» قالت سوزان: «ليس الأمر أنّي لا أرغب فيه، هناك فرق بين القُدرَة والرغبة، نظرياً لديّ طاقات مهولة، عملياً أصبحت صفراً. لقد أتى متأخراً. متأخراً جداً!». سألتها: «هل حقّاً أصبحتِ كذلك؟ أم تتوهمين لأنّك خائفة من المواجهة، أو لا تريدينها أصلاً!». ردّت سوزان: «قد تكونين على حقّ في حال كوني لم أجرّب. بصراحة، لقد ذهبت معه إلى أعمق نقطة في التلقي، لكنّي فشلت حين أصبح المدّ قريباً من جسدي، لم أعد أستطيع الاستمرار، بصراحة أكبر.. هو أيضاً يصلح للحديث عن الحبّ، ولا يجيد اقترافه!».

حين أغلقتُ نافذة المحادثة، كان ريو يعزف «كانوا يا حبيبي» لفيروز[20]!

(20) اندريه ريو أشهر عازف كمان وقائد أوركسترا هولندي.. الأغنية بالأصل هي موسيقا للجيش الأحمر الروسي أيام الاتحاد السوفيتي.

قيد الانتظار

استيقظت وأنا أهذي: «والآن، ماذا ستفعلين؟». لماذا أجد نفسي في مواجهة الأسئلة الصعبة دائماً، وأعجز عن معرفة الجواب! حتّى في المنام ما أزال أرى نفسي في مواجهة ورقة امتحان فارغة، ولم يبقَ من الوقت سوى دقائق. إلى الآن لم أتخلّص من الكوابيس الدّراسية التي أحمل فيها ورقة رسوبي، وأقف أمام باب غرفة أبي بخوف، كيف سأخبره أنّي لم أنجح إلى السنة الرابعة، ولم أكمل دراستي في كلية الطب، وأنّ الزمن مضى، وأصبحت كهلة، وما زلت أحمل الورقة في منامي، وأقف أمام الباب وجسدي يرتعش! في كلِّ مرّة كنت أرى نفسي أخترع عذراً جديداً كي يسامحني. في كلّ مرّة ينفتح باب الغرفة على هاوية، فأجدني في مواجهة سقوط مريع لا ينتهي إلاّ باستيقاظي! اليوم تغيّرت ملامح المنام، اليوم فقط رأيت شيئاً غريباً، كنت في قاعة امتحان كبيرة وفارغة. في المقعد الأمامي بعيداً عني تجلس آناتا، في المقعد الخلفي على نفس المسافة من البعد تجلس أنتونيتا.. كانتا مقيدتين إلى الكرسي، لكنّهما تبتسمان! لم يكن أمامهما أوراقاً،

أنا فقط تكدست أمامي الأوراق، وعليّ إنجازها في دقائق، كي يفكّ المراقب قيدهما. وقبل أن أكتب السطر الأخير، قرع الجرس.. وانتهى الامتحان!».

نهضت من الفراش، حضّرت كأس شاي ساخن، وفتحت كمبيوتري. التفتُّ إلى لورينزو متسائلة: «قل لي أنت، ماذا عليّ أن أفعل؟». قال بحياد: «أرى أن تنتظري بضعة أيام هنا، إن لم يأتِ نذهب إلى الرقة». صرخت: «لا، أنت لن تذهب، يكفي ما حدث، إن لزم الأمر سأذهب وحدي لن ترافقني.. الأفضل أن تعود إلى إيطاليا». نظر في عينيّ، وقال بثقة: «لم آتِ لأذهب، جئت كي أبقى، ربّما أغادر لأيام، لكنّي سأعود. إنّها قضيتي كما هي قضيتك». قلت: «إذن قم بما يجب تجاه قضيتك، اتصل بالحكومة الإيطالية علّها تفعل شيئاً لإنقاذهما».

سادت فترة صمت. كان كلانا يفكّر في إبعاد الآخر كي لا يتورط أكثر. وصل خلالها الشاب الذي استقبلنا عند ضفة النّهر، سألنا إن كنّا نحتاج شيئاً. طلب لورينزو بيرة وأشياء أخرى. قال الشاب: «ما رأيك أن تجرّب عرق التين، صناعة محلية فاخرة، لا يفوقها سوى عرق «الريان» السّوري.»

عاد الشاب بسرعة، وأحضر معه المطلوب، وأراد أن يغادر، فطلب منه لورينزو أن يبقى. حضّرا العشاء معاً، وجلسا حول المائدة. سأله لورينزو عن اسمه، قال باختصار «علي»، سأله عن عمله، ردّ باختصار «جندي منشق». استغربت، قلت له: «إن كنت منشقّاً، ماذا تفعل هنا، لماذا لا تقاتل مع الجيش الحر؟». ابتسم بسخرية: «جيش حر! عن أيّ جيش تتحدّثين سيدتي، لم يعد هناك جيشٌ حر،

كلّها كتائب إسلامية». قلت: «ليكن، ما المانع؟». قال بتردّد: «أنا أقوم بالعمل الذي يطلبه مني الملازم أوّل خضر، وهو الذي أرسلني إلى هنا لأستقبلكما». تساءل لورينزو: «من يكون الملازم أوّل خضر؟». نظرت إليه باستغراب، خضر أكّد لي أكثر من مرّة، ألّا أحد يعرف اسمه الحقيقي، وأنّ جميع معارفه على مواقع التواصل وفي أرض الواقع، يعرفون لقبه فقط «أسد الله حمزة» وذلك من أجل سلامته. كيف إذن يعرف هذا المجند اسمه الحقيقي؟ وكيف يبوح به لصحفي إيطالي؟ أم أنّها الخمرة لعبت برأسه، وأطلقت لسانه!؟

مرّت أشهر طويلة من المحادثات بيني وبينه، تعمّقت خلالها علاقتنا، حتّى باح لي باسمه الحقيقي، أخبرني به بعد إلحاح شديد، منذ البداية لم أرتح للقبه، ولم أستطع مناداته به. حين همست باسمه أوّل مرّة عبر السكايب، ظلّ لساعات يطلب مني إعادته. أخبرني أنّها المرّة الأولى التي يسمع فيها اسمه بهذا النغم الساحر والنبرات الملائكية! وحدّثني عن جدته التي أطلقت عليه هذا الاسم، كما أطلقت عليه ألقاباً كثيرة في طفولته. حين سألته عن النساء في حياته، أنكر أن يكون على علاقة عاطفية مع امرأة، ثمّ أسرَّ لي بأنّه قبل أن يعرفني كان يكره جنس النساء؛ لأنّ إحداهنّ خدعته في مطلع شبابه، فاختار أن يتطوّع في الجيش، ويبتعد عن قريته كي ينساها! ومنذ ذلك الحين لم يرتبط ارتباطاً عاطفياً بامرأة، وكلُّ علاقاته بالنساء عابرة لا تتعدّى الاتّصال الجسدي.

حصار

سألت المجند «علي» لماذا انشقّ عن الجيش وهو من طائفة الرئيس؟ ارتبك علي قليلاً، وعبّ من زجاجة العرق مباشرة، مسح فمه، ونظر في عينيّ، وقال: «أتعرف، أنا ممنوع من الحديث عن نفسي، عليّ فقط أن أنفّذ الأوامر التي يصدرها «الكبار» هنا. لا يحق لي أن أحكي عن نفسي.. أشعر أحياناً أنّي لا أساوي عندهم حتّى رصاصة. فكّرت أكثر من مرّة أن أروي قصتي لمراسلين وصحفيين أجانب التقيت بهم في سوريا، وهنا أيضاً في تركيا.. لكنّي في كلّ مرّة أتراجع خوفاً. أدرك جيداً أنّ من العبث أن تقطع لي عهداً بكتم ما سأخبرك به، مع هذا أجدني مدفوعاً للتحدث -ولو مرّة- عما جرى لي وليأخذني بعدها الطوفان. حلقي يغصُّ بالكلام، ولا أستطيع ضبطه.

(لم يكن قد مرّ على «سوقي» سوى أشهر حين بدأت الثورة السورية، وجاء «فرزي» إلى الفرقة «17» القريبة من مدينة الرقة والواقعة على مشارفها تقريباً. حاصرنا الجيش الحر، وأحرار الشام قرابة عامين، ذقت فيهما كلّ أنواع الرعب والذل. في إحدى المعارك أصبت بشظية

في ظهري ما زلت أشعر بالألم أثناء الحركة، ولكنّي أتجاهله بشجاعة مقاتل لا يريد أن يعترف بهزيمته.

كنتُ مقرّباً من رئيس أركان الفرقة، ومن ضابط الأمن فيها، ليس بمعنى الاصطفاء، بل كنت حارسه الذي لا ينام، أنفّذ طلباته وأوامره، وأبقى قريباً من الباب على أهبة الاستعداد لأيّ طارئ. اتصل رئيس أركان الفرقة ببعض الضباط البعثيين في العراق الذين هم على علاقة وثيقة بالنظام السّوري، وفي الوقت نفسه مرتبطون بعلاقات متينة مع تنظيم الدولة الإسلامية «داعش». بعد هذا الاتصال، دخلت داعش إلى الرقة، وفكّت الحصار عن قيادة الفرقة 17! فكّ الحصار عن الفرقة كان منظماً بدقة بين قيادة الفرقة وقيادات الأمن العسكري في دمشق من طرف، وتنظيم الدولة الإسلامية وكتائب البعث من طرف آخر. تحرّكت قوات من اللواء المدرع 93 لتسلّح داعش بما يكفي لضرب الجيش الحر، وأحرار الشام. هذا الاتفاق تمّ بالتنسيق مع القيادة داخل الفرقة 17، وعلم العساكر بذلك. كنّا حوالي سبع مئة وأربعين جندياً.

سنتان من الموت البطيء قضيناها محاصرين، لا طعام ولا دواء، ولم يعد يتوفر لدينا أيّ شيء من احتياجاتنا. لم يبقَ بيننا جنود سُنّة. أعرف أنّ هذا الكلام يعتبره البعض طائفياً، لكن هذا واقع الحال. الضباط أرسلوا قسماً كبيراً منهم إلى الموت في مواقع القتال بسبب عدم ثقتهم بالمجند السني وخوفهم من انشقاقه، مع هذا انشقّ بعضهم وعادوا إلى أهاليهم، أو ربّما التحقوا بالجيش الحر! حتّى نحن بتنا نشعر بعدم جدوى الحرب التي رمونا في أتونها. كنّا نعيش موتنا

اليومي حين نرى رفاقنا وأصدقاءنا يموتون أمامنا الواحد تلو الآخر تحت وطأة الحصار والقتال الذي استنزف طاقتنا ومقدرتنا على الاستمرار أحياء.

ضابط أمن الفرقة كان يحظر علينا أن نصادق أحداً من الجنود السنة. ويحرص على فصلنا عنهم. خاصة بعد أن رأى التقارب بيننا الذي وصل حدّ الاندماج بعد الحصار! فزادت تقاريره الكيدية ضدّنا، لا أدري بالضبط ما الذي يضيره من اتفاقنا، ونحن أبناء بلد واحد! وواقعون تحت النار نفسها، كلانا يُقتل، وكلانا يقاتل في الجبهة ذاتها، فلماذا كان يفرّق بيننا؟ كان أيّ شعور مشترك بيننا يقلقه، ويرفع وتيرة الضغط علينا. خاصة بعد سقوط تلك الهالة القدسية للجيش، التي كانت تحني رؤوسنا للأوامر، وتجعلنا ننصاع من دون نقاش أو تفكير، على المبدأ العسكري الذي تربينا عليه. لكنّنا بعد الحصار، صرنا نفكّر، وتجرّأنا على شتم القيادة العسكرية بما فيها قيادة الأركان ووزير الدفاع. حتّى تطاولنا على الذات الإلهية لشخص الرئيس، فصار شتمه في الفترة الأخيرة من الحصار أمراً عادياً، فمن ينتظر الموت يرى الأشياء البشرية بكامل بشاعتها، لقد نزعنا عنه كلّ صفات القداسة. أيّ إله ذاك الذي يترك عبيده محاصرين كالفئران، ولا يرسل مساعدات عسكرية لإنقاذهم على الرغم من إلحاح قيادة الفرقة في طلب المساعدة من القيادة العسكرية في دمشق! لم نكن وحدنا من شتم الوزير والرئيس، فقائد الفرقة كان يتصل بدمشق، ونحن نراقبه، ويبدأ بشتم وزير الدفاع، وشتم الرئيس بمجرد إنهاء المكالمة، هو أيضاً كان غاضباً وخائفاً! والخوف يُفرغ كلّ شحنات

الكراهية من النفس. وزير الدفاع كان يقدّم لنا الوعود الخلبيّة يومياً بإرسال المساعدات، ولم يصلنا شيء منه! كان يجيد الكلام فقط، يطلب منا الصبر والهدوء، كأنّه لا يفهم أنّنا نعيش وسط الجحيم، وأنّ بيننا وبين الموت خطوة. وجاءت داعش.. المنقذ الذي أمّن لنا الحماية، حتّى خرجنا من أسوار القيادة.. ورمت لنا الطائرات بعض الغذاء، الذي لم يكفِ لمدّة شهر! لكن تستطيع إن كنت تملك النقود أن تشتري الطعام الجيد من ضابط الأمن المسؤول عنك.. أقصد المسؤول عن حياتك، وتفكيرك، وتكوينك، وآرائك، وروحك بيده. ضابط الأمن كان يبيعنا علبة «الطون» أو السردين بألف ليرة سورية، وسيجارة الدخان «الواحدة» بسبع مئة ليرة! كان ينسق مع جهات خارجية منها داعش، لجلب البضائع إلى داخل الفرقة. ولولا الضغط الذي مارسه الأهالي في اللاذقية وطرطوس على المحافظين لنقل احتجاجاتهم إلى الرئيس؛ لينقذ أبناءهم في الفرقة 17، لبقينا تحت وطأة حذاء الضباط، وتحكّمهم في قوتنا. جاء أمر بنقل بعضهم، وأتى ضبّاط جدُد بطائرات الهيلوكوبتر. المهم تخلّصنا من قائد الفرقة الذي «فيّش[21]» أكثر من خمسين عسكرياً من داخل الفرقة، ومثلهم من الألوية التابعة لقيادته! القائد الجديد كان يأكل معنا، ولا يشرب قبل أن يشرب العساكر، ويقاسمنا كلّ شيء. لم يطل به الأمر، فقد كاد له الضباط، وأرسلوه للقتال في دير الزور عندما كشف ما يفعلونه. لم يعد الجنود يتحمّلون ما يحدث لهم، فقدنا تدريجياً كلّ أسباب

(21) التفييش: مصطلح يستخدمه العساكر للدلالة على أنّ قائد الفرقة يأخذ رواتبهم، ومالاً إضافياً منهم، مقابل عدم مجيئهم إلى القطعة وقضاء مدّة خدمتهم في بيوتهم.

الصبر، والتحمل والبقاء. كلّنا مضطربون، وخائفون. صرنا نكره الطرفين، النظام والمعارضة. حتّى السلاح كرهناه، تحوّلنا إلى قطيع من الغنم ينتظر التضحية به ذبحاً في عيد الوطن. الوطن! تأمل هذه العبارة الفارغة من أيّ محتوى. أيّ وطن ذاك الذي ندافع عنه، وأيّ كرامة! هل نحن حقّاً نشعر بالانتماء إليه؟ هل نملك كرامتنا؟ هاجسٌ وحيد سيطر على أدمغتنا «الموت» سنقتل على أيدي المسلحين في الخارج، وربّما على أيدي الضباط في الداخل! نزعنا صور الرئيس من غرفنا، وصرنا نطالب القيادة بإنزال العلم الذي يستفز المسلحين في الخارج فيمطروننا بالرصاص.

بعد إصابتي، رميت مع عشرات المصابين، وتركنا لآلامنا. كيف ستفكر بحب الوطن، وكرامة الجيش، والبلد، وتلك الترهات، وأنت على شفا الموت، ولا أحد يهتم بعلاجك، أو إرسالك للعلاج؟ هل تكون كافراً حين تشتم كلّ القيم والمقدسات التي حشروها في رأسك؟ الرصاصة مستقرة في ظهري، الرصاصة في ساق صديقي، الرصاصة في جنب آخر، والرصاص في أحشاء رابع.. كلّنا ننزف، ولا يوجد من يسدّ النزف، ويقدّم لنا الدواء. كلّنا عبيد في المحصلة علينا أن نموت بصمت، حتّى صرخات الألم رفاهية لا يجوز أن نحظى بها! أصبحت فكرة الانشقاق تلحّ عليّ، خاصة بعد أن اتصل بي عدَد من أصدقائي الذين انشقوا، ووعدوني بتأمين هروبي من دون شروط! كنت خائفاً، فأنا لستُ سنياً ليغض الضابط طرفه عني، وهو يتمنّى أن أقتل أثناء هروبي.. كنت خائفاً من تصفية عائلتي. كان الأمر معلناً، فقد هدّدنا الضبّاط بقتل عائلاتنا إن فكّرنا بالهرب، أو الانشقاق. كانوا يفتشون هواتفنا بعد كلّ

انشقاق؛ ليعرفوا إن كنّا نتواصل مع المنشقين. وكانوا يوزعون علينا منشورات بالفتاوى الإسلامية التي تحرّض على إبادتنا.. وعندما نسأل من أين جاؤوا بها، كانوا يقولون، إنّها رميت إليهم من الطائرات. لم يعد المجندون يصدّقون تلك الترهات، خاصة بعد أن أصبح شتم الرئيس أمراً عادياً. لكن ما لم نتوقعه أبداً تمدّد داعش في العراق، ومبادرة النظام بضرب قواتها بالطيران الحربي داخل الأراضي العراقية. هكذا وجدنا أنفسنا، وبشكل مفاجئ، بمواجهة نيران داعش، حين هاجمتنا على حين غرة.

انهار كلّ شيء على مستوى الدفاع العسكري لقيادة الفرقة، وهربنا تحت القصف بالطريقة الكيفية.. طبعاً أنت لا تعرف «الكيفية في الهروب» فهي اختراع سوري، أصّل له وزير الدفاع حافظ الأسد في حرب 67.. وأخذ عنه القادة العسكريون تلك الفكرة العظيمة. رئيس الفرقة دعانا للهروب كيفما اتفق، وكلّ جندي مسؤول عن نفسه! أنرنا الغرف، ليظنّ مسلحو داعش أنّنا في الداخل، وانسحبنا بهدوء. كنّا مئة واثني عشر جندياً. تركنا وراءنا حوالي 250 جندياً ماتوا بأسباب مختلفة. تفرّقنا في الصحراء زمراً. مشينا على أقدامنا ما يقرب خمسة كيلومترات. ولجأنا إلى ساقية ماء عندما أصبحنا قريبين من قوات «داعش».

كنّا خائفين، وأقرب إلى الموت من الحياة، حين رأينا بعد اثنتي عشر ساعة رجلاً مسلّحاً قال لنا إنّه من الجيش الحرّ، ودلّنا على طريق يوصلنا إلى منطقة تسكنها إحدى العشائر. لم أستطع إكمال الطريق مع رفاقي. كنت قد أنهكت تماماً، وأغمي عليّ وسط الصحراء. وعندما

صحوت وجدت نفسي في خيمة ذات أساس بسيط، وبجانبي قربة ماء! ظننت في البداية أنّي في مضارب بدو الصحراء. أو أنّي وصلت إلى أطراف المنطقة التي دلّنا عليها الشاب الحرّ. لكنّي فوجئت بدخول رجل ملتحٍ يمسك بيده سبحة. جلس بجانبي، وهمس: «الحمد لله على سلامتك. نظّف لك الطبيب جراحك، أنت بخير الآن».

حينها عرفت أنّي أسيرٌ لدى داعش! الرجل الذي تحدّث إليّ باقتضاب، تركني بعد أن نادى أحد الجنود، وأمره برعايتي، وإطعامي. وبعد أيام اصطحبني بسيارته إلى هنا. وعرفت أنّه من قرية قريبة من قريتنا التابعة لبانياس.).

الوجه الثاني للخضر

تساءلتُ بدهشة: «خضر أنقذك إذن لأنّك من طائفته!». نفى عليٌّ تلك التهمة عن خضر، وقال لي: «بالعكس، لم يكن يعلم عني شيئاً عندما أنقذني، بل فعل ذلك بحس إنساني بحت؛ لأني كنت مصاباً فقط.. أتعلمين؟ حكى لي أنّه كان في بداية الثورة مثلي في جيش النظام، وأنّه حاصر مع رفاقه جسر الشغور، وأصيب في ساقه بطلق ناري، وأنقذته عائلة من البلدة، وأخذوه معهم حين نزحوا إلى تركيا وعالجوه؛ لأجل ذلك، أنقذني!».

رواية جديدة عن «أسد الله» جعلتني أفكّر بذلك الغموض الذي يحيط بشخصيته. اليوم فقط عرفت أنّه ليس متكتماً على اسمه وطائفته، كما ظهر لي من قبل. وفهمت أنّه منضم لتنظيم الدولة الإسلامية، وليس فقط على علاقة طيبة مع قادتها! هناك شيء مريب في كلّ ما سمعته. لماذا كان يفكّر باللجوء إلى أوروبا إذن؟ أستعيد الآن كلّ المحادثات التي دارت بيننا. كان حريصاً دائماً على التأكيد أنّه سوري قبل كلّ شيء، وأنّه ينبذ العنف، ويكره السلاح، وأنّه مع

السلمية بكلّ أشكالها، ويرفض قتل مواطن سوري، ويرى أنّ دخول المسلحين الأجانب هو السبب بدمار سوريا، وتحويل الصراع إلى شكلٍ مسلح بين دول ذات مصالح عظمى، بعد أن كان بين الشعب والنظام! ما الذي يجري بالضبط؟ في إحدى محادثاتنا، قال لي: «ربّما ليس من حقّي أن أسألك، وقد أبدو لكِ متطفلاً، لكنّي لا أستطيع أن أرى قديسة مثلكِ ينظر إليها الرجال بطريقة مريبة بسبب عريها، لماذا تضعين صورك المغرية بهذا الشكل على صفحتك؟» قلت: «أنا أعيش هكذا ولا أستطيع أن أظهر للناس على غير حقيقتي». قال: «حقيقتك أنتِ لا تدركينها، أنا أراك قديسة، أنت نقية وطاهرة، ولا أريد أن يغتصبك الرجال بنظراتهم ومخيلاتهم». قلت بضيق: « أنت تعتقد أنّي قديسة لأنّك تجهل كلّ شيء عني.. لا أدري إن كان من الحكمة أن أخبرك بأنّي ضاجعت رجالاً كثيرين، بعضهم لم أعد أذكر شيئاً عنهم، لم أنسَ الأسماء والأماكن فقط بل ملامح الوجوه أيضاً.. ربّما لأنّي في ذلك الوقت، لم أكن معنية بهم كأشخاص، بل بالفعل بحد ذاته».

قال محاولاً تدارك الفخ الذي أوقعته فيه: «أنا متأكد أنّ هذا كان في الماضي، وأنّه طيش شباب، أنت الآن امرأة ناضجة، ولا أظنّك تنحدرين لمثل هذا الدرك». قلت: «ولنفترض أنّي ما زلت كذلك ماذا سيكون موقفك؟». قال: «أنا لا أملك أن أحاكمك، الله سيغفر لكِ إن تراجعتِ عمّا أنت فيه، لا تنسي أنّ الله داخلك، وحيث يوجد الإيمان توجد الحقيقة، يكفي أن تكون لديك الرغبة الخالصة في التوبة». قلت بضيق: «إنّهم يصورون لنا الله على شكل مرعب، فهو الذي سيعاقبنا، ويرمينا في نار جهنم، ويضيّق علينا القبر و...». قاطعني: «بل

هو الرحمن، الرحيم، الرؤوف، الغفور، الحليم». قلت: «وهو القادر، والمتجبر، والقابض، و..». قاطعني ثانية: «انسي كلّ هذا، تجاهلي كلّ شيء، وانظري داخلك، استفتي قلبك، وأنا على يقين أنّك سترين النور يغمر روحك، وستصلين إلى الإيمان». قلت: «هل يعني هذا أنّك تتّهمني بالكفر؟ ليس لك أن تتّهمني بالكفر وعدم الإيمان، لكلٍّ منا إلهه الخاص، الذي يعبده، أو يتصالح معه بطريقته التي تخصّه وحده. كما لا يمكنني في الوقت نفسه أن أشتم إلهك، أو أصغّر شأنّه، أنت وأنا، وكلُّ بشريٍ على وجه هذه الأرض يعتقد أنّ ما يقوم به هو الصواب وباقي البشر على خطأ! لماذا لا يتصالح الناس في رؤاهم حول الإله، فيجعلونه شأناً خاصاً لا يجوز المساس به، ويختلفون فقط حول سبل التعايش؟». قال معتذراً: «كيف فهمتِ من كلامي أنّي أتهمك بالكفر؟ معاذ الله، أنا فقط أخاف عليكِ؛ ولأجل ذلك تجرّأت بفتح هذا الحوار معكِ».

يبدو أنّ خوفي، ورغبتي بمعرفة مصير ابنتيّ، أجبرني على قبول كلّ ما يقوله لي، على أنّه حقيقة لا يطالها الشكّ. وساعدني على اتّخاذ القرار بمتابعة البحث، بغض النظر عن الوسيلة، ومدى جدواها!

حين غادر «عليٌّ» البيت وهو في حالة سكر شديد، ابتسم لورينزو وقال: «هذا الجندي البسيط أهم بالنسبة إليّ من كلّ قادة الفصائل الذين سعيت للقائهم. ما قاله هامٌ ومفصلي في كتابة سيناريو فيلم عمّا يجري في محافظة الرقة. أتصوّر أنّ زيارة خاطفة للمكان تكفيني للحصول على تصور كامل للفيلم.

قلت باستياء: «وآناتا وأنتونيتا؟ أين هما من الفيلم!» قال مواسيًا:

«ستجدينهما، عندي شعور يقترب من اليقين أنّهما على قيد الحياة، وستعودان إلى حضنك بأقرب وقت. أتعلمين؟ أحياناً أفكّر لو كانتا ابنتيك حقّاً، لن تهتمي لأمرهما هكذا!». قلت بلهجة تأنيب: «ليست الأم التي تنجب فقط، وأنت تعرف هذا، لقد حقّقتا لي ما حرمني الله منه، حدّ أنّي يوم عمادهما، شعرت حقّاً أنّي من أنجبهما.. وأنهما كانتا هنا في رحمي.. لأنّك رجل لن تستطيع فهم ما أقول». اعترض بحدّة: «بل أفهم، وأحسّ، لماذا تعتقدين أنّ المشاعر الخاصة بالمرأة عصية على فهم الرجل! غريب أمركن». قلت بنبرة أقرب إلى الهمس: «ربّما رفعت صوتي قليلاً لأنّي متوترة. أعتذر، أنت لا شكّ تعرف كم أحبّهما وستعذرني. أشعر أنّي المسؤولة في وضعهما داخل الخطر». قال بودّ: «ولماذا تحمّلين نفسك المسؤولية، إنّهما ناضجتان بما يكفي لاتخاذهما قرارا بهذا الحجم، وتدركان الخطورة التي تحفّ به. أنت نصحتهما بعدم المجيء، وهما أصرّتا على ذلك».

قلت: «صحيح، لكنّ تعلّقهما بالمجيء إلى سوريا ليس وليد اللحظة، بل أنا من أوحى لهما بذلك منذ طفولتهما. أذكر كلّ التفاصيل، وكأنّها تجري الآن أمامي.

عرّابة الغربة

ميلانو.. لم يكن اختياري لإيطاليا عشوائياً، بل بسبب القوانين السارية في عام 1981 والتي قدّمت لي تسهيلات في السّفر. وأيضاً لم تكن ميلانو مقصدي؛ لأنّي أعرف شيئاً عنها بل المصادفة وحدها وضعت في طريقي صديق سمية الجزائري الذي زودّني بعنوان قريب له يسكن في ميلانو، وقال، إنّه سيساعدني ريثما تستقرّ أموري.

نزلت ضيفة عنده في شارع بادوفا شمال شرقي ميلانو.. يقطن الحي خليط عجيب من البشر، لم أستطع استيعاب وجوده في هذه البقعة من الأرض، وأنا التي لم أرَ طيلة عقدين من عمري سوى السوريين، وطالبين جزائريين، أحدهما زودني بعنوان صديقه المغربي الذي استضافني مدّة أسبوعين ريثما تمكّنت من إيجاد سكن عند سيدة أرملة في الشارع نفسه. بيتها كان قريباً من موقف الباص، وتحته على طول الشارع محلات للسكّان العرب، والمغاربة. حين نزلت لأتسوق أوّل مرّة، لم تعقني اللغة. فمحل المصري بجانب المغربي، فالجزائري، فالباكستاني، بالإضافة للأفارقة، والقادمين من أمريكا الجنوبية.

السيدة التي سكنت عندها، كانت في التسعين من عمرها، لكنّها تملك روح فتاة شابة، لم أرها يوماً من دون مكياج، أو تنتعل حذاءً من دون كعب.. منظر ساقيها عندما تجلس، وتضع إحداهما فوق الأخرى، تنبئان عن سيدة رياضية، تعتني كثيراً بجسدها. وعلى الرغم من بقايا الجمال، والأناقة المفرطة، إلاّ أنّ روحها لم تكن جميلة، فهي تبث الطاقة السلبية حولها حين تجلس، من خلال نظراتها، وحركاتها. لم أكن أعرف وقتها من الإيطالية سوى بضع كلمات لا تساعدني على فهم ما تريد، وهذا ما كان يوتّرها، ويزيد من حدة صوتها وارتفاعه حين تحدثني. مع الأيام تعودت على المعيشة بالحدود الدنيا من الحريّة، فهي تفرض عليّ نظاماً في التقنين، عليّ ألاّ أستعمل الغاز سوى مرة واحدة لغلي فنجان القهوة. الحمّام مرّة واحدة في الأسبوع؛ لعدم هدر المياه. يجب أن أخلع حذائي قبل الدخول إلى البيت، وأنتعل خفاً نظيفاً. عليّ تنظيف البيت مرتين في الأسبوع. الضوء يجب أن ينطفئ في الساعة الثامنة مساء، إن كنت أريد القراءة بعد هذا التوقيت يجب أن أخرج إلى الشرفة الصغيرة المطلة على الحديقة، وأقرأ على الضوء الباهت لإنارة الشارع مهما كان شكل الطقس! لم أعترض على أيّ أمر من أوامرها، فقد كنت بحاجة لبيت يؤويني، وكنت أغادر كلّ يوم؛ للبحث عن عمل، وأعود بالخيبة!

اضطررت للعمل في مطعم لمدّة أشهر، كنت أعمل ساعات طويلة، ورثتني آلاماً رهيبة في فقرات ظهري، أثناء ذلك تعرّفت على صاحب محل أزياء، قال، إنّه بحاجة لبائعة. عملت عنده شهرين، لم أقبض فيهما أجرتي، سرّحني من العمل؛ لأنّي لا أتقن اللغة جيداً، ولا أستطيع

التّفاهم مع الزبائن بسهولة!

جارتي ميشيلا الطيبة التي تسكن في الطابق الأوّل التقت بي ذات مساء وأنا عائدة من عملي، سلّمت عليّ بودّ، وسألتني عن أحوالي، فأخبرتها بما أعانيه من صاحبة البيت، ومن العمل، حتّى الطعام كنت أشتريه من السوق، وآكل في الحديقة؛ كي لا يتسخ البيت. الجارة أبدت تعاطفاً كبيراً معي، كانت سيدة في الثلاثين من عمرها، حامل في طفلها الأوّل، جميلة، وهادئة. توطدت الصلة بيننا، وفاجأتني في أحد الأيام، بأنّها وجدت لي عملاً في أحد المشافي. كان عملي في الفترة الليلية، أنظف الأرضية، وألمعها، وأغيّر ملاءات الأسرّة، وأسمع أنين المرضى يلاحقني حتّى وأنا نائمة! وانقلبت حياتي، صرت أنام في النّهار، وأعمل في الليل. إلى أن جاء يوم سمعت صراخ ميشيلا قبل خروجي إلى العمل بدقائق، كانت في حالة طلق، ولم يكن زوجها موجوداً! الجوّ في الخارج ماطرٌ، والريح تجلد الشجر، والحجارة. أحضرت لها تاكسي، ونقلتها إلى المستشفى. لم يكن الطبيب موجوداً حين وصلنا، سعيت وراء الممرضات لإدخالها غرفة العمليات، قلن لي، سجلي في الاستقبال أولاً، لنعطيها غرفة، وبعدها ندخلها إلى العمليات! لم أنتظر، أدخلتها إلى إحدى الغرف، ساعدتها في الاستلقاء، وفي اللحظة ذاتها تدفقت مياه الرأس بين ساقيها. لا أعرف ما الذي جعلني أقدم على ذلك التصرف، لكنّي وجدت نفسي أساعدها لتضع مولودها، وأصرخ بالممرضة لتساعدني. خلال ربع ساعة، ولدت طفلة جميلة على يديّ هاتين. ثمّ عادت ميشيلا تتوجّع وتصرخ. كان هناك طفلة أخرى جاءت مجعدة الجلد، وصغيرة الحجم، ولم تتوقّف عن البكاء! حين حضر الطبيب،

كنت قد أنجزت العمل كلّه، واستراح التوءم في الحاضنة، وأغمضت ميشيلا عينيها.

بعد تلك الحادثة، منعني الطبيب من العمل في التنظيف، وطلب مني أن أعمل في عيادته الخاصة، ساعات عمل أقلّ، وراتب أفضل.

بعد موت صاحبة المنزل، صرت أعمل خمسة عشرة ساعة في اليوم، أقسِّمها بين دوامي في العيادة، والعمل مربية لتوءم ميشيلا. وانتقلت للعيش في شقتها. اختارتني ميشيلا لأكون أمّاً بالعماد للطفلتين. لم تكن المرّة الأولى التي أدخل فيها الكنيسة يوم معمودية الطفلتين، فكثيراً ما كنت ألجأ إلى كاتدرائية الدومو[22] في أيام الآحاد حتّى ظنّ جيراني أنّي مسيحية. وشاءت ميشيلا أن تعتقد أنّي أرثوذكسية مثلها؛ كي تستطيع ائتماني على حياة ابنتيها، وتعليمهما، وصرت أمّاً روحية لكلتيهما.

سألتني ميشيلا قبل أن تسجّل اسم الطفلتين في دفاتر المعمودية عما اخترت لهما من أسماء؟ قلت: «آناتا وأنتونيتا». همست بالاسمين مسحورة، وقالت: «كأنّك في قلبي!». كان اختياري للاسمين مدروساً وواعياً، شعرت أنّي أعيد الحياة لأختي كريمة وأمّي زهرة!

نفخ الكاهن ثلاث مرّات راسماً إشارة الصليب، وقائلاً، باسم الآب، والابن، والروح القدس.. ووضع يده على رأسيهما، وقرأ الصلوات، طالباً من الله حفظهما تحت ستر جناحيه. كان عليّ أن أقوم بالطقس التالي الذي درّبتني عليه ميشيلا، وهي تسخر من قلة إيماني، وجهلي بالطقوس! استدرت صوب الغرب، والكاهن يسألني: «أترفضين الشيطان، وكلّ أعماله، وجميع ملائكته، وكلَّ عباداته، وسائر

(22) تصنف ثالث كاتدرائية في العالم، اسمها يعني بيت الله.

أباطيله؟ وأنا أجيب، «نعم» كان عليّ بعد ذلك أن أبصق على الأرض التي تمثّل الشيطان، لأؤكد رفضي، وكراهيتي له! هذا المشهد كان أصعب مشهد أؤديه في حياتي، لأنّي كنت أكره هذا الفعل بشدّة، وأكره كلّ من يقوم به.. ولا أستطيع النظر إلى شخص يقوم بذلك أمام الآخرين! ثمّ استدرت صوب الشرق لقبول المسيح، والكاهن يسألني، إن كنت أوافق المسيح، وأنا أجيب، نعم، بالنيابة عن الطفلتين! أنا أقبل دستور الإيمان، وأسجد للرب، ثمّ أتساءل، «ما الذي أفعله؟ كيف أنوب عن روحين في قبول دينهما؟ من أكون أنا لأقوم بذلك؟ انتفضت فجأة، وميشيلا تلكزني، والكاهن يناديني، كي أحمل الطفلتين، وأدور بهما مع الشموع، وترتيل «أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم»، في توقير دائم للثالوث الأقدس. الدوران الدائري رمز للفرح الروحي، والأزلي. الدائرة لا بداية، ولا نهاية لها، كما أنّ الملكوت، لا بداية له، ولا نهاية، أزلي. الشموع صورة لقناديل العذارى، العاقلات، المستعدات للدخول مع العريس إلى الملكوت. هكذا المُعمّد مستعد للدخول إلى ملكوت المسيح. نفوسنا مستنيرة كالعذارى حاملة نور الإيمان». كنت أرتل ما حفظته من قلبي، لم أكن أشعر أنّي في المكان الخطأ! ربّما تلبسني شيطان زهرة، أمّي التي كانت تحفظ الكثير من الصلوات المسيحية، ولا تعرف آية واحدة من القرآن، وبالكاد، استطاعت في آخر حياتها، أن تحفظ الفاتحة، وثلاث سور قصيرة، لا تفطن لقراءتها إلاّ في مناسبات العزاء!

حملت الطفلتين إلى باب الهيكل، وبعد طقس المناولة، خرجنا من الكنيسة، أنا أحمل آناتا، وميشيلا تحمل أنتونيتا.

كبرت آناتا أمام عينيّ. جمالها اللافت للنظر يشعرني بأنّي امتلكت حدساً استثنائياً حين اخترت لها اسمها في العماد. إنّها نسخة من أختي كريمة. لكنّها أقصر قامة منها ببضع سنتميترات. شعرها الكستنائي الكثيف المنسدل على كتفيها أفتح قليلاً من شعر كريمة، لكنّه كثيف وطويل مثل شعر بنت النواعيري.. هكذا كانت جدتي تقول لكريمة عندما كانت صغيرة، متباهية بطول شعرها، ولونه، وكثافته: «ولا شعر بنت النواعيري» وبنت النواعيري تلك -على ذمة جدتي- كانت حين تتنزّه في البساتين الممتدّة وراء النواعير، تفكّ عقدة من شعرها؛ ليغطي المسافة وراءها، حتّى أنّ من يرى أطرافه لا يستطيع أن يعرف أين صاحبته! لكنّه يدرك أنّها تتمشّى على شاطئ العاصي!

أمّا وجهها بتقاطيعه الرومانية الجميلة، فهو ذاته، لكنّ أختي كانت بكريمة[23] واحدة، بينما آناتا تملك عينين خضراوين سليمتين، ومشرقتين، لا تفارقهما لمعة الابتسامة الصافية، والإيحاء العفوي بالنضج. لم أكن أحمل العاطفة نفسها لأنتونيتا، من دون سبب ظاهر، كان اهتمامي منصبا على آناتا، حرصت على تعليمها الكلام، والمشي، قبل أن أعلّم شقيقتها. أحياناً كنت ألوم نفسي؛ لأنّي أفرّق بينهما في المعاملة، لكنّ شيئاً خفياً يربطني بآناتا، أكبر من أن أستوعبه. كبرت أنتونيتا في الظلّ، كانت طويلة، ونحيلة، وشعرها أسود، تحرص على قصّه دائماً، ليبدو عنقها الطويل مشرقاً ببياضه. كانت قليلة الكلام، وقارئة نهمة، ولم تكن تستهويها التكنولوجيا مثل شقيقتها. آناتا كانت مغرمة بالحفلات، والمشي ساعتين كلّ يوم. مارست أنواعاً كثيرة

(23) كريمة: لفظ يطلقه بعض سكّان سوريا على العين.

من الرياضة. لكنّها لم تثبت على حال. فقد انضمت إلى فريق للجمباز في طفولتها. ما لبثت أن تركته. وتعلّقت بالباليه. ثمّ تركتها. وقرّرت أن تلعب كرة طائرة. ثمّ اكتفت بالمشي. بعد أن أغرمت بالكمبيوتر. وتعلّمت برمجته. كانت أوّل فتاة في الحي تقتني كمبيوتر. ومنذ ذلك الوقت. لم أعد أستطيع إضافة أيّ شيء في تربيتي لها.. فقد تجاوزتني بالعلوم. والمعرفة. وصرت بالنسبة لها صديقة فقط. تحدّثني عن اهتماماتها. ومشاكلها. وغالباً لم تكن مشاكلها عاطفية. بل تقنية! ولم أكن أفهم في تقنية الكمبيوتر. ولم أستطع أن أتعامل معه أبداً.. لكنّ آناتا أجبرتني على الجلوس بجانبها. وهي تعمل. وأصرت على تعليمي كيف أفتح الجهاز. وكيف أستخدم محرك البحث. وكيف أكتب في ملف. وكيف أغلق تلك النوافذ الافتراضية. وأطفئ الجهاز.

دفعني الفضول. وغياب آناتا. ذات يوم. لاكتشاف هذا العالم الغامض المرتبط بجهاز أخرس. ما يلبث صوته حين يعمل أن يضغط على أعصابي. ويتلفها. كانت أنتونيتا جالسة في زاوية الصالة تقرأ حين شغّلت الجهاز. وفتحت محرّك البحث. كما علّمتني آناتا. رفعت أنتونيتا رأسها. ونظرت إليّ باستغراب. وقالت: «متى تعلّمتِ العمل على الكمبيوتر ماما؟» ضحكت. وأخبرتها أنّي لا أعرف. لكنّي سأجرّب فقط». استغرقت التجربة ساعتين كاملتين من دون أن أنتبه. لم أشعر إلاّ وآناتا تضحك بصوت عالٍ. وتصفّق بيديها: «برافو ماما. تستحقين هدية على هذا الإنجاز. وهديتي لكِ حضور حفلة موسيقية لأوركسترا فيا بادوفا». التفت إليها. وقلت: «لا مزاج لديّ لحضور حفل. استبدليه بوجبة كباب من مطعم رؤوف المصري» ضحكت

أنتونيتا -ومن الغريب والنادر أن تضحك- وقالت: «أنا أيضاً موافقة، من سيدفع ثمن الغداء؟ هاتوا النقود، وأنزل أنا لأحضر لكنّ الوجبة».
لم أعرف في ذلك الوقت ما الذي جعل أنتونيتا تترك الكتاب، وتنهض بسرعة ونشاط، وتنزل لتشتري لنا الطعام! لكنّي لمحتها بعد فترة في مطعم «جحا» تتناول غداءها مع شاب أسمر يحمل ملامح مصرية.
خفق قلبي بشدّة، وأردت التوقف، والدخول إلى المطعم لتراني، لكنّي عدلت عن ذلك، وتابعت طريقي إلى البيت. انتظرت طويلاً أن تبوح لي أنتونيتا بمشاعرها، وأن تخبرني أنّها على علاقة بشاب ما، لكنّها لم تفعل. أعرف طبعها وتكتمها على حياتها الخاصة، ولم تكن لي سلطة في توجيهها بعد أن تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها.

استهواني أمر البحث، صرت أقرأ كلّ شيء يخرج لي من دون تحديد، لكن لم يخطر لي مرّة أنّ هذا الجهاز العجيب سيتحكّم بحياتي، ويوجه دفتها صوب أمريكا! كنت قد تجاوزت الأربعين في ذلك الوقت، ورحلت ميشيلا عن عالمنا، وتركت لي ابنتيها، وكان والدهما قد ارتبط بامرأة أخرى، وسكن في بلدة «غالياتي» التي تبعد حوالي خمسين كيلو متراً عن ميلانو.. وبالرغم من أنّ المسافة قريبة، لكنّ الفتاتين لم ترغبا بزيارته سوى مرّة في الشهر! وأحياناً تدّعيان النسيان، ولا تذهبان في موعدهما.

دخلت أنتونيتا ذات مساء غرفتي، وجلست على حافة السرير، وقالت بشكل مباشر، فاجأني: «ماما، ألا تفكرين بالعودة إلى وطنك؟».
نهضت كالملسوعة. شعرت بأنّ جمراً حرق قلبي، وفاض الدمع من عينيّ، ولم أستطع إيقافه. وطني! ما معنى هذه العبارة؟ لم أفكّر منذ

سنوات طويلة بمعناها، ولم أشعر أنّي فقدت وطناً. أحياناً أتذكّر أمّي، أبي، شقيقتيّ. القبور، الورد، شجرة توت ضخمة على حافة سهل. ملامح غير واضحة لامرأة عجوز، أعتقد أنّها جدتي. ملامح قاسية، وصلبة، ولا تعرف الابتسامة لرجل أعتقد أنّه جدي. لكن ماذا يعني الوطن؟ أهو قبور هؤلاء؟ كنت فيما مضى أعتقد أنّ الوطن يُختصر في شخص آرام. بعد رحيله، وسفري، لم يعد هناك وطن. فقدت هذه الكلمة ألقها، ومعناها. سألتها، ماذا تعني كلمة وطن لها؟ قالت: «إنّ الوطن حيث أحبتي.. مثلاً أنا وطني هنا في بيا بادوفا؛ لأنّ حليم يقيم فيه.. لا يمكنني أن أتصور وطناً لا يوجد فيه». ضممت أنتونيتا إلى صدري، وهمست لها: «إياكِ أن تتركيه يضيع من يدك.. إياكِ». صارت أنتونيتا بعد اعترافها ذاك، تغلق باب غرفتها، وتسمع أغاني عبد الحليم حافظ. كلّ مساء تتسلّل إليّ أنغام الأغاني فأشعر أنّي هناك ببيتنا في المشارقة، ومسجلتي الصغيرة قرب أذني، وعبد الحليم يغني: «سافر من غير وداع، فات في قلبي جراحه، دبت في ليل السهر، والعيون ما ارتاحوا». لماذا هذه الأغنية بالذات؟ طلبت من أنتونيتا أن تخفض الصوت، لا أريد أن أسمع المزيد، قالت، إنّ حليم أهداها القرص المدمج الذي يحوي على أغاني عبد الحليم، وقال لها، إنّ أمّه تحبّ هذه الأغنية أكثر من باقي الأغاني، وأنّها سمّته حليم؛ لأجل ذلك! غافلتني ابتسامة متآمرة: «لا شكّ أنّ أم حليم عاشت قصّة تشبه قصتي.. كم تتشابه قصص الحبّ الأوّل عند النساء!».

قصّة حليم وأنتونيتا لم تنتهِ بالزواج، فالشاب العربي لم يحتمل عقله أن تطالب الفتاة بعدم تدخله في شؤونها الخاصة، صار يضيّق عليها،

ويرهقها بغيرته، وأسئلته الكثيرة الممزوجة بالشكّ في البداية، والاتّهام الصريح فيما بعد. رمت له هداياه، وصمت عبد الحليم! لم أعد أسمع أغانيه قادمة من غرفتها، بل صارت تتسلّل خلسة من كوابيسي، وترعبني فكرة العيش بالماضي مرّة أخرى بعد زمن من النسيان، قطعت خلاله كلّ صلة لي بتلك الأحاسيس الحارة غير الناضجة التي رافقت شبابي! والتي فاجأتني دفعة واحدة كصدمة كهربائية حين رأيت صورته على محرك البحث، وبالمصادفة البحتة.. آرام! وبعد هذا العمر، يعود ثانية ليصبح هاجسي، وليدفعني إلى الهذيان باسمه من جديد. صرت أعاتبه بأحلام يقظة لا تنتهي. ووجدتني متورطة بحبّه ثانية. هل عاد حبّه، أم أنّه لم يفارقني يوماً؟ لم أجد إجابة شافية، فالواقع يقول، إنّي كنت غارقة في التفاصيل اليومية لحياتي في إيطاليا إلى درجة لم أفكّر فيها بالماضي أبداً، حتّى علاقاتي مع الرجال كانت هامشية، وعابرة، ولا ملامح لها! سؤال أنتونيتا كان الشرارة التي أشعلت كلّ الحرائق وأتت على الأخضر واليابس في روحي. لكنّ السؤال الذي لم يفارقني، ما معنى العودة إلى وطن لا وجود فيه لآرام؟ ما معنى العودة إلى وطن لا وجود لقبر أبي فيه! أبي الذي لم أعرف إن كان جسده قد استقرّ في مشرحة كلية الطب، أم رُمي للكلاب الضالة على أطراف حلب! أبي الذي لم يفارقني طيلة تلك السنوات، ومازال يعاتبني؛ لأنّي لم أجد له قبراً يرتاح فيه، ولم أزرع له وروداً فوقه!

كان عليّ الخروج من تلك الحالة البائسة، ولم يكن أمامي سوى التغيير كما اقترحت عليّ آناتا، قالت لي: «لماذا لا تسافرين إلى أيّ بلد، تجدّدين الدّماء الراكدة في عروقك، وتعودين إلينا أقوى، وأجمل؟».

أقوى! وأجمل... كلمتان فعلتا فعل السحر في روحي، لكن ما لم تعرفه آناتا أنّي حين وافقت على فكرتها. سافرت لاستعادة ماضٍ سُرق مني، آملة أن تتحرّك الدّماء في عروقي، وأنهي مرحلة البيات الشتوي، كما وصفتها أنتونيتا.

مدن القلب

فوجئتُ في الصباح الباكر حين استيقظت بإشعار على هاتفي يخبرني أنّ «أسد الله» اتصل بي. «أسد الله» وضع لايك على منشور لي.. «أسد الله» علّق على صورة لي! «أسد الله» أرسل لي رسالة.

فتحت الرسالة بلهفة، وجدته قد كتب لي، «سآتي غداً لاصطحابك إلى شخص، بإمكانه أن يدلنا على مكان آناتا. انتظريني». رفعت عينين دامعتين عن كمبيوتري المحمول، رأيت لورينزو يتأملني، وهو يرشف قهوته على مهل. قلت باستغراب: «ما الذي أيقظك باكراً، وأنت لم تنم قبل الفجر؟». قال باهتمام: «أنتِ، كنتِ تعانين من كوابيس لا تطاق، وناديتِ آناتا، وآرام، وهمستِ باسمي، حين اقتربت من سريرك، رأيتك نائمة، ولم أستطع العودة إلى النوم ثانية، فقرّرتُ أن أبدأ بكتابة سيناريو قصة علي». ضحكت، وقلت: «لا تستعجل بالكتابة، ربّما ستضطر لكتابة سيناريو آخر بعد عودتي من الرقة. سألني باهتمام: «متى ستذهبين؟». ناولته الهاتف ليقرأ رسالة «أسد الله حمزة». هزّ رأسه بارتياب، وقال: «ألن تغيري رأيك، وتدعيني أرافقك؟». أكّدت رغبتي في بقائه بعيداً عن هذه المخاطرة. قلت: «ماذا سترى؟ لا جديد

هناك، كلّ المدن مُدمّرة!». قال بثقة: «الحروب تدمّر المدن، ولكنّها لا تلغي قداستها، سيأتي أناس آخرون في زمن ما، ويعيدون بناءها، وستبقى خالدة، مهما حاول تشويه ملامحها. ألم تعد روما مرّة أخرى، وبقوة، بعد أن أحرقها نيرون؟». قلت: «ولماذا روما وحلب أمامك؟ ألم يدمّرها الفرس والمغول؟!». قال: «دعينا ندخل مدن القلب، ما شأن آرام معك؟». قلت: «لا أعرف، أجهل ما ترمي إليه». قال متبسماً بسخرية: «الفضيلة هي استمرار الجهل!». قلت بألم: «لماذا تنبش دائماً وراء قصّة آرام؟ هل ستكتب عنها أيضاً، أم ستحولها إلى فيلم؟». قال: «وما الخطأ في ذلك؟ قصص الحبّ الأوّل أكثر القصص التي تثير مخيلتي، وتجعلني أبدع». ضحكت: «تريد أن تبدع على حسابي إذن؟ لا بأس سأشبع فضولك، ماذا تريد أن تعرف؟ أظنّك تريد أن أخبرك، إن كانت علاقتي به حميمة، ربّما سيخيب ظنّك حين تعرف، أنّ ما بيني وبين آرام لم يتجاوز مصافحة عابرة، لا حرارة فيها!» قال بدهشة: «فقط!» قلت: «تخيّل! هذا ما حدث» ضحكت، وتابعت: «هل صدّقت؟ لا أنكر أنّه عرض عليّ، ولا أعرف ما الذي جعلني أرفض طلبه بالضبط، هل كنت أخشى أن تختلط صورة الحبّ بعلاقة جسدية، لم أكن على يقين بعد أنّي أرغب فيها؟». قال بأسف: «لقد تغيّر كلّ شيء، حتّى الحبّ. لم يعد كما كان». قلت: «هل تعتقد حقّاً أنّه يتغيّر؟ الحبّ يملكُ وجهاً واحداً، ملامحه لا تتغيّر، الرجال فقط هم الذين يتغيرون». استنفرت حواسه، حدّق فيّ، وكأنّه يراني للمرّة الأولى: «أنت تهذين ولاشكّ، لو كان الرجال هم الذين يتغيرون والحبّ واحد، لكنتِ أحببتني كما أحببتِ آرام!». قلت: «أنت أخطأت الفهم.. لم أقل

أُبدِّل رجلاً بآخر، قلت يتغيرون، وقصدت ذات الرجل، أمّا الحبّ فهو على حاله في كلّ زمان ومكان».

لم تكن تلك العبارة خاتمة حديثنا في اليوم الأخير لوجودنا في «العطشانة» لكنّها العبارة الأكثر بقاء في روحي فترة الغياب.

وصل «أسد الله حمزة» في صباح اليوم التالي مبكراً، وأبدى حماساً لاستضافة لورينزو في بيته المدّة التي يريدها. لكنّ لورينزو اعتذر؛ لأنّ لديه مشاغل، ومخططات، تقتضي منه مغادرة تركيا، ولم يفصح عن وجهته!

ركبنا سيارة خاصة، حين وصلنا سرمدا، قادها «أسد الله» بنفسه. طيلة الطريق كنت أشعر بالغربة، لم أكن أعرف الطرقات التي عبرتها السيارة، فقد كنت أظنّ أنّنا سنذهب من طريق إدلب القديم صوب ريف حلب، ثمّ نسلك طريق الرقة.. لكنّ «أسد الله» سلك طرق إدلب المحافظة، ومنها إلى مدخل أريحا، ثمّ انعطف في الطريق العام.. انقبض قلبي، وأنا أرى حواجز الجيش على الطريق، وزاد انقباضه، حين كانت السيارة تمرّ من دون توقف! كان قلبي يخفق بشدّة، وتوقعت أن يطلق الجنود النار على السيارة؛ لأنّها لم تتوقّف، لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث، ولم أجرؤ على سؤال «أسد الله» عمّا يجري! لاحظ خوفي، وانكماشي في المقعد، وصمتي، فقال: «هذا الطريق مختصر جداً، هكذا نستطيع الوصول إلى حلب قبل الظهر، وقبل المساء نكون في «العطشانة». قلت باستغراب: «العطشانة! أين تقع؟» قال: «نعم، قرية تابعة للرقة، أتعلمين؟ أنت تملكين شجاعة استثنائية، القرية معروفة منذ بداية الثورة، والناس صارت تعرف كلّ المدن المنسية،

كم أنتِ بسيطة، وتلقائية حين تعلنين أنّكِ لا تعرفين شيئاً عن أمر يبدو بدهياً وعادياً بالنسبة للآخرين!».

قلت: «لستُ شجاعة، أنا أضعف مما تظن، أنا هشة جداً، وقابلة للكسر تحت وطأة أيّ ظرف، ليس شرطاً أن يكون عصيباً، يكفي أحياناً كلمة لتدميري!».

تقع «العطشانة» أقصى الشرق من مدينة الرقة، إلى جانب مدينة «معدان».. أوقف السيارة قرب «حرش الزل» المجاور لمصرف زراعي تجري فيه المياه المالحة المنتوحة من أرضٍ زراعية. نزل من السيارة، وغاب داخل الحرش دقائق طويلة. حين عاد، كان وجهه يحمل تعابير لا يمكن تفسيرها. بقيت صامتة، لكنّي أخذت أدقق في الطريق جيداً، لأحفظ ملامحه. كنت على يقين أنّ ذلك لن يفيدني شيئاً، وأنّي وقعت في فخ لا فكاك منه. لكنّ شعوراً بالرضى ما لبث أن سيطر عليّ، فقد أتيت من أجل البحث عن ابنتيّ، وليكن بعد ذلك الطوفان!

البيت الذي وصلنا إليه، كان بيتاً ريفياً، من طابق واحد، أحيط بسور حديث من الحجارة والأسلاك الشائكة، ورُصفت أكياسٌ من الرمل أمام مدخله بارتفاع مترين بحيث تخفي قامة الحارس الواقف وراءها.

قال «أسد الله»: «اعتبري نفسك في بيتكِ، لن يزعجك أحد، سأكون في مكان قريب جداً، إن احتجتِ شيئاً بإمكانك إرسال الحارس إليّ».

وضعت أمتعتي في زاوية الغرفة، وخلعت الملاءة والنقاب، وارتميت على سرير أنّت نوابضه الحديدية بطريقة أفزعتني. وقفت مرّة أخرى، وفرشت فوق الأرض لحافاً، قبل أن يستقرّ جسدي فوقه، كان النعاس يغلق جفنيّ.

عرّابة الوهم

شهران مرّا على سفر فضيلة إلى الرقة، ولم يصلني منها أيُّ خبر يُطمئن قلبي عن مصير آناتا وأنتونيتا على الرغم من تنوع وسائل الاتّصال وكثرتها! غيابها أحد الأسباب التي أتاحت لقلبي أن يستعيد خفقاته وسط كم الخراب الرهيب من حولي. حلب مرّة أخرى تجذبني للعودة إلى رحمها. لم أكن أفكّر بالعودة بشكلٍ جدي بعد ما لحق بها من دمار جعل قلبي يشيخ ويتهاوى. ربّما كانت منشورات حنين عن العيد هي السبب، ففيها حداء حزين ساق روحي إليها من دون أن تترك لي فرصة للتفكير.

كانت مزارع الفستق على يمين الطريق إليها تهدهد بألوانها المبهرة وجه الصّباح فيروق الجوّ، وتتلاشى أصوات القصف البعيد. الفستق الحلبي سرٌّ من أسرار انجذابي لحلب، في ماضٍ ليس ببعيد كنت مغرماً بمنظره في الصواني بعد نزع قشرته الخارجية، صورٌ كثيرة التقطتها لصواني التجفيف أيام الصيف، ما زلت أحتفظ في ذاكرتي بتلك الأشكال التي تتركها قبضة يدي في الصينية حين أسرق منها وأملأ

جيوبي ثمَ أعيد فرد الحبات بشكلٍ متساوٍ لإخفاء آثار الجريمة. كان الفستق متاحاً أمامي، لكن لسرقته لذّة لا تقاوم، لذّة تجعل طعمه قبل أن يجفّ تماماً أطيب طعم يمكن أن أتذوقه. اكتشفت متأخراً أنّه على الشجر أجمل، وأنّ له معزوفة خفية يسمعها من ينام ليلاً في البساتين ويستيقظ على زقزقة الحبات وهي تتفتّح كاشفة مفاتنها الغضة قائلة: «هيت لك». حنين أيضاً كانت تكشف وجهها مع طلوع الفجر فيتوضأ النّهار بطلعتها، وتستحم الشّمس ببقايا نداوتها.

في عودتي الأولى إلى حلب، لم أكن أظنُّ أنّ لعنة تلك العينين الساحرتين للراعية الحسناء قد أصابت قلبي، على الرغم من يقيني أنّ هناك قوة خفية أقوى مني تحملني على العودة إلى هناك. لم أجد يومها -في بداية الثمانينات- خيام النوَر؛ لأنّ المنطقة قد اكتظت بالبناء حتّى لم يبقَ فيها متنفساً لشجرة! اخترت سكناً قريباً من المكان، وصرت أراقبه عند الفجر قبل أن تبدأ الحافلات ضجيجها المعتاد. كانت الحديقة في ذلك الوقت ما تزال جرداء إلاّ من بضع شجيرات قزمة وضعت على عجل في أماكن متفرقة.

كثيراً ما توقعت أن تظهر قادمة من الغرب تهشّ بعصاها على أغنامها، مرتدية تلك الملابس الغريبة التي تصدر حفيفاً مصحوباً بصوت أساور وأطواق وخلاخيل غير مرئية! لكنّ المفاجئ لي هو ظهور طفلة صغيرة بيضاء بعيون عسلية وشعر مضفور على شكل جديلة بلون البندق، تلعب على أطراف الحديقة لدقائق، وتمضي!

لم تكن عيناها سوداوين متوحشتين، ولم يكن في جيدها أطواق ولا في قدميها خلخال. كان هناك قرط ذهبي يتدلى من إحدى أذنيها يبدو

من حجمه أنّه أثقل من أن تحمله أذن طفلة، ذلك القرط الذي لمع أمام عينيّ مراراً، رأيته أمامي -بعد سنوات- على صفحتها مسجّى وسط كومة من الياسمين وقد كتبت تحته «هذا ما تبقّى منها». عبارة غامضة دفعتني لإرسال طلب صداقة إليها مرفقاً برسالة. «هذا القرط بعضٌ مني فمن هي صاحبته؟». ردّت عليّ مباشرة: «كيف يكون بعضك ولا تعرف صاحبته؟». كتبت لها: «كان لطفلة تلهو على أطراف حديقة قيد الإنشاء في آخر خط صلاح الدين منتصف الثمانينات من القرن الماضي». قبلت الصداقة، وأرسلت لي صورة أخرى لطفلة في السادسة من عمرها عيناها نصف مغمضتين من انعكاس الشمس على وجهها، في أذنها قرط من الذهب ينتهي بكرة من الألماس لم يظهر منها سوى الضوء!

كنت خائفاً من كشف غموض ذلك القرط ليقيني أنّ وراءه قصة تخصني وسيؤلمني أن أعرفها، لكنّ «حنين» روت لي قصّة أمّها النورية التي أحبت عابر سبيل أجنبي تركها قبل أن تلد، ولم يكن لديها من متاع الدنيا سوى ناقة وبضع عنزات، عندما أزالت البلدية الخيام باعتها واشترت بيتاً على العظم، صنعت من القماش نوافذه وأبوابه. وحين جاءها المخاض لم يكن لديها سوى قرطين أهداهما لها ذلك الرجل، أعطت أحدهما للداية التي اعتنت بها وبالمولودة، واحتفظت بالآخر. يوم ولادتها كانت أمّها تسمع صوت الناقة يستجديها في كلّ فجر، فأسمتها «حنين». ماتت أمّها قبل أن تبلغ عامها الأول، وتبنتها امرأة ثرية عزباء، كانت تدعوها عمتي. قالت لي: «في دمي حنين لأشياء أدركها بروحي ولا أعرفها، أعاني من رهاب الأماكن المغلقة، وأحبّ

أن ينضج جلدي تحت الشّمس ويتخلّى عن بياضه! لا أحبّ العيون الملونة، أشعر أنّ هناك خطأ ما في ملامحي مع هذا لا أرغب في تغييرها. كثيراً ما أمشي في الشوارع تحت المطر من دون غاية حتّى تبتلّ عظامي، وأرقد في الفراش، أتجاهل الكثير من رغباتي؛ لأنّي أدرك أنّ امرأة أخرى تسكن جسدي، وتدفع بي لاقتراف الحماقات. في صغري عشقت العزف على العود، خاصة عندما تنقر أصابع عمتي عليه، كانت تقول لي: «هذا الصوت اسمك، احذري منه حين يكون شوقاً طاحناً فقد أودى حنينه بالكثيرات، فأصبحن أطيافاً تعبر في الأمسيات ذاكرة من ينقرون عليه قبل أن تعلو نغماته، وتتحكّم بدفة الروح، وتحلّق بها. في الليالي الباردة كنت أسمع صوت أمّي يناديني يشفّ بالألم، فأحنّ توجعاً وشوقاً. ليس الحنينُ وحده من كان يبعدني عن العالم ويشقيني، بل ما ربّتني عليه عمتي من رفض للقيود كلّها، فقد كانت فنانة تعشق الرسم والعزف والكتابة، ولم تستطع الاقتناع بوجود رجل في حياتها. ماتت في الأربعين من عمرها، وأورثتني كلّ تمردها. الثورة صقلت تلك المشاعر المبهمة وهذّبتها، وحدّدت لي مسار حياتي».
المخيف في حديث «حنين» كان الجزء الذي يخصّني.. ذلك القرط الذي لبسته أمّي يوم عرسها، واختفى حين توفيت.. ذلك الرجل الأجنبي الذي كان تاجراً سافر لسنواتٍ طويلة إلى حلب، وأخذني معه حين كنت طفلاً، وعبرنا معاً ذلك الخلاء المخيف عند خيام النوَر حين أصابتني لعنة عينيها!
كنّا على موعد في مقهى اللافندر. انتظرتها ساعات طويلة. رأيتها مراراً من وراء زجاج المقهى، خرجت إليها مئات المرات. ولم أجدها!

حين عدت أدراجي إلى سراقب، وصلتني رسالة منها «سيبقى كلٌّ منا يبحث عن قرطٍ ضائع. لكن الأفضل لكلينا ألا نجده. لأنّنا التقينا لأجله، وافترقنا بسببه».

كتبت لها: «من يدري، لعلّنا نلتقي بسببه، ولا نفترق لأجله!» وكنت أعي أنّ ما كتبته محض أمنية مستحيلة التحقق. فلن تنزل حنين من عرش روحي لتتجسّد امرأة أمامي، ولن أرى ضفيرتها الجميلة حقيقة، مادامت لن تخلع حجابها أبداً.

حريم الإمارة

لا أعلم كم كان الوقت، حين سمعت طرقات خفيفة على الباب. نظرت من النافذة فرأيت العتمة تخيّم على الفضاء المحيط بي، وظلال شجرة سدر ترتسم على الزجاج يعكسها نور خفيف، ينبعث من غرفة الحارس. لم أشأ أن أرد، ولا أن أنهض لأرى من بالباب. توالت الطرقات بشكل أقوى، وارتفعت أصواتٌ نسائية تسأل: «ألا يوجد أحدٌ هنا؟». واربت الباب، ومددت رأسي منه، كانت تقف وراءه ثلاث سيدات يتشحن بالسواد من رأسهن إلى أقدامهن، ولا يبدو منهن شيئاً. قالت إحداهن: «مساء الخير، طلب منا الأمير أن نأتي لزيارتك، ونرى إن كنتِ تحتاجين شيئاً». أفسحت لهنّ الطريق بصمت. وجلست بعدهن على أريكة من الخشب، تصدر هي الأخرى طقطقة وصريراً. ما بال الأشياء هنا، كلّها تحتج على استخدامها!

النسوة بقين صامتات لفترة ليست قصيرة، كنّ يتبادلن النظرات، ثمّ يحدقن فيّ، وكأنّهن ينتظرن أن أبدأ الكلام، لكنّ اللعبة استهوتني، رحت أنظر إليهن بثبات، وصمت. من الواضح أنّ واحدة فقط كانت ذات

مكانة مميزة، وهي التي قطعت الصمت، وبدأت الحديث بسؤال: «أين المطبخ؟». قلت باستغراب: «لا أعرف، في الحقيقة نمت فور وصولي، ولم أخرج من الغرفة، لكن لا بدّ أنّ هناك مطبخاً، عفواً، سأقوم بواجب ضيافتكن». السيدة استوقفتني، وطلبت من مرافقتها أن تنهضا، وتبحثا عن المطبخ، وتحضّرا طعام العشاء للضيفة! والتفتت إليّ قبل أن تخرجا، وسألتني: «أليس لديك عباءة ترتدينها فوق ملابسك يا أختي؟»». انعقد لساني، ولم أرد. السيدة مدّت يدها، وناولتني حقيبة صغيرة، حين فتحتها، وجدت فيها عباءة وحجاب، ونسخة من القرآن الكريم. قالت السيّدة: «النبي قبل الهدية، وهذه هدية الأمير إليك. أرسل معي الأخوات لنسألكِ عن احتياجاتك، وستبقى إحداهن معك لخدمتك». أفلتَت مني كلمة تشبه الصرخة: «لا». ثمّ تمالكت نفسي، وقلت بصوتٍ منخفض: «أنا لا أحتاج لمن يخدمني، أعمل كلّ شيء بيدي، ثمّ إنّ إقامتي هنا ليست طويلة، ولا أحتاج لمرافقة». قالت السيّدة بنبرة صارمة: «الأمير من يقرّر كم ستبقين هنا، ومتى سترحلين». كادت صرخة أخرى تفلت مني، لكنّي ابتلعتها، وحدّقت في عيني السيدة. العينان لم تكونا بتلك القسوة والصرامة التي يملكها الصوت، بل كان في نظرتهما شيءٌ مشوشٌ وقلقٌ، حاولت إخفاءه بتحويل نظراتها إلى الشبّاك، وتأمل أثاث البيت. قلت بصوت خافت: «لماذا لا ترفعين النقاب قليلاً؟ أريد رؤية وجهك. أشعر أنّي أعرفك». ارتعش صوت السيدة، وهي تقول: «ليس مسموحاً لي أن أفعل ذلك. أرجوك لا تطلبي مني أمام المرأتين شيئاً مماثلاً». دخلت المرأتان بعد فترة، وهما تحملان أطباق الطعام. رتبتا الصحون في طبق كبير من

القش، ووضعتا قربة ماء، وإبريق شاي.. وتراجعتا إلى الخلف. تقدمت السيدة، ودعتني للجلوس بجانبها، وأومأت لهما، فجلستا!

كان كلّ شيء يوحي أنّي في منام طويل، سأصحو منه لأجد نفسي في بيتي في سهل الغاب، وستشرق الشمس عليّ وأنا أركض في الحقول، وأرتمي على العشب الأخضر تحت ظلال شجرة التوت، وسأفتح كتاباً ما بل رواية ما، رواية الأيام، وستأتي كريمة، وتخطف الرواية من يدي وهي غاضبة.. سأضحك طويلاً حين تجيء أمّي وهي تصرخ: «كفاكما شجاراً، تعالي يا كريمة ساعديني في التنظيف» ستغضب كريمة لأنّها الوحيدة المعنية بالتنظيف، وأنا لا أفعل شيئاً سوى الدراسة!

لاحظت السيدة شرودي فسألتني: «ألم يعجبك الطعام؟». قلت بارتباك: «أبداً، لكنّي لست جائعة، الحمد لله، أنا آكل أيّ شيء، ولا أتعفف، كلّه نعمة من الله، وفضله». نظرت المرأتان إلى بعضهما، ورفعتا معاً في اللحظة ذاتها نقابهما، وبدا وجهاهما كفلقة القمر في يوم اكتماله. إحداهما قالت بالإنكليزية: «ما شاء الله يا خالة، زادك الله إيماناً». حينها عرفت أنّ المرأتين صبيتان إنكليزيتان، جاءتا للجهاد في سوريا! وقع قلبي بين قدميّ، هما تفهمان العربيّة جيداً، لكنّهما لا تتحدّثانها بطلاقة، وقد أخبرهما «أسد الله» أنّي أجيد الإنجليزية، والإيطالية، والألمانية، وبإمكانهما أن تحدثاني بأيٍّ من تلك اللغات. السيّدة نظرت إليهما بضيق، وزجرتهما: «تحدثا بالعربية». والتفتت إليّ قائلة: «الأمير حظر علينا الحديث بلغة أجنبية؛ كي لا نقترف إثماً بتشبهنا بالكفّار». قلت بدهشة: «لكنّهما أجنبيتان، ولا تجيدان العربية، ثمّ كيف سيهدي الأمير الكفّار إذا لم يتحدّث بلغتهم؟».

قالت السيّدة بشيء من اللين: «معك حق.. لكنّهما تجيدان الحديث بالعربية، أمّا أنا فلا أجيد لغة أخرى غير العربية، لهذا منعهما الأمير، كي أفهم ما تقولان!».. قلت في سري «إذن، الطرفان يتجسسان على بعضهما! هذه سياسة الأمير!».

لم أخطئ في فهم نظرات السيّدة التي زارتني، ولم تفصح عن اسمها، كأنّه هو الآخر من المحرّمات! أيضاً كان تخميني لمنزلة السيدة صحيحاً. فقد أخبرتني الفتاة الإنكليزية وبلغة ألمانية صافية، بعد ذهاب سيدتها والفتاة الأخرى، أنّ الحارس يمكنه فهم الإنكليزية فهو شاب سعودي درس في بريطانيا، وأنّ السيدة «أم الحسين» تفهم الإنكليزية جيداً، وإن ادّعت عكس ذلك؛ لأنّ حديثاً خاصاً جرى بينها وبين صديقتها ذات يوم، نُقل إلى الأمير بحذافيره، ولم يكن هناك أحد يسمعهما سواها! وأخبرتني أنّ السيّدة ليس لها أولاد، وأم الحسين لقبها فقط، وهي آخر زوجات الأمير! همست: «الجديدة تحلا، ولو كانت وحلة» وفسّرت المثل للفتاة التي ضحكت من أعماقها، وهي تضع يديها على فمها، كي لا يسمع صوتها الحارس. لم يكن لقب زوجة الأمير، أو عمرها، أو مرتبتها، ما يشغل بالي، بل تلك النظرة الحذرة التي تحمل في عمقها خوفاً ينبئ عن شخصية مختلفة تماماً عمّا تعرفه هذه الفتاة. السيّدة أخذت مساحة كبيرة من الحديث الذي دار بيني وبين الفتاة «زينب» والتي رفضت أن أناديها باسمها الإنكليزي مردّدة: «أنا لا أحبّ أن يناديني أحد باسم «اليزابيث» بل بالاسم الذي سأقوم به يوم الحشر».

مرّ يومان، لم أرَ «أسد الله» خلالهما فأرسلت له ليحضر. حين جاء، سألته بلهفة: «ما الأخبار؟ ماذا قال لك أمير المؤمنين؟ هل عرف أين

هما؟ أرجوك». ردّ بصوت منخفض: «يجب أن تصبري، الأمير أرسل لكلّ أصدقائه يسأل عنهما، حتّى أنّه اتصل بمقر «العطشانة» في العراق ليبحثوا عنهما». قلت بصوتٍ منكسر: «أشعر أنّ الأمر لا يحتاج لكلّ هذا، وسائل الاتّصال تختصر الكثير من البحث، الأمير بإمكانه معرفة مكانهما بسهولة وخلال ساعات». قال أسد الله: «لا أشكّ بمقدرة الأمير، لكن على ما يبدو، هناك تكتمٌ من الجهة الخاطفة؛ لأنّها تريد الدخول بمفاوضات مع الحكومة الإيطالية بشكلٍ مباشر، لزيادة مبلغ الفدية».

ليس من السهل أن أصدّق هذا الادّعاء، فما أعرفه من تمدّد تنظيم الدولة الإسلامية، وسيطرتها على المنطقة، يبدّد أيّ شكّ حول عجزها عن معرفة مصير فتاتين خطفتا في مناطق سيطرتها! لم أعبّر عن شكوكي لأسد الله، فقد كان هو الآخر ضمن دائرة الشكّ. فمنذ وصلنا إلى «حرش الزل» وأنا أتساءل عن المصير الذي ينتظرني مع رجل غامض، ومتناقض، حشا رأسي بأكاذيب عن تدينه، وعن ماضيه الغارق في المثاليات الوطنية! أستغرب الآن، كيف انسقت وراء مشاعري، واعتقدت لفترة أنّي أحببته، وأنّ بإمكاني فعلاً التخلي عن حياتي والعودة إلى سوريا للزواج منه. هل حقّاً حدث ذلك؟ أكاد أشكّ حتّى في نفسي. لكن حتّى لو كان حبّي له حقيقة، فإن ما تكشّف لي بعد اللقاء نسف كلّ ما قبله، مع هذا أجد نفسي مضطرة لمسايرته ريثما أخرج من المصيدة التي وقعت فيها!

أدركت أنّ الفتاة «زينب» وضعت معي؛ لمراقبتي، ومعرفة ما أفكر به. لهذا تجنبت الأحاديث الخاصة، واحتجت لمناورات كثيرة، كي لا

تكشف الفتاة الغاية من أيّ كلام أتلفظ به. حرصت على ألّا أطلق أحكاماً، أو أتهم أحداً بخطف ابنتيّ. حتّى جاء يوم سألتني الفتاة بغتة: «هل تعتقدين أنّ الدولة الإسلامية لها يد في خطف ابنتيك؟». لم أفكر بالإجابة، قلت بتلقائية: «لو كنت أعتقد ذلك ما جئت أطلب المساعدة من أميرها». ابتسمت الفتاة، وعلّقت: «أنتِ ذكية جداً يا سيدتي، من الصعب أن يوقعك أحد في الخطأ». قلت: «لست ذكية إلى الحدّ الذي تتخيلينه؛ لأنّي أقول حقيقة ما بنفسي». ابتسمت الفتاة بخبث، وصمتت. في اليوم التالي جاء «أسد الله» ليصحبني إلى بيت الأمير! قبل أن نصل، نبّهني إلى عدم رفع النقاب عن وجهي في حضرة الأمير، حتّى لو طلب مني ذلك؛ لأنّ طلبه سيكون اختباراً لي! تقيدت بكلّ التعليمات، حتّى أنّي لم أرفع النقاب حين دخلتُ على النساء، وتناولت الطعام معهن بطريقتهن. كنت أبْعِدُ النقاب قليلاً عن وجهي بما يسمح بتمرير يدي باللقمة إلى فمي. وأبتسم خفية لما يسّاقط من الطعام على عباءتي. حين انتهت الوليمة، غادرت النسوة، وبقيت وحدي مع زوجة الأمير الّتي قالت مباشرة: «الأمير اقتنع أخيراً بمساعدتك. كنت أخاف ألّا تنجحي في التّجربة، فقد رافقتك زينب تلك الأيام لتقدم للأمير تقريراً عن التزامك بالفروض الدينية كاملة. وتقرير الفتاة جاء لمصلحتك». حمدت الله في قلبي، ولم أعلّق على كلام السيّدة بل شكرت «أسد الله» الذي زودني بما يجب عليّ فعله بمنتهى الدقة.

نهضت السّيدة، وأحضرت مجموعة من الكتب، ناولتني إياها، وقالت: «الأمير يريدك أن تقرئي هذه الكتب؛ لتتعلّمي أمور دينك بشكل أفضل. أخذتها بصمت، ومن دون تعليق. هذه المرّة أيضاً نظرت في عيني السّيدة،

فرأيت ذلك الحذر الممزوج بالخوف الذي يجعل نظراتها لا تستقرّ على شيء، بل تنتقلان في أرجاء الغرفة بقلق. خمّنت أنّه من الأفضل ألّا أتحدّث إليها بشيء، وألّا أسألها أيّ سؤال، فربما يكون المكان مراقباً، ولم يجانبني الصواب في ذلك. فقد كان الأمير في غرفته يجلس وراء الشاشة، ويرى ما يحدث في الغرفة الأخرى، ويسمع ما يقال!

في طريق العودة قال «أسد الله» من دون أن ينظر صوبي: «الأمير طلب مني أن أتزوجك، كي أستطيع مرافقتك، وكي لا تبقي وحيدة في المنزل، وتتعرّضي للمشاكل». هل قصد بالمشاكل الاغتصاب مثلاً؟ شعرت بصفعة دفعت الدم إلى رأسي بعنف، لم أعانِ من ارتفاع الضغط من قبل، لكنّ الحرارة في وجهي، ودوران رأسي، جعلاني أخاف من جلطة مفاجئة. ما الذي يحدث؟ أيعقل أن أرضخ لمثل هذه المهزلة؟ لكن كيف أتصرّف؟ قلت بخوف: «أنت أصغر مني بكثير يا ملازم خضر، هل يعقل أن تتزوّج سيّدة بعمر أمّك؟». قال خضر: «كنّا متفقين على الزواج قبل مجيئك، ما الذي غيّر رأيك الآن؟». قلت: «لم أكن وقتها أعرفك إلاّ من خلال الصورة، أنت لم تخبرني بعمرك الحقيقي، تبدو لي في الثلاثين، إذن أنا أكبرك بعشرين سنة.. وهذا في اعتقادي أمر غير مقبول بالنسبة لك». قال أسد الله: «بل مقبول إن كان الهدف نبيلاً، الرسول تزوج خديجة وهي أكبر منه بعشرين عاماً.. ثمّ في مطلق الأحوال كنتِ ستتزوجينني لأستطيع الهجرة، ألم نتفق على ذلك؟».

صمتُّ، لقد أسقط في يدي، ولم أعرف كيف أردا!

في المساء حضر الأمير ورجاله، ليعقد لي على أسد الله بنفسه. في الورقة التي سجّلها رئيس الهيئة الشرعية، كتب الاسم الثلاثي لي،

ولزوجي.. خضر عبد السلام النمر! كان لديّ فضول كبير لمعرفة من أين جاء لقب النمر الملحق باسمه، لكنّي أخفيت فضولي، فقد تعلّمت منذ وصلت محافظة الرقة ألّا أتكلّم عن أيّ شيء، ولا أسأل أيّ سؤال، إلاّ في حدود الحاجة. وأن أشكّ بكلّ سؤال يوجّه إليّ فأرد باقتضاب بطريقة مفتوحة على عدة تأويلات.

أخبرني ونحن في السيارة بعيداً عن القرية، بعد أن دار رأسه من مشروب كان يخفيه في قعر حقيبة ملابسه، أنّ الأمير سيسافر فجراً إلى «العطشانة» في العراق.. وأنّ بإمكاني أن أزور السيدات في غيابه، ربّما أعثر في أحاديثهن على طرف خيط يوصلني لمكان الفتاتين. لم آخذ كلامه على محمل الجد على الرغم من سكره. قلت له، بأنّي رأيت الجوّ المريب الذي تعيش فيه السيدات هناك، والغرف المراقبة بالكاميرات، والتي لا يمكن لإحداهن أن تتنفّس من دون أن يُرى نفَسُها في غرفة المراقبة. قال: «لا عليكِ أنا سأقوم بخدمتك، سأقطع الكهرباء عن الدار، وعليكِ الباقي، ولا أريد مقابلاً سوى حبّك».

قلت بصوت خافت: «حبّ! وفي هذا الزمن! كأنّي أسمع عن أشياء غير موجودة، أو مستحيلة الحدوث». قال: «في هذا الزمن تجترح المعجزات، ألا ترين أنّ الحبّ، وفي هذا الظرف تحديداً، قد يقودك إلى دربين لا ثالث لهما، إمّا السماء، فتدخلين الجنّة، وإمّا الجحيم، فتغرقين في الحرب».

فتح باب السيارة، ونزل منها، ومد يده إلي: «تعالي، الهواء هنا منعش، لن يدوم ذلك سوى أيام، بعدها ستطلق الصحراء زوابع غبارها، وحرها، بدخول الصيف الثاني، حينها ندخل فصل الجحيم». نزلت

من السيارة، تنفّست الهواء المحمّل بالندى بعمق، وقلت: «كم أتمنّى لو أنّ زواجنا كان في ظرف آخر، ربّما أقتنع عندها أنّه خيار صائب، وصحيح». قال بثقة: «بل هو كذلك، ستثبت لكِ الأيام أنّك لم تخطئي الاختيار، وأنّك وصلتِ إلى شاطئ الأمان». قلت:

«طيلة عمري كنتُ أبحث عن رجل لا أقلق من وجودي معه، ولا أخاف من فقده في الغد. لكنّ ذلك كان من المستحيلات. كلّ تجاربي مع الرجال، أثبتت أنّي أقبض على صرّة ملح في المساء، ما يلبث أنّ يذيبها ندى الصباح!». قال: «ذلك لأنّكِ كنتِ تنامين في العراء! ماذا لو دخلتِ إلى الحبس؟». قلت وضربات قلبي تطرق أذني بعنف: «أيّ حبس؟ هذا البناء!.. اللعنة.. أنتَ تريد أن تمارس الجنس هنا!». ضحك: «أريد أن أمارس الحياة في مكان صُمم للموت». كتمت صرختي، وهو يجرني من يدي، ويدخلني من باب واطئ، إلى غرفة معتمة لا نوافذ لها.. لم أستطع رؤية شيء، لكنّ روائح العفونة، وروث الحيوانات، وعرق البشر النتن، أنبأني بطبيعة المكان. شهقت وأنا أهمس: «أيوجد بشر هنا؟» قال بنبرة لم أستطع فهم معناها: «ليس الآن، رحلوا هذا الصباح جميعهم إلى «الهوتة». قلت بفزع: «ماذا يعني ذلك؟ ما هي الهوتة؟».

قال خضر باختصار: «تعالي». قفز داخل سيارة الجيب، وشغّل المحرك، وطارت السيارة وسط ذعري ومحاولتي التمسك بالنافذة. لم أجرؤ على الاعتراض، كنت خائفة من مرافقي السّكران، والمجنون، الذي لا يوقف جنونه شيء.. انطلقت من مسجل السيارة أغنية «كلهم عبيهم سود وشلون أعرفه؟» وعلا صوته معها. غلبت دهشتي خوفي. كيف تجتمع كلّ هذه التناقضات في شخصيته! لا يمكنني أن أتصور

أنّه يندمج مع لون الغناء الرقاوي، وأنّه متدين، ويسكر، ويدخّن، وأنّه انشقّ عن جيش النظام، ويقوم بحراسة معتقلين لتنظيم الدولة الإسلامية، وقد يكون أيضاً... كاد قلبي يتوقف حين وصلت إلى هذه النقطة، فرملت أفكاري بسرعة. لا مستحيل لا يمكنه فعل ذلك، ليس لأنّه إنسان جيد بل لأنّي أثق بحدسي تجاه من أعرفهم. طيلة حياتي امتلكت حسّاً انتقائياً يرتبط بروحي، وآمنت أنّ الأرواح جنودٌ مجندة، فكيف يمكن أن يحدث هذا التلاقي بيني وبين رجل بهذه الصفات؟

كانت الصحراء ممتدة بلا نهاية، سهول ناحية «سلوك» الحدودية لا تكاد تخفي احتفاءها بالخريف، الريح تسفّ بقايا أعواد يابسة لمزروعات كانت تغطي جانبي الطريق الخالي من الأشجار، ماعدا شجيرات متفرقة، تبدو كأشباح آتية من عمق العتمة الفضية. كان القمر بدراً، يضيء بأشعة بيضاء صافية، والنجوم تقترب نافثة أغاني السحر، تتكاثف أنفاس الرّيح على زجاج السّيارة، وتترك وراءها غبشاً خفيفاً.. لم تمضِ دقائق، حتّى نسيت جنون الرجل الذي يقود السيارة، وتناسيت من أكون! أغمضت عينيّ على كلمات «الخيّام» أفق خفيف الظلّ هذا السحر، نادى دع النوم، وناغِ الوتر».. لكنّ صوت المطربة الرقاوية اللاذع، كان يطرق سمعي بعنف، ويخرجني من حالة الاندماج بطقسٍ لا يتكرّر. حتّى الوقت الذي توقفت فيه السيارة فجأة مثيرة حولها غباراً كثيفاً، كنت أظنّ أنّه سيعود أدراجه إلى البيت، وأنّ الطريق الّتي سلكناها ليست سوى التفاف حول القرية والتلال القريبة منها. لم أكن على علم بجغرافية المكان، فقد اختلطت عليّ الملامح المتشابهة للقرى المتناثرة على الطريق، يوحدها لون الرمال

والطين! كأنّي أرى لوحة تعود إلى بداية القرن الماضي، لم أرَ مثلها منذ أواخر السبعينات، حين ذهبت من قريتي إلى حلب. القباب تحافظ على الدفء، والشبابيك الصغيرة تسرق الضوء بخجل. انتبهت إلى يده تجرّني خارج السيارة، وقفت وسط مكان غريب، ووعر، لا تكاد أرضه تنبسط لأمتار، حتّى ترتفع، ثمّ تعود لتنخفض، والحجارة تعرقل سيرنا. وقفنا في مكان مرتفع، مدّ ذراعيه جانباً، شدّ صدره، وأطلق صرخة عالية جعلتني أرتجف، وأتجمد في مكاني. قال لي: «هل ترين هذا الانهدام الرهيب هناك؟». حرّكت رأسي دلالة النفي، لقد فقدت صوتي تماماً. سرت خلفه مذهولة، وهو يدخل في ممر ضيق بين مرتفعين، وصل حافة الهاوية.. قال لي: «هل تستطيعين النظر إلى أسفل؟ لا أحد يستطيع النظر إلى أسفل، حتّى هؤلاء الذين نرميهم هنا، ينظرون إلى السّماء في محاولة أخيرة لفهم ما يجري لهم. في الأسفل، ينصهر كلّ شيء في بطن الأرض.. لا أحد يعرف كم عدد الذين استقروا هناك، حتّى الطاغية نفسه لن يعرف عددهم، ولن يعرف أحدٌ أسماءهم.. ومَنْ رماهم هنا.. ربما من قاموا بفعل القتل وجدوا من يقتلهم، ويدفنهم في مقابر جماعية، وربّما يكونون قد هربوا خارج البلاد ونفدوا بجلدهم من الحرب! أنا لا أريد أن أدفن هنا حيث لا تعرف أمّي مكاني، ولا تبكيني أختي، وتضع باقة زهور تؤنسني. انظري إلى أسفل. تقدمي وانظري، لماذا أنت خائفة؟ لن أرميكِ وراءهم. نحن لا نرمي النساء في الهوتة، فالنساء لديهن ما يدفعن به الموت عن أنفسهن حتّى حين؛ وأنت تحديداً لديك الكثير، بين يديك مصيري، لن أستطيع الخروج من هنا إن لم تكوني معي». تقدّمت قليلاً، لكنّي لم أستطع النظر،

سألني إن كنت أريد أن أعرف عمق الهوتة؟ لم أنبس بكلمة. كان يحمل بيده زجاجة العرق الفارغة، ملأها بالرمال، وقال لي: «انتبهي للصوت، وأحصي الزمن الذي تستغرقه في الوصول إلى أسفل، لتعرفي العمق». رمى الزجاجة، ونظر في عينيّ بسخرية، كان سعيداً بالرعب الذي يراه فيهما. أردت أن أسدّ أذنيّ، لكنّي لم أستطع تحريك ذراعيّ. الزجاجة تحوّلت إلى جثة، الجثة صارت تصرخ، الهوتة تردّد الصرخات، فجأة اندفعت حمامات من الأسفل، وقفن على حافة الجرف، وهدلن بحزن. لم يكنّ أشباحاً، بل حمامات أليفات. لكن تهيّأ لي أنّ أرجلهنّ مقيدة إلى عود ريحان، التفّ حول ورقة صغيرة. لا شكّ أنّهن يحملن رسائل الأمهات! تساقط الريحان في الفتحة الجهنمية، تكاثف النّدى، وغطّى الفتحة بطبقة شفيفة. كيف للحمام أن يعرف طريق الغيّاب، ويوصل إليهم لوعة الثكالى!

كنت أسمع نحيب قلبي، وأتخيّل جيشاً من الشباب، اصطفوا هناك في الأسفل، يحاولون التقاط رسائل أمهاتهنّ من دون جدوى! أنا أيضاً كنت أستغيث بكلّ الأنبياء والأولياء الصالحين. فجأة، رأيته يجلس أرضاً، ويبكي! تقيأ بشدّة، ثمّ أمسك عنقه وقال بصوت متحشرج: «أتشمين رائحة الشواء؟ أجسادهم تحترق.. تكاد تخنقني». اقتربت منه، همست: «خضر، ما الذي يحدث؟ ما بك، انهض».. مددت يدي، ساعدته على الوصول إلى السيارة، جلست في مقعدي، وتنفست الصعداء. همس خضر: «هي أيضاً كانت تقف على حافة هاوية، أنا لم أقصد قتلها، هي حمقاء، هي التي وقفت على حافة الجُرف، وهدّدتني أن ترمي نفسها، سقطت قبل أن تكمل تهديدها، وماتت.. ما ذنبي إن كانت حمقاء!»...

انفصام

الصدمة التي شعرت بها كانت عنيفة، إلى حدّ الشكّ، بأنّ هذا الرجل الذي تزوجته في صفقة أقلّ ما تتّصف به الجنون، لا يمكن أن يكون نفسه ذاك الذي تعرّفت عليه في بداية الثورة على موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك! ذاك كان رجلاً متزناً مثقفاً، يفكّر بعقلانية، ويتصرّف بنضج. لولا رغبته الجامحة في ترك البلد لأيقنت أنّه سيكون من الرجال الذين سيقودون سوريا المستقبل! على صفحته كتب مرّة «أوقفوا حمّام الدم، الحلّ في الحوار السلمي بين الأطراف المتنازعة على حكم سوريا». يومها غضبت، وشعرت بالإحباط، وكتبت له، إنّي أشعر بالصدمة من كلامه، ردّ عليّ: «ما كتبته على صفحتي في الفيس بوك أنا مقتنع به تماماً، وإن خالفتني الرأي، لا يجب أن نختصم لأجله». كتبت له: «ليس ما كتبته فقط بل قبولك بالحوار. ليس ما تقتنع به فقط بل الكيفية التي ينظر بها الآخرون إليك، أنت تحبطني، والتعليقات على منشورك تدمي قلبي، عن أيّ حوار تتحدّثون؟ من ستحاورون؟ القاتل؟ الحوار يجب أن يكون بين طرفين متكافئين، لا

يمكن أن يقوم حوار بين القاتل والضحية! لكن ما يرعبني أكثر هؤلاء الذين يتهمونك بالعمالة، ويهدّدونك بالقتل!». لم يردّ مباشرة، لكنّه قبل أن ينام أرسل لي رسالة، يقول فيها: «مساؤك أفق لا حدود لحريته يا صديقتي..

ما يدفعني للسكوت واحتمال اتّهاماتهم وعدم الردّ بطريقة جارحة، له علاقة بتركيبتي النفسية ربّما هي لذّة الإحساس بأنّي ذو مشاعر خاصة. أو ربّما لذّة الإحساس بالألم. لا أعتقد أنّي مازوخي وإن قلت بأنّي أبدو كذلك.. فغالباً لا أميل إلى إتعاب الآخرين بمشاعري، وإن تعلّقت بهم! من حق الآخر أن يرفضني كاملاً، ومن حقّه أن يكفّرني، وألّا أروق له.. وأنا أحتمل كلَّ ذلك.. إلاّ أن يتصرّف معي تصرّفاً يدلُّ على قلّة الذوق. أرفض أن يعاملني أحدٌ بعدم احترام، وهذا يجعلني أجنّ، وأغضب، وأتصرّف بقسوة؛ لذلك أحاول أن أطبّق هذا على سلوكي تجاه الآخرين.. فأعتذر إذا فهم الآخر أنّي أسأتُ إليه. لقد طال أمد الألم. وطال اللعب بنا دولياً. وطال عمر النّظام. وطال صبرنا أيضاً، ورغم قناعتي بأنّ النظام زائل لا محالة، فإنّني قلق من الفاتورة الباهظة التي لم تغلق بعد، ولا يبدو أنّها ستغلق قريباً؛ صدّقيني لست قلقاً على نفسي، ولا خائفاً عليها، لا أفكّر بالاعتقال، ولا أخاف منه، كلُّ ما أعانيه عام وليس خاصاً. وأنتِ تعلمين جيداً أنّ العام حين يهيمن علينا يغدو خاصاً جداً.. يتحكّم بمشاعرنا، وأحلامنا، وكلامنا.. نغدو أسرى له، وتصبح أمورنا الخاصة تافهة جداً أمامه، ولاسيما حين يتعلّق الأمر بالمصير والوجود العام. إذن لاحظي أنّ المشكلة ليست فينا، بل فيما نعيشه! إنّه يقهرنا بكلِّ جبروته، ويفرض علينا

نواميسه. والمشكلة أنّنا لا نستطيع إلا أن نتجاوب معه.. وإلاّ فثمّة هربٌ من المسؤولية. أحسُّ بشيء من التفرد، وأشياء من الغربة. لا أحسُّ بالتّفرد بمعنى أنّني مهم بل بأنّني مختلف. منذ سنة لم أكن أتوقع أنّ النّظام سيسقط بسهولة، كما حدث في تونس ومصر، وكنت أتمنّى أن يقوم بإجراءات فعلية كي يجنّب البلد الدم الذي سوف يسفكه، الآن ذهبت أمنياتي أدراج الرياح. ابقي بخير»

كلماته خفّفت قليلاً من توتري، مع أنّي كنت أنتظر رأياً مختلفاً عمّا يقوله في العلن؛ لأنّي أشعر بقربه أكثر، وبانتمائه إليّ! لكنّي احترمت خشيته، وحساباته الخاصة. كان مصرّاً على عدم وجود طائفية في التّعامل مع الأزمة، وكان مصرّاً أيضاً على تسميتها «أزمة».. ويرى الخلاص قادم بسرعة، ورؤيته مرتبطة بإيمانه العميق بإرادة السوريين الحرّة! لكن بعد سنة من الثورة، والممارسات البشعة التي قام بها النّظام ضدّ المواطنين، أقرَّ أنّي محقة في نظرتي للأمور. سألته: «ما رأيك الآن، بعد كلّ ما حدث؟ أما زلتَ مصراً أنّه لا يوجد طائفية في التّعامل مع الأزمة؟». كان مضطراً لأن يجيب: «معك حق يا عزيزتي، وكأنّ هناك حقداً دينياً، أو طائفياً في كلّ أفعالهم. لا يُعقل أن يفعل أيّ أحد بأيّ أحد ما يفعلونه، إلاّ إذا كان يمتلك من الحقد التاريخي ما لا يمكن إدراك مداه». قلت: «ربّما لم نستطع تصديق وجوده، لأنّنا بشرٌ مختلفون». قال: «نعم نحن بشرٌ مختلفون. على الأقل لا نعاني من عقدة الدونية. ولا من عقدة الخوف. ولا من عقدة الدين والطائفية. أحسّ أنّ الواحد منهم تاريخ من الحقد الطائفي، والمشكلة أنّنا نرفض أيّ شعور طائفي تجاه أيّ أحد. كلّما تحدّثت عن طائفية

أحد ما، أتحسس نفسي. أخشى أن أكون أنا ملوثاً بها، ولو من بعيد؛ لذلك أحاول ألا أقع فيها. لكن ماذا نفعل إذا كان النظام يغرسها في حياتنا غرساً، ويدفعنا إلى الحديث فيها في كلّ موقف، وكلّ وقت؟». وأضاف: «الطائفيون من كلّ الطوائف لهم سيكولوجية موحدة. ونحن مجموعة طوائف، ولسنا شعباً حقيقياً!».

بعد هذا الحوار بأشهر كتب لي: «لا شكّ ستسأليني عن حالي، سأقول لكِ إنّي أشعر بالقرف من كلّ شيء.. ولا أظنّك أفضل حالاً مني! أدرك أنّك حزينة ومقهورة.. المشكلة ليست بيدي أن أنتهي من القرف. أفكّر جدياً بتغيير موقفي بشكلٍ نهائي.. لم يعد هناك إمكانية للحوار. النظام لن يحاور إلاّ على سرير الموت! لن أتكلّم مرّة أخرى بالحوار. بدأت أحسّ أنّ القضية قضية سقوط النظام، أو سقوط الثورة، وسقوط الثورة كارثي! لو سقطت الثورة سوف يتعملق الأسد والأجهزة الأمنية، ويغدو الدخول في حرب أهلية نزهة، قياساً بالمعاناة التي سوف يعانيها الشعب.. ولهذا يجب أن تنتصر الثورة، حتّى لو جاء حزب إسلامي إلى الحكم، حتّى لو انتشرت الفوضى لسنوات. العائلة، أو العصابة الحاكمة سوف تحرق الأخضر واليابس فيما لو انتصرت. ولهذا أيّ نظام يأتي بعد الثورة سيكون أقلّ قسوة، وأقلّ ديكتاتورية، هذا إذا افترضنا الأسوأ. ولكن لا أعتقد ذلك، الثورة لن تفرز إلاّ المدنية والديمقراطية. ولهذا لا بدّ من سقوط النظام، وبأيّ طريقة كانت. أفكّر جدياً أن...؟ لا أدري.. لكن لا تستغربي إن وصلتك مني رسالة بعد أيام، أخبرك فيها، أنّي التحقت بإحدى الفرق الإسلامية المسلحة. أنوي ذلك، لكنّي لم أتخذ القرار الحاسم بعد! إن كنتِ تريدين نصحي، فأنا

أنتظرك، ومستعد للأخذ بالنصيحة، لكن لا تتأخري.. إنّهم يعدّون عليّ أنفاسي. ولأنّهم يعدّونها، فباعتقادي أنّ الاعتقال أسرع مما أتخيّل».

استغرقت عدّة أيام، وأنا أفكّر بهذه الرسالة العجيبة، التي حوّلتني إلى عرّابة روحية، وفكرية لشخص لم أره، لكنّي أشعر بأنّه أقرب إلى روحي حتّى من آرام نفسه! هل حقّاً بات أقرب إليّ من آرام؟ أم أنّي رأيت فيه ذلك الجانب الغامض الذي صبغ شخصية آرام طيلة عشرين عاماً من الفراق، ثمّ تمزقت الشرنقة دفعة واحدة، ليظهر هيكله البشري كما هو من دون رتوش!

حاولتُ كثيراً أن أفهم الرابطة العجيبة بين مشاعري تجاه خضر وآرام.. كانت الاحتمالات الكثيرة تصبّ في نقطة البعد، والغموض، والتناقض.. كلاهما ارتبطت به روحياً، قبل أن يصبح واقعاً، كلاهما كان صورة لأفكاري عنه، ولم يكن هو أبداً!

آرام صوبا

كان الوقت أصيلاً، حين دعتني آناتا لحضور حفلة في الهواء الطلق لأوركسترا فيا بادوفا، لكنّي لم أستطع الوقوف طويلاً في الحديقة مع الشابتين، وعدت إلى البيت. شيء غامض دعاني لفتح جهاز الكمبيوتر، فتحت محرك البحث، وكتبت في المستطيل «آرام صوبا[24]».. مئات النتائج ظهرت لي، ووجدت نفسي غارقة في البحث، حتّى ارتعشت يدي فجأة، وثبتُّ الفأرة على مقال باللغة الإنجليزية تتصدّره صورة آرام! كم مرّ من الزمن؟ لكنّه لم يتغيّر كثيراً، انحسر شعره قليلاً عن جبهته، على عينيه نظّارات طبية، وابتسامته باهتة، لا عمق فيها! وغابت غمازتاه من أسفل العينين! هكذا، ومن دون مقدمات، وعلى طبق من ذهب يقدّم لي جوجل كلّ ما أريد معرفته!

فاجأتني آناتا وأنا أجلس أمام الشاشة ذاهلة، ويدي متجمدة فوق الفأرة.. صرخت الفتاة بالعبارة العربية «اللي آخد عقلك». انتفضت

(3) الاسم آرامي، وأطلقه الآراميون على عاصمة مملكتهم، الواقعة في أعالي سوريا «لبنان» وقد أطلق اليهود على حلب اسم، آرام صوبا، وقد ورد لفظها في العهد القديم 11 مرّة.. لكنّ البعض يرى أن الاسم أطلق على «تدمر» أو منطقة تقع جنوبي حماة.

بقوة، وشعرت بالهلع، خفق قلبي بعنف، وكأنّي ركضت مسافات طويلة. أرادت آناتا أن تعتذر عن تصرفها، لكنّها انسحبت من الغرفة، حين رأت الدّموع في عينيّ!

حين وصلت بروكلين أصيل يوم ماطر من عام 2003، كنت قد وضعت مخططاً تفصيلياً لرحلتي الّتي ستتحوّل إلى إقامة دائمة. اخترت فندقاً رخيصاً بعض الشيء، يقع في مركز المدينة. المنظر من الغرفة 37، كان ساحراً، وخيالياً. من وراء الزجاج تبدو الشّمس الشّاحبة الّتي تعانق أسلاك جسر بروكلين الفولاذية، أجمل بكثير من الأضواء المبهرة ليلاً، والّتي تحرّك أشباح المخيلة، لتخلق من الجوّ الرومانسي المفترض أحداثاً مرعبة تتسلّل إلى أحلامي، فتقلبها كوابيس مزعجة.

لم يكن في ذهني أن أقيم طويلاً، كنت أسابق الزمن كي أراه، ومع هذا تجنّبت زيارته بشكل مباشر، أردت أن تجمعني به الصدفة. صرت أنزل كلّ يوم من الفندق من دون فطور، أتجوّل في شارع المطاعم، أختار الأماكن الأكثر شعبية، أتحدّث إلى أيّ شخص بالعربية، لألفت انتباه من يتقنها! خلال أيام وجدت نفسي في «سوريا الصغرى[25]» التي لم تترك منها غابة الإسمنت الكثيفة سوى ثلاثة أبنية تبدو كأنّها انتزعت من مكان ما، ووضعت هنا بالخطأ، لكنّ الحقيقة أنّها كلُّ ما تبقى من أثر المهاجرين العرب الأوائل.. لم أصمد فيها سوى دقائق، فقد شعرت بانعدام الهواء، واقتراب الأبنية الشاهقة حدّ إطباقها على صدري.

(3) كان المهاجرون حين وصولهم إلى مركز الهجرة يدخلون إلى قلعة غاردن وسط حديقة باتري، وعندما ينهون معاملة الهجرة، يخرجون إلى أحياء مانهاتن، وأولها شارع واشنطن الذي يبدأ من طرف الحديقة، ويمتدّ شمالاً بطول كيلو متر واحد. وقد اختاره السوريون للعيش، وكانوا يرتدون ملابسهم الفلكلورية، وأطلقوا على القسم الجنوبي منه «الربع السوري» أو سوريا الصغرى، وحدودها من شارع سيدار في الشمال، وشارع باتيري بلايس في الجنوب، والشارع الغربي في الغرب، وغرينتش وترينتي بلايس في الشرق.

وبعدها أخذت طريقي إلى ضواحي جنوب بروكلين المتلاصقة، الواقعة ضمن منطقة تمتد مساحتُها على بضعة أميال مربعة، حيث يتقاطع شارع Ocean Parkway مع شارع سوق Kings Highway المزدهر. وهذه المنطقة لا تشبه، لا من قريب ولا من بعيد، حارات اليهود العريقة في دمشق، وحلب، والقامشلي، بل هي ضواحي جديدة صاخبة. من السهل جداً أن تجد أيّ شخص تبحث عنه في الأحياء الجنوبية. معظم أصحاب المخازن اليهود في الحي يتكلّمون العربية مع جيرانهم، والدكاكين كلّها تبيع السلع السورية، العدس والفول، وقمر الدين، وأيّ طعام مألوف في المطبخ السوري. وعلى الرغم من محاولتي التحدّث بالإنكليزية والإيطالية، إلاّ أنّ أحد العجائز الذي دخلت دكّانه تأملني قليلاً، وسألني بالعربية: «ألستِ سورية؟». لم أخفِ دهشتي، لكنّي رددت بالعربية من غير وعي: «نعم أنا سورية، وأبحث عن سكن هنا، أريد أن أستقر في بروكلين». العجوز الذي عاش عمره في حلب جاء في بداية التسعينات إلى بروكلين حين رُفع الحظر عن اليهود، وسُمح لهم بمغادرة البلاد. سألته عن آرام صوبا، الطبيب السوري الذي غادر سوريا في الثمانينات. ابتسم العجوز بخبث، وقال: «آرام لم يغادر سوريا في الثمانينات، درس الطب في جامعة دمشق، وتخرّج منها، وعمل طبيباً لعدّة سنوات، وجئنا معاً في أوائل التسعينات. هل كنتِ صديقته؟». قلت بلا تردّد: «نعم، كنا معاً في جامعة حلب، لكنّه غادر البلد في بداية السنة الثالثة من دراستنا، ولم أعلم أنّه كان في دمشق! هل تعرف أين يسكن؟». ردّ العجوز: «تعالي في الغد، وستقابلينه هنا». لم يحتج آرام لوقت كي يتذكّرني، نهض من كرسيه، واستدار ليخرج

إليّ، صافحني هذه المرّة بحرارة، ودعاني لتناول الفطور! ضحكت: «هل يوجد محل فول هنا أيضاً؟» قال: «ما زلتِ تذكرين؟ بالمناسبة ما الذي جاء بكِ إلى بروكلين؟». قلت من غير تفكير: «أنت». توقف عن السير، وأمسك يدي، نظراته كانت تبحث في وجهي عن صدق ما أقول، من الواضح أنّه لم يصدّق كلامي؛ وكيف يصدّقه، وهو أبعد ما يكون عن عالمي!

للمرّة الثانية حدّثني آرام عن الحبّ، لكنّه لم يأتِ على ذكر النساء، كان هناك شبحٌ وحيد يجلس بيننا على طاولة الطعام، يربك أفكارنا، وكلماتنا، شبحُ مدينة غادرناها، وتأبى أن تغادرنا. كانت حلب بيننا، آرام يصرّ على تسميتها بيروا، الّتي ماتت، ودفنت في ترابها، وأنا أصرّ على مناداتها «الشهباء» وكلانا يحمل جمرة حنينه بأصابع ترتعش. سألني: «أين تعملين؟ لا شكّ أنّك طبيبة ممتازة، لا أدري لمَ كنت أتخيّلك طيلة تلك الأعوام من البعد طبيبة قلب! ربّما لأنّي حلمت كثيراً بالعودة، وحلمت أكثر بأن يكون شفائي على يديكِ».

لم أستطع أن أتحدّث عن نفسي، شغلتني عبارة واحدة في كلامه «القلب» هل كنت السبب؟ لمّح إلى أنّي أحد أسباب ذبحة خفيفة، حذّرتْه من الإجهاد، وجعلته يستسلم للكسل أكثر. قلت: «قطعت كلّ تلك المسافات، لأجد نفسي قد اقترفت ذنباً في حقّك!». قال: «لا تشعري بالذنب يا صغيرتي/فإنّ كلّ امرأة أحببتها قد أورثتني ذبحة في القلب(26)/. أربكتني العبارة، فغيّرت الحديث، سألته: «لماذا استسلمت هكذا وبين يديك خلاصك؟». تحسّر قائلاً: «كنت هناك طبيباً مشهوراً

(3) نزار قباني.

سنوات قليلة من النجومية، والاندفاع نحو المستقبل الباهر، ثمّ انطفأ كلّ شيء، جاءت الهجرة فسحقت كلّ أحلامي. أعيش هنا في منزل متواضع بالأجرة! عملت بالتجارة، وخسرت، وأعيش الآن من مدخراتي. وكما ترين القلب أصبح ضعيفاً لا يحتمل؛ لأجل هذا أفكّر بالعودة، لقد تركت حلب مرغماً، لن أحدّثك عن التّفاصيل فهي مملة. كان لديّ أقارب هناك في حارة اليهود بدمشق. السكن معهم كان أكثر أمناً من السكن في حي الجميلية بحلب. لكن، أتعلمين؟ أشعر أنّ كلّ سنوات البعد غير موجودة.. وأنّي سأفتح عينيّ بعد قليل لأرى نادل مقهى العطري، وقد أحضر لي النارجيلة، ومع أوّل نفس، سألمحك تعبرين الطريق، وتدخلين محل الحلويات المقابل للمقهى.

اللهجة التي كان يتكلّم بها صدمتني بقوة. لم أتخيّل يوماً أنّ آرام كان ينتظرني! لم أتخيّل أبداً أنّه كان يفكّر بي! امتلكت اليقين دائماً، أنّي أحبّه من طرف واحد! لماذا الآن؟ لماذا يتحدّث بهذه النبرة المليئة بالشجن، ومن دون خوف؟ ألأنّ المكان تغيّر؟ جاءني الجواب سريعاً: «لا شكّ أنّك تلومينني.. أعرف كلّ شيء. لكن ما لم تعرفيه أنتِ أنّني هربت من حلب؛ كي لا أراكِ! ليس سهلاً أن أتورط في حبّ امرأة مسلمة. كنت أعرف أنّ مصيري سيكون الذبح. أيضاً لن يرضى أحدٌ من أهلي عن هذا الحبّ؛ لذا اخترت دفنه بالغياب». مددت يدي إليه.. أمسكت أصابعه النحيلة.. تجاهلت وجود خاتم الزواج.. نظرت في عينيه، وقلت: « لا تتكلّم في الحبّ، فالكلام يوقظ الحذر، ويستثير الخوف، لا أريد أن أفكّر في اللحظة التي أعيشها، دعني داخلها بكلّ حواسي. لا أريد أن يتسلّل الوعي إليها فيشتت أحاسيسي، ويوزعها بين

الترقب والقلق. دعني أجازف بما تبقى لي من اندفاع نحوك، ولا تحرّك شياطين الأسئلة. اترك اللحظة خرساء.. محتفظة بفتنتها».. جاءني صوته، وكأنّه آتٍ من عالم آخر: «المغامرون الذين احتلوا الأمريكيتين، كانوا يردّدون: (ليست الحياة التي تهم، بل ما يهم هو الرحلة نفسها)». قلت والحمى تشتعل برأسي وأطرافي: «ما رأيكَ أن نعود؟». قال: «قد نعود.. هناك فرصة أمامنا، هناك مفاوضات للسماح لنا بزيارة سوريا، هل حقّاً تريدين العودة؟». قلت بحماس: «ما يهم هو الرحلة نفسها!».

رهاب

كانت الطائرة تحلّق في الجوّ، وأنا أنظر إلى تلاشي ملامح الأرض، وألوانها من النّافذة.

بعد ساعة من الطيران، بدأت مشاعر متناقضة تغزو قلبي. لم تكن الفكرة بحدّ ذاتها مجنونة فقط بل كانت من المستحيلات. لقد بدأت الأمور تأخذ شكلاً مختلفاً، والمشاعر تتبلور، لتصبح أوضح. اللقاء المستحيل وقع. لكنّه لم يتمخض عن اندماج روحي كما تهيّأ لي حين وقعت عيناي عليه بعد طول غياب! كانت مشاعري في مد وجزر. أحياناً أشعر بالبلل، وأحياناً يقتلني العطش، ليس من السهل أن أسلخه عن المحيط الذي يعيش فيه، عن أفكاره، عن إرثه التاريخي، كيف يمكن أن يصبح خالصاً لوجه الحبّ! هذا المستحيل الذي لن أستطيع تجاوزه. خاصة بعد أن تناقشنا في أدق التفاصيل خلال السنة الماضية من إقامتي في بروكلين. لزمن لم يتجاوز الشهرين اعتقدت أنّه سيتعمّد بحبّي، ويخرج صافياً نقياً من دون ماضٍ يربك علاقتنا ويضعها في مهب الريح! شهران عشنا فيهما الماضي، لم نغادر أحياء

حلب، وأزقتها، كانت تسكننا بكلّ التفاصيل الحميمة الدافئة، وتبعدنا عن الاختلاف حول المستقبل. ثمّ بدأت حكايتنا تنحرف عن مسارها. فلا بدّ للتاريخ أن يتدخل، ولابدّ للدين أن يشهر سيفه الحاد، ليقطع ما وصله الحبّ. التاريخ يضعني في مواجهة من الصعب حسمها، فأنا لا أستطيع إدانته، كما لا أستطيع التغاضي عن مواقفه. قال لي -في زيارتي الأولى لبيته- مبرراً مساندته لنظام الأسد: «في عام 1975، بثّت مجلةُ «ستون دقيقة» المتلفزة التابعة لشبكة CBS الأمريكية للأنباء، تحقيقاً للسيد مايكل والاس الذي زار سوريا بعد «حرب الغفران» بسنة ونصف.. يقول، إنّ حياة يهود سورية اليوم باتت أفضل مما كانت عليه في السنوات الماضية». وقد أجرى مقابلتين مع صيدلاني يهودي، صرَّح أنَّ مزاعم المعاملة السيئة بحقِّ اليهود مجرد «دعاية صهيونية»، ومع معلِّمة مدرسة يهودية، قالت، إنّ من المتعذر عليها أن تتّخذ من إسرائيليةٍ صديقةً صدوقة.

رُفعت شكوى من المؤتمر «اليهودي الأمريكي» إلى «المجلس القومي للأنباء» ضدّ والاس، وهذا دفع الشبكة لإعادة بث الحلقة، وأيضاً متابعة التحقيق، والتصوير في دمشق.

ربما أهلنا أورثونا الخوف، والحذر، فهم عاشوا أحداث حرق الكنيس بعد قرار تقسيم فلسطين. أنا لم أعش في الواقع ما يجعلني أخاف من جاري، أو صديقي في الجامعة، حتّى هويتي الموسومة بعبارة «موسوي» باللون الأحمر الواضح، لم تكن تسبب لي أيّ حرج، أو مضايقات. لكنّ إرث الخوف أقوى من الخوف ذاته وأشدّ فتكاً. في دمشق حصلت على هوية جديدة لم يختم عليها العبارة المرعبة «موسوي» كنت مرتاحاً في

حياتي. ولا أدري أيّ شيطان رمى بي هنا.
قلت: «هو الشيطان نفسه الذي رمى بي أيضاً. هل تعتقد أنّ الدين هو السبب الذي أبعدنا عن بلدنا؟ الدين حجة الطغاة، ولعبتهم الّتي يسيطرون بها على البشر». قال: «معك حق، حتّى أنا حين صوّرت الحياة في سوريا على أنّها سهلة، وخالية من الخوف، كنت ألتمس القرب من السلطات، لأحصل على أمان دائم. مع هذا لا يمكنني أن أنكر أنّ وضع اليهود في سوريا قد تحسّن فعلاً، وأنّ السلطات كانت تنوي معاملتنا كمواطنين لنا نفس حقوق باقي الطوائف. أنا أحيا في الماضي.
أخرج من درج مكتبه مصنفاً كبيراً، كان يحوي صوراً بالأسود والأبيض، وصور أخرى بألوان باهتة، مدرج كلية الطب في حلب، حديقة السبيل ومعه وجوه مألوفة من زملاء الدراسة.. قاعة العرش في القلعة، حي الياسمين في الجديدة، فرن الكعك عند الإطفائية! وصور مصفرّة الأطراف لأشخاص يتعبدون في كنيس.
أشار بإصبعه «هذا قبل أن يحرق، إنّه جدي». وقعت صورة حاول إخفاءها بسرعة، لكنّي تناولتها قبله. كانت لشاب يشبهه واقف على درج مبنى البريد في الجميلية. سألته بعيني وحركة يدي «من يكون؟» ردّ بغصة: «أخي، لقد قتل بالخطأ أثناء أحداث الشغب في الثمانينات، أحد أسباب مغادرتي لحلب». صمتُّ.. لم يعد هناك ما يقال. لكن يوجد في قصاصات الصحف التي احتفظ بها ما يثير الانتباه، وما يفتح بوابة الأسئلة على مصراعيها. ففي إحدى الصور ظهر آرام وسط وجهاء الطائفة الموسوية، وهو يصافح حافظ الأسد!
وقعت القصاصات من يدي، وأنا أنظر في عينيه، كم يحتاج الإنسان

من الحقائق الموجعة، كي لا تنحرف بوصلة عواطفه عن خطّها السليم؟ قلت بأسى: «أنت قابلت...» لم أستطع أن أكمل. قال: «لستُ أنا الذي في الصورة، إنّه والدي، ترين الشبه الكبير بيننا! حافظ الأسد كان بالنسبة لنا مسيحاً مُخلِّصاً، قبله لم نكن نستطيع التحرّك مسافة أربعة كيلو مترات من دون إذن، لم يكن مسموحاً لنا أن نبيع ونشتري عقارات، كنّا نخاف أن نعلن عن ديانتنا. لم يعرف أحدٌ من زملائي في الجامعة أنّي يهودي، حتّى تخرّجت، وفتحت عيادة، وذاع صيتي. في مدارسنا كان هناك رقباء فوق رؤوسنا باستمرار. هو أوّل رئيس أولى اهتماماً حقيقيّاً لشؤوننا. هذه الصورة لم تكن تفارقني، كنت أستمدُّ قوتي منها، علّقتها في عيادتي منذ أوّل يوم. كان وجودها كافياً لفرض الاحترام على الآخرين».

قلت: «بل فرض الخوف، إنّك تستعمل السلاح نفسه الذي استعمله الآخرون ضدّك!». قال بحذر: «أحياناً تضطرين للدفاع عن وجودك بالسلاح نفسه. كنت مضطراً، لو كان الظرف مختلفاً لما فعلت». قلت: «هل تظنّ حقّاً أنّ الأسد كان مسيحاً مُخلّصاً! أم أنّه كان يستخدمكم كورقة ضغط على الأمريكان؟ هناك في جادة ماكدونالد، تعرّفت على رجل عجوز يبيع الثياب المستعملة، حكى بحرقة عمّا فعلته المخابرات السورية معه؛ لمنعه من السفر، فقد احتفظوا بابنه، وماتت أمّه قبل أن تستطيع مغادرة البلاد للقاء شقيقتيه. لماذا فعلوا معه ذلك؟ لا يمكنه أن ينسى ما فعلوه، مع ذلك قال لي، إنّه مشتاق لسوريا، مشتاق لجيرانه وأصدقائه، لكنّه مذعور من فكرة العودة؛ لأنّ مشكلته ليست مع الناس مسيحيين وإسلام، مشكلته مع المخابرات السورية. بسببهم

لم يستطع أن يحقّق لأمّه حلمها، وتركها مدفونة هناك خلفه.. مثل باقي السوريين.. كلّنا تركنا خلفنا قبور أحبتنا، ورحلنا، أنا شخصياً لم أدفن أبي وشقيقتي، وليس لهما قبر أعود لزيارته. لا أفهم كيف ترى الأمور؟».

قال بهدوء: «أفهم الأمور بالطريقة الصحيحة التي لا تصلك، هذا العجوز قال لكِ نصف الحقيقة. هو فعلاً مشكلته مع المخابرات، وليس مع الناس، لكنّه لم يقل لكِ، إنّه يعتقد، أنّ الرئيس الأسد لم يكن يعلم بما تعرّض له، ولو علم، لما سمح لهم بفعل ما فعلوه. فهو يعتقد، مثله مثل باقي اليهود أنّه منحهم حريّتهم. أنا شخصياً لا يوجد عندي مانع أن أعيش في سوريا محروماً من بعض الحقوق، فهم على حقّ في حرماني منها، ما داموا يشكّون أنّي ربّما أكون مؤيداً لوجود إسرائيل!».

قلت: «يبدو أنك نسيت قضية الأخوين سويد اللذين سافرا إلى إيطاليا، ومنها إلى إسرائيل، وسجنهما الأسد خمس سنوات بعد عودتهما». ردّ بحماس: «وهل تريدينه أن يحتفل بهما؟ لقد زارا دولة عدوة، مع ذلك عفا عنهما سنة 1992، لم ينسَ اليهود السوريون موقف الأسد منهم، وقام ثلاثة من مؤيدي الليكود بنشر تعزية في «نيويورك تايمز» حين توفي. أنا أرى الآن أنّ رهاننا على الابن ليس قوياً بما يكفي، فهو صغير السن، وقليل الخبرة، ويبالغ بالاتكال على مستشارين عديمي الذمة في الغالب. مع هذا أتمنّى أن يستطيع الحفاظ على ميراث أبيه، والاستمرار على نهجه، وإن كان بحاجة إلى وقت طويل كي يصبح بحكمة والده.. فإن امتلكها، سيكون أفضل الخيارات لأمريكا وإسرائيل». قلت مستنكرة: «لكنّه قال في تصريح له منذ ثلاث سنوات «لقد حاول اليهود أن يقتلوا المبادئ في الأديان كلِّها،

بالعقلية نفسها التي خانوا بها عيسى عليه السلام، وبالطريقة ذاتها، حاولوا خيانة النبي محمد، وقتله.» ردّ ضاحكاً: «علّاك[27].. إنّه يقول ما يرضي الناس من حوله. نحن أدرى بما لا يقال».

في مطار دمشق.. انفصلنا، ذهب آرام مع الوفد اليهودي الذي يرافقه السفير السوري، وقصدتُ أحد الفنادق.

(3) تعبير عامي سوري المقصود به «اللغو»

ذاكرة مثقوبة

لم يخطر ببالي أنّ الزمن سيعود بي عشرين عاماً إلى الوراء، وأنا أقف أمام لوحة كتبت بالخطّ الكوفي، وزيّنت بالأضواء «مستشفى الدكتور صادق جميل الحسن/ جراحة عامة، تجميل، توليد، علاج بالليزر، زميل الجمعية الملكية البريطانية/. لم أعرف أهي الفرحة التي حملتني على الدخول والسؤال عن الطبيب، أم الفضول، أم رد الجميل الذي لم أنسه طيلة تلك السّنوات؟» استقبلني صادق بحفاوة كبيرة، وجاءت سمية مسرعة حين سمعت بوجودي. دعتني للغداء في أفخم مطاعم دمشق، استعدنا ذكرياتنا، وسألتني، ما الذي أعادني إلى سوريا. أخبرتها ببساطة بقصتي مع آرام، وبأننا جئنا معاً، وسأعود بعد أيام إلى بروكلين. دهشت سمية، وقالت: «حقّاً! آرام يهودي! لم أكن أعلم ذلك، وأنتِ تحبينه؟ هذا جنون بالمطلق». ابتسمت، وقلت: «أنا أيضاً لم أكن أعلم، وأظن ألّا أحد في دفعتنا يعلم، هو أخبرني أنّه كان يخفي الأمر، ولم يخبر أحداً به». شربت سمية فنجان قهوتها، وصمتت قليلاً، ثمّ سألتني بحذر: «هل ستتزوجينه؟ أعني كيف؟ أنت مسلمة، كيف

ستفعلين ذلك؟». قلت: «لا أظنّ أنّنا سنفعل، كنت مندفعة في البداية لاستعادة قصتي معه، أو بتعبير أدق، لأعيش القصة الّتي حلمت بها طويلاً. لكن الآن أشعر أنّ الأمر مستحيل. بصراحة، كنت مستعدة للتخلي عن أيّ شيء في سبيل العيش معه، فأنا لم أكن متمسكة بالدين يوماً ما، وعلاقتي بالله منفصلة عن أيّ تفاصيل اخترعها البشر بمختلف طوائفهم، ومذاهبهم، وشرّعوا حياتهم على أساسها». قالت سمية، وهي تبتسم بخبث: «والله إنّي أحبّك لأجل هذا التفكير المنفلت من كلّ قيود على العقل، المهم، ما رأيك بالبقاء هنا، والعمل معنا بالمستشفى؟ نحن نجني أرباحاً طائلة، ومعارفنا على مستوى رفيع في الدولة، ولا ينقصنا شيء. بالمناسبة لم أسألكِ، ألديك أولاد؟». قلت: «لا، لم أنجب، لأنّي لم أتزوج مطلقاً، لديّ ابنتان بالتبني، أنا عرّابتهما، وهما في إيطاليا. لكنّي لا أفكر في الاستقرار هنا، بصراحة، خلال جولتي في دمشق وحلب، شعرت أنّي سائحة لا أكثر. لا شيء يربطني بهذه البلاد، ألم تفكّري بالسفر أبداً؟». ردّت سمية بحماسة: «من قال؟ طبعاً أفكّر، وأنفّذ مباشرة، كلّ سنة أذهب سياحة شهر إلى دولة أجنبية، زرت ألمانيا، وفرنسا، والنمسا، ورحت لأمريكا، وبريطانيا، واليابان، والصين، وماليزيا، يعني تقريباً لم يبقَ مكان يعتب عليّ، لكن دائماً أرجع، وأقول، لا يوجد بلد أجمل من سوريا، ولا قرية أجمل من «الفوعة» بصراحة مع أنّي أعشق دمشق، لكنّي متعلّقة كثيراً ببلدي، فيها مزرعة كبيرة، وقصر، كلُّ شيء أحلم به موجود عندنا بالضيعة. لكنّي مضطرة للبقاء هنا أطول فترة في السنة من أجل صادق. هو لا يريدني أن أعمل، لكن أنا أتسلّى بالعمل، يعطيني شعوراً رائعاً بالتميّز،

حين أنظر إلى الكادر الكبير الذي يعمل تحت إمرتي، كلّهم أطباء كبار، وأنا مديرتهم! تخيّلي». وضحكت سمية ضحكة طويلة. ثمّ صمتت فجأة، وحدّقت في وجهي، وهمست: «غريبٌ أمرك، لم تسأليني عنه؟ توقعتُ أن يكون أوّل شخص يخطر لك السؤال عن أحواله؟» قلت باستغراب: «مَن تقصدين؟». سمية لم تتمالك نفسها، ضحكت، وهي تقول: «معقول؟ مصطفى طبعاً، مَن غيره؟». تنهّدتُ، مصطفى! لم يخطر ببالي مطلقاً. أستغرب حقّاً كيف تسرّب من ذاكرتي وكأنّه لم يكن موجوداً في حياتي، حين قلت ذلك لسمية، ظنّت أنّي أمزح معها، فلم تكن علاقتنا عابرة إلى الحدّ الذي يجعلني أنساه تماماً، علّقت قائلة: «لا شكّ أنّكِ عشت تجارب في الغربة استطاعت أن تنسيكِ كلّ ما يتعلّق بحلب!». نعم، هذه المرّة صدقت سمية، لا بدّ أنّي نسيت كلّ ما يتعلّق بحلب.. مع هذا لم أنسَ آرام!

لم تزدنا تلك الزيارة إلاّ ابتعاداً عن بعضنا. لم يتسنَ لنا الانفراد، أو التجوّل في أحياء حلب معاً. كلٌّ واحد استعاد ما يخصّه من الذكريات بمعزل عن الآخر. وحين عدنا إلى بروكلين، بدأت آثار الرحلة بالكشف عن زوابع غبار سدّت أفق التفاهم بيننا. فقرّرتُ العودة إلى إيطاليا.

في بداية الثورة رأيت منشوراً على صفحته يقول فيه: « قلبي يهودي. لا أستطيع أن أقول، إنّي لست يهوديًّا؛ وأنا أحبُّ اليهود، بغضِّ النّظر عن سوريا. أحبُّ إسرائيل أكثر بكثير مما أحبُّ سوريا، حتّى وإن كنتُ قد ولدت هناك، وعشقت، وتركت جزءاً من ماضيّ مدفوناً في ترابها! أنا على يقين أنّ الوطن حيث قبور أجدادي، وأنّ حبلي السري في أرض الميعاد.»

ارتجفت يدي، وأنا أغلق الصفحة. كيف! ولماذا! فكّرت بحظره نهائياً، لكنّ الفضول أوقفني. أريد أن أقرأ أكثر، أن أصدم أكثر، أن أحقد أكثر! فتحت صفحته ثانية، واستعرضتها كاملة. في منشور آخر كتب:

«إنّ الصورة القوميّة التي شكّل حافظ الأسد بلده وفقًا لها، تجعل من الامتثال لرغبات الولايات المتحدة، أو الانخراط في مبادرة سلام استعراضية، كالتي بادر إليها أنور السادات، أمرًا شبه متعذر على بشار الأسد».

وفي منشور ثالث:

«إنّ نظام الأسد يميّز نفسه بوصفه مدافعاً شرساً عن الأمة العربيّة، وهذا سنده في مواجهة التحديات الداخلية والإقليمية. لكنّه أيضاً يتمتع بمرونة، تجعله يختار الانصياع للولايات المتحدة في حال وقع بين خيار الانصياع، أو العزلة».

«إذا شاءت أمريكا أن تضغط على سوريا، فهي ستفعل ذلك، ستضغط اقتصاديّاً وسياسيّاً، ولكن في حال استمرت سوريا في دعم حزب الله، وحماس، والجهاد الإسلامي، فإنّ أمريكا ستضطر أن تضرب سوريا بالطيران، لتحذير السوريين، لكنّها بالتأكيد لن تفكّر بالتدخل المباشر في سوريا».

«أتمنّى أن يفكّر النظام السوري بالسلام مع إسرائيل كحل مثالي لوقف الفوضى الّتي تعمّ البلاد! وإذا حلّ السلام، وأنا واثق من هذا، سنكون جسراً يصل بين الحكومتين».

أكثر ما كتبه إيلاماً كان عن رحلته التي رافقته فيها إلى سوريا!

«لقد زرت سوريا في ربيع 2004، ضمن وفد رسمي بصحبة السفير

السوري، وقد اعترض بعض زعماء اليهود الأمريكان على الزيارة، لكنّنا قمنا بزيارة مقبرة اليهود، وأسواق دمشق وحلب، وقابلنا مَن تبقّى مِن أقاربنا اليهود، وقابلنا قبل ذلك الأسد، وكان لقاءً مذهلاً. لقد سألناه إن كان سيدعونا لزيارة سوريا مرّة أخرى، فقال: «لا» حين رأى الخيبة على وجوهنا، قال متبسماً: «لا أستطيع أن أدعو سوريين للعودة إلى سوريا، أنتم دوماً على الرحب والسعة». لقد فاجأنا الأسد بكرمه، ولطفه.. في أمريكا كانوا يقولون لنا: لا تذهبوا إلى سوريا ذلك الرجل شرير، ما أجهلهم.. لكنّهم لا يعرفونه! حقّاً لا يعرفون كم كان صادقاً معنا!». وفي خاتمة المنشور التوقيع المعتاد «مستعد قلبي يا الله، مستعدٌ قلبي[28]».

تنهّدت بحسرة، وهمست بحرقة «أنا التي لم أعرفك حقّاً! أنا التي لم أعرف إن كنت صادقاً معي، أم كنت أكبر كذبة في حياتي! أنت الذي قلتَ لي، إنّكَ أصبحتَ نكرة في بلدٍ تشعر فيه بفقدان الهوية والعزلة! وإنّك لم تغادر سوريا إلاّ بحكم العادة، عادة العصفور في الطيران عندما يُفتح له باب القفص؛ ولأنّك ترغب في رؤية الفضاء. ماذا حلّ بكلِّ هذا؟».

انغلقت الدائرة، وأطبقت على عنقي، هل يعقل هذا؟ لم يعد هناك ملامح للبداية، ولا للنهاية! لم أستطع أن أستوعب، كيف تشابكت الخيوط، وتعقدت بهذا الشكل!

على صفحتي في الفيس بوك كتب لي أحد شباب الثورة تعليقاً حول

(28) المزمور 107

صورة وضعتها لمعتقلين ماتوا تحت التّعذيب في سجون النّظام. «ما خفي كان أعظم». أرسلت له أسأله، عمّا يعرفه عن الأمر. كتب لي بأنّه معتقل سابق، موجود حالياً في تركيا، وأنّه رأى بعينيه كيف كان يعامل المعتقلون الجرحى، في المستشفيات، وأخبرني أنّ هناك أطباء جراحة مختصين، كانوا يأخذون أعضاءً من المعتقلين، وهم أحياء، ثمّ يقومون بقتلهم.

لم أستطع أن أصدّق ما يقوله الشاب، لم أشأ أن أصدق، ظننت أنّه يبالغ، وربّما أشيع هذا الأمر بين المعتقلين؛ لنشر الرعب بينهم. لكنّ الشاب كتب لي ثانية «من أين تريدين أن أبدأ حديثي؟ لقد كنت أحد الضباط الذين أصيبوا في معارك درعا، ونُقلت إلى المستشفى 601 العسكري، وهناك شاهدت بعيني كيف كانوا يعلنون عن وفاة المجندين المصابين في المعارك، وهم أحياء، وينقلونهم إلى غرفة العمليات، وينزعون أعضاءهم، ويقتلونهم. وكانوا يُحضرون إلى المستشفى معتقلين من أفرع الأمن المختلفة، تُنزع أعضاؤهم، ويقتلون، ويعيدونهم إلى فرع الأمن. ليس هذا المستشفى الذي يديره ضابط طبيب من آل الأسد وحده الذي يقوم بهذه العمليات بل هناك الكثير من المستشفيات العسكرية، والخاصة أيضاً. أحد تلك المستشفيات تعود ملكيته للضابط الطبيب صادق جميل حسن، وهو شيعي من بلدة الفوعة، ومعروف بتجارة الأعضاء حتّى قبل الثورة، وهو مرتبط بالمافيا الدولية التي مقرها الهند! لا تستغربي سيدتي. ما خفي كان أعظم. فما أعرفه جزء مما يجري في سوريا. جزء بسيط.. تحيّاتي.

صادق! وسمية! وحسن! ترى هل مصطفى أيضاً داخل الدائرة؟

عليّ وعلى أعدائي

زوجة الأمير لم تأتِ مباشرة، بل انتظرت زمنا طويلاً. جاءت خلاله الفتاة الإنكليزية «زينب» رحّبت بي، وجلست تثرثر، وتتوقّف عن الحديث لتبدي قلقها، وتبرمها من الانقطاع المريب للكهرباء. قالت من دون مقدمات، وهي تحدّق فيّ: «يبدو أنّ نورك السبب، علماً بأنّ المولدة لا تتوقّف من تلقاء نفسها، ففيها من البنزين ما يكفي لتعمل 24 ساعة!». لم أرد، ولم أبتسم حتّى للعبارة الأولى، فالفتاة لم تقصد التحبب بعبارتها، كان واضحاً أنّها تلمّح إلى شكّها بأنّي وراء ما يجري. دخلت زوجة الأمير لتنهي ذلك الحرج، والقلق اللذين شعرت بهما. أمرت الفتاة بمغادرة الغرفة، وجلست أمامي من دون نقاب. تأملتها ملياً، وتساءلت، أين رأيتها من قبل؟ السيدة بدأت الحديث قائلة: «أعرف أنّك تشبّهين عليّ، وتتساءلين إن كنّا التقينا من قبل. طبعاً لم نلتقِ إلا حين زرتك وقت قدومك إلى هنا. لكن أستطيع الافتراض أنّك التقيت بشقيقتي، فهي تشبهني إلى حدٍّ كبير». انخلع قلبي من مكانه، وارتعش جسدي بقوة. هل يعقل أن تكون... مدّت السيدة يدها إلى

فمها طالبة مني ألا أتفوه بكلمة، نهضت ببطء، وفتحت الباب بسرعة، ونادت زينب، لتطلب منها كأس زهرات لي. عادت لتهمس: «أنا هي، نعم، كما تظنين، لكن لا أستطيع التحدّث معك عنهن، صدقيني حتّى من دون كاميرات سيعرف، سيخبرونه أنّك أتيت لزيارتي، وسيعرف كلّ شيء؛ لذا أرجوك لا داعي لتستفسري مني عن مكان ابنتيك. أستطيع إخبارك فقط أنّهما على قيد الحياة».

خرجت من بيت الأمير، وأنا أشعر بالإحباط والخيبة، لم يعد أمامي منفذ لمعرفة مصير الفتاتين مالم يقرّر الأمير إخباري من تلقاء نفسه! حين وصلت البيت، صببت جام غضبي على رأس خضر، واتهمته بأنّه ورّطني بالمجيء إلى هنا فقط من أجل مصلحته. كان ينظر إليّ بصمت وهدوء. حين توقفت عن الصراخ، قال: «تستطيعين اتهامي بما شئتِ، أنا أقدّر الحالة النّفسية التي تمرين بها، لكن سأثبت لكِ أنّك مخطئة، كوني على استعداد لمغادرة العطشانة في أيّ لحظة، جهّزي نفسك، وانقلي أمتعتك إلى السيارة، سنكون جاهزين للانطلاق ليلاً».

لم يكن في الحسبان أن يصل الأمير عصر ذلك اليوم من رحلته، كان حضوره مفاجئاً للجميع، صحيح أنّه لم يكن يخبر أحداً بمواعيد تحركاته، ووجهته، لكنّه لم يصدف أن سافر وعاد بهذه السرعة! ارتاب خضر، وأخبرني بأن أتأهب للمغادرة. جمع أغراضنا في حقيبة صغيرة، وقبل أن يخرج، سمعنا طرقات خفيفة على الباب الخارجي، حين فتح الباب، قال له الحارس: «الأمير يطلبك حالاً». تمتم.. بهذه السرعة! نظر صوبي، فهمت المطلوب، رافق الحارس، وأبعده عن المدخل قليلاً.. مررت بخفة، وتسلّلت إلى السيارة، جلست في المقعد

الخلفي حيث تخفيني الستائر المسدلة على النوافذ. جاء على مهل، ركب السيارة، وقادها ببطء.. من دون أن ينظر إلى الخلف، قال لي: «سأنزل من السيارة في الأرض الخلاء، وأمضي مشياً.. إن مضى على غيابي أكثر من ساعة، أو ارتبت بشيء ما، بإمكانك قيادة السيارة في الطريق الذي أخذتك منه البارحة، ستصلين تل أبيض.. إياكِ أن تترددي، أريدك أن تعرفي أنّي أحببت فيكِ أشياء كثيرة، أهمها أنّك تشبهين أمّي!». انتفض قلبي، كنت رغم يقيني بحتمية ما يراه، أحاول إبعاد شبح الخوف، وامتلاك طاقة إيجابية تساعدني على تجاوز معطيات الواقع. الآن أفكاري وقناعاتي كلّها على المحك. فهل تنفع تلك الطاقة التي حاربت بها ظروفي السيئة طيلة ثلاثين عاماً من الغربة، في تغيير مصير خضر؟

لم يكن خضر مخطئاً في حذره، لم يكن مجرد حدس أنبأه بمصيره بل معرفته بالتنظيم طيلة السنتين الماضيتين. التنظيم الذي كان أحد أدواته، وكان اليد التي بطشت بأعدائه، لكنّه لم يستطع تخمين السبب الحقيقي لاستدعائه بهذا الشكل العاجل!

لا شكّ أنّ الأمير قد عرف كلّ شيء، كما قالت لي زوجته، ربّما تكون زينب من وشى به! لكنّ معرفة الواشي لن تقدّم، أو تؤخر شيئاً في طبيعة العقاب الذي سينزله به الأمير؛ لا بدّ أن أتحرّك بسرعة فأنا على يقين أنّه لن يخرج حياً، وإن خرج، فمصيره القتل في الصباح.

أدرت المحرك، وانتظرت دقيقة، وأنا أراقب الفضاء حولي، لاحظت حركة مريبة، كانت هناك سيارة قادمة من الطرف الشرقي للحرش.. أنوارها الأمامية مطفأة! خفق قلبي بشدّة. السيارة اتّجهت صوب بيت

الأمير، وتوقفت على بعد مئة متر منه. لم أعد أرى شيئاً، لكنّ حواسي استنفرت كلّها، كنت أخشى الانتظار أكثر. ماذا لو عرفوا مكاني، وجاؤوا في طلبي! ابتعدت ببطء، وصلت الطريق الرئيس، سلكت الاتجاه الذي أخبرني عنه. لم تكد تمضي خمس دقائق على مغادرتي المكان، حتّى سمعت صوت رصاص أعقبه صوت قذيفة هاون ارتجّ قلبي لقربها، شعرت أنّها نزلت خلف السيارة تماماً! لا أعرف إن كنت رأيت حقّاً، أم تهيّأ لي، تلك الأضواء المبهرة التي علت في السماء كألعاب نارية، لم أعرف مصدرها، ولم أتحقق من ماهيتها، فقط كنت أشعر أنّي وسط الجحيم، وأنّ خضر خرج من بيت الأمير، وأنّه أصبح أشلاء! انطلقت بسرعة جنونية، وصوت الرصاص المنهمر يثقب سمعي، ولا أعرف من أين يخرج، وإلى أين!

حين لاحت أنوار تل أبيض، هدأ قلبي قليلاً!

الحقيقة العارية

بدأ القلق ينهش قلبي من جديد وأنا على بعد مئات الأمتار من المدينة الحدودية. كيف سأدخل المدينة؟ إن أوقفوني على الحاجز ماذا سأقول؟ امرأة غريبة، وأقود سيارة، وآتية من منطقة يسيطر عليها تنظيم الدولة! أوقفت السيارة على حافة الطريق، ارتديت العباءة الملونة التي أهدتها إليّ أم المؤمنين، والحجاب الذي أحضرته لي «زينب» وصنعت من الوشاح البني المزهر لثاماً، كما تفعل فلاحات المنطقة. وضعت حقيبة خضر في كيس نايلون أسود، وأفرغت فوقها حقيبتي الخاصة، ربطت الكيس بحبل أخذته من السيارة، وأوثقته إلى ظهري. حملت عصا، توكأت عليها، ووجدت أنّ ظهري قد انحنى تلقائياً في المشي!

حثثت خطواتي شمالاً صوب الحدود، قرّرت ألا أمرّ من الطرقات المعبدة، وألاّ أدخل المدينة من أبوابها. كان عليّ أن أقطع مسافة طويلة في العتمة، وأن أتلمّس دربي بعيداً عن العمران. لكنّي أخطأت الطريق، فاخترت أن أنتظر طلوع الفجر، لتتّضح لي الرؤية.

وضعت الكيس تحت رأسي، واتكأت عليه، لا أعرف كيف غفوت، إذ

فوجئت بالشمس تدغدغ وجهي، وندى كثيف يبلّل جبهتي. نهضت مفزوعة حين استوعبت أين أنا. إذن كنت أسير شرقاً وليس شمالاً! أحكمت لثامي على وجهي، وحملت كيسي، وتابعت السير. تركت خلفي التلال الجصية، وقصدت الطريق المؤدي إلى الشمال. كانت السهول خاوية إلاّ من بعض المزروعات الضئيلة من البطيخ، والخضار! مازال هناك بشرٌ يتحدون الحرب بغرس الأرض، وانتظار مواسمها. على الرغم من المؤامرة الكبرى التي حاكها النظام لهؤلاء المزارعين منذ بداية السبعينات لتجفيف مسارب المياه، والقضاء على غابات الدُّلب، والثروة المتمثلة بأشجار المشمش، والرمان، والتوت. همست بحرقة «اللعنة.. أيّنما حلّ يترك وراءه الجفاف والخراب!».

حين وصلت المعبر الحدودي كان مغلقاً! أومأت لسيارة عابرة، سألت السائق إن كان يستطيع إيصالي إلى مكان أقيم فيه ريثما يفتح المعبر. نظر إلي بارتياب، وأراد التملص بأنّه لا يقصد المدينة. قلت: «حسناً أنزلني عند الجسر، وأنا أتدبر أمري». قبل على مضض، كان ينظر إليّ في المرآة طيلة الوقت. حتّى شككت في نواياه. أنزلني في أقرب مكان، وتابع طريقه.. نظرت حولي، المكان خالٍ من البشر، تبدو البيوت المدمرة، وبيوت الصفيح، والمنازل التي تنتمي إلى الماضي على بعد مئات الأمتار. مشيت فوق الجسر، كان الباب الحديدي الكبير مفتوحاً، قطعت الساحة الواسعة إلى جامع ومقام «إبراهيم الخليل» لم يكن هناك أحد. كأنّي دخلت مدينة أشباح! الأبنية المتلاصقة مغلقة الأبواب! النوافذ الحديدية محطّمة الزجاج. تطلّعت حولي، لم يكن هناك بشر، هل أغامر بالدّخول؟ تسلّقت النافذة الواطئة، ونزلت إلى أرض الغرفة.

كان قلبي يخفق بشدّة، لكن لم يكن أمامي حل آخر. فهذا المكان المهجور أبعد ما يكون عن أعين الفضوليين. استلقيت تحت النافذة مباشرة، وتكوّمت حول نفسي. كانت أفكاري وهواجسي ومشاعري وإحساسي بالوجود كلّها تبتعد، وأنا أسقط وسط هلام يسرقني بعيداً. حاولت مراراً أن أكلّم نفسي؛ لأبقى مستيقظة، لكنّ شيئاً أقوى مني سلب مقدرتي على المقاومة. وجدت نفسي أقود السيارة ثانية، أبتعد فوق التلال، أسير وسط غابة الدّلب، أقطف من أشجار المشمش، وأملأ السلال بالرمان، لكن فجأة لا أجد في يدي شيئاً. وسط الحقول الفسيحة أرى آناتا، ترتدي زي فلاحة، وسط سماء زرقاء، وحقل أبيض.. تقطف أزهار القطن! أناديها، ولا أسمع صوتي! أناديها ثانية، ترفع رأسها، تبتسم، وتتلاشى.. الجوّ ينقلب فجأة، تغطي السّماء غيومٌ سوداء، يشقّها البرق، وتنهمر القذائف! أراها آتية من الفضاء، تشبه ساحرات القصص المخيفة، تركب صاروخاً ينفث ناراً حارقة، تشتعل الحقول، وتصفر ريح حارّة، تحمل النّار إلى التلال، ولا تبقي على شيء! المطر الأسود يغرق المنازل المهدّمة.. وتنقشع الغيوم، تشرق الشمس، ويبدو السّهل المحيط بالينابيع، والنّهر مرعب الاخضرار، يزحف الخضار، ليغطي كلّ شيء، ويتفتّق الزهر، أرجوانياً، وأبيض.. تسدُّ زهرة النيل الأفق، وتزحف نحوي، تلتفّ حول ساقيّ، تتسلّق جذعي، تطبق بأكفّها المكتنزة على عنقي. أصرخ، وأنهض واقفة.

المكان هادئ، لا يسمع فيه صوت بشر، ولا أصوات اشتباكات، وكأنّه خارج الزمن تماماً!

نبشت ملابسي من الكيس بحثاً عن شيء يؤكل، لم يكن هناك سوى

أصابع بسكويت مالح. لم أشأ أن آكلها، الطعام يستوجب الشرب، ولا يوجد ماء في المكان! أخرجت حقيبة خضر بحرص، تردّدت في فتحها. أعرف أنّه تركها لي، لكنّي شعرت بانقباض، كأنّي سأنبش جثة ميت! هل من الحكمة معرفة أسرار الأموات؟ حاولت أن أجد ما يمنعني من فتح الحقيبة، لكنّي في النّهاية تشجعت، وفتحتها. أوراق كثيرة لم أفهم مما كتب فيها شيئاً، تبدو كحسابات تجارية لمشتريات غير مفهومة! فتحت الهاتف المحمول، فاجأتني الصورة التي اختارها كخلفية للهاتف! إنّها صورة لسهل الغاب، تبدو فيها زهرة النيل وقد غطّت مجرى العاصي، وفي مقدمة الصورة زهرة أرجوانية رائعة الجمال. همست «المكتوب واضح من عنوانه!» أوّل شيء اطلعت عليه الصور، خشيت أن أجد في الرسائل ما يصدمني. لكنّ الصور أيضاً تحكي قصصاً قاتلة! الألبوم الأوّل عنوانه «جسر الشغور 2011، الثاني، بانياس 2013، الثالث، العطشانة 2013، حرش الزل 2013، الهوتة 2013، تل أبيض 2014، سهل الغاب 2014. ما لفت انتباهي أكثر، ألبوم من دون عنوان تظهر فيه صورة فتاة منقبة، عيناها الخضراوان تنظران إلى المصور نظرة خوف. فتحت الصورة بلهفة، كبّرتها قليلاً. هل يمكن أن يوجد شبه بهذا الشكل؟ إنّها آناتا، لا يمكن لقلبي أن يخطئ. الصورة ملتقطة داخل غرفة، تحيط بها فتاتان، خلفهما على الجدار علم تنظيم الدولة، كلّ واحدة منهن ترفع سلاحها عالياً، وبيد آناتا مصحف تضعه قريباً من قلبها! مرّت الصور سريعة ومفجعة أمام عينيّ.. خضر رأى آناتا! هل كان يعرفها؟ هل يعرف أين هي؟ ما هدفه من استدراجي للمجيء إلى مقر تنظيم الدولة في ناحية سلوك؟ تابعت مشاهدة

الصور، كلّها لفتيات يرفلن بالسواد، ولا يبين منهنّ شيء، بعضهنّ ظهرت أعينهنّ من النقاب، البعض الآخر اختفين تماماً وراء سواد الملابس. هل أنتونيتا بينهن أيضاً؟ أين سأجد الحقيقة؟ أين؟

في سجل المكالمات، رقمٌ تركي تكرّر كثيراً، خمّنت أنّه ربّما يكون للمجند علي، لكنّي رأيت رقماً آخر لعلي! هناك شخص مهم رمز لاسمه بأحرف فقط «م.أ» في رسائل الواتس آب. كانت هناك حقائق مؤلمة. رسائل قصيرة، عبارات مقتضبة، فيها أوامر، بالتوجه إلى سهل الغاب، موعد في العطشانة، آخر في الهيئة الشرعية بالرقة. رسائل من دون أسماء، أرقام هواتف تحمل الكود الدولي للعراق، وأخرى لتركيا، وأخرى لدولة خليجية.. وأرقام سورية.. لا يوجد رسالة واحدة مفهومة. يبدو أنّ المرسلين كانوا حريصين على التّعامل بالشفرة، أو أنّ خضر يعرف المطلوب منه بمجرد معرفة صاحب الرقم!

يوم كامل مضى، وأنا أقرأ الرسائل، وأرتّبها، وأحاول فهمها. يوم آخر قضيته في قراءة الرسائل الخاصة في صفحته على الفيس بوك. أمّا الصور فكانت صدمتي فيها أكبر من أن أستوعبها. كان هناك رسائل من آناتا وأنتونيتا، وصور للفتاتين من أيام المظاهرات أمام السفارة السورية في ميلانو.. وفيديو قصير أظهر فيه مع الفتاتين، وهنّ يصرخن «يلعن روحك يا حافظ، ويلعن روحك يا خضور». انهمرت دموعي، متى، وكيف؟ لا يمكن أن تخفيا عني معرفتهما بخضر، وهما تعرفان علاقتي به. قرأت الرسائل مئات المرّات، حدّقت في الصور ساعات طويلة. ثمّ بغتة انتبهت لتاريخ الإرسال. الفيديو القصير، والصور، والرسائل. كلّها أرسلت من موبايل أنتونيتا، وآناتا، بعد تاريخ اختطافهما!

انتفضت، وحملت كيسي، وخرجت من المقام. عند الجسر ومقابل بركة الماء الضحلة، وقفت حائرة تتنازعني رغبتان، إحداهما دفن كلّ شيء يخص خضر، والتخلّص من كلّ أثر له.. والثانية الاحتفاظ بكلّ الوثائق، وحملها معي إلى إيطاليا! لكن.. لماذا أعود إلى إيطاليا؟ ما الذي سأفعله هناك؟ وإن بقيت هنا، إلى أين سأذهب؟ المدينة مستهدفة من كلّ القوى المتصارعة.. وأنا وحيدة ولا أعرف أحداً هنا!

التجليات الأخيرة للخضر

العطشانة /تركيا

كان صادماً جداً ما أرسلته لي فضيلة من رسائل، وصور محوّلة عن طريق الواتس آب، والفيس بوك. في البداية لم أفهم المقصود، ولم أستطع الربط بين الشخصيات، والأماكن.. قضيت أياماً حتّى جمعت المعلومات كلّها في ملفات، رتّبتها حسب تواريخها، وأرفقتها بالصور. حينها عرفت كلّ شيء! وبدأت بكتابة السيناريو فوراً. أخيراً اكتملت صورة الفيلم الذي أبحث عنه.

(أصبح ذلك اليوم بعيداً جداً، يكاد حلمه الذي داعبه أوّل يوم في الاجتياح، بأن يصبح يوماً ما جداً، ويحكي لأحفاده سيرة بطولاته، كما كان يحكي له جده سيرة أبي زيد الهلالي.. يتلاشى! ها هو في مواجهة جديدة مع الموت، كلّما حاول الابتعاد عن طريقه، يقتفي أثره بمكر، يداعبه بخبث، ثمّ يمضي تاركاً إياه في حيرة. في المرّة الأولى حالفه الحظ حين أنقذته يمامة أثناء بحثها عن ابن عمها في حقول الذرة الممتدة شرق جسر الشغور. في اليوم الذي شهد فيه مقتل أربعة عشر جندياً

من رفاقه، آخرهم كانت نهايته على يديه! لم يشعر بالذنب جرّاء ذلك، ففي الحرب تختلط المفاهيم كما تختلط المشاعر. كان على يقين أنّ المسألة قضاء وقدر، تحتم موته، ولم يكن هو سوى أداة نفّذت حكم الموت! لم يعد مهتماً باتّباع نصائح جدته، بألاّ يسير عكس اتّجاه النّهر! سار عكس اتّجاه النّهر، وانتظر قدره بغبطة! لكنّ الرصاص لم يخترق جسده هذه المرّة! إنّها تمائم جدته اللعينة تبعد عنه الموت بل تحجبه. يشعر أحياناً أنّ الموت لا يجرؤ على الاقتراب منه، فقط يرسل له تحذيرات ليشغله؛ لذا قرّر أن يرمي تلك التمائم في النّهر، ويتخلّص من القوة التي تحميه باستمرار، وليأتي الموت بغتةً من دون مقدمات! آثار الشظية في ساعده كانت سطحية، لم يمكث طويلاً في المستشفى، فقد أرسل إليه العميد «م، أ» شخصاً أخرجه من مستشفى انطاكية، وذهب به إلى فيلا خاصة في «العطشانة». قضى فيها شهرين من النقاهة، كان يزوره طبيب خاص بانتظام، وتقوم ممرضة على العناية بجرحه. لم يقابله العميد خلال تلك الفترة، ولم يرَ أحداً من طرفه، ولم يفهم لماذا يعتني به بهذا الشكل! حتّى جاءت صبية جميلة في أحد الأيام، وأخبرته أنّ بإمكانه مغادرة الفيلا إلى أيّ مكان يريده.. فأخبرها أنّه لا يوجد مكان يذهب إليه في تركيا، فهو لا يعرف أحداً هنا، ويفضّل لو أنّه قابل العميد. أخبرته أنّ ذلك بحاجة إلى إجراءات وإذن، وهذا سيأخذ وقتاً، وأنّها ستمر عليه في الغد إن حصلت على الموافقة! في فترة النقاهة تلك، سمع خضر كلّ ما أشيع عن العميد، وامتلأ قلبه بالخوف، والحذر من مقابلته، لكنّه أصر على خوض تلك المغامرة! كان العميد محاطاً بدائرة من الرجال لا يمكن لأحد أن ينال شرف

لقائه مالم يأخذ موافقتهم! كان يومها يقضي إجازته في يخته وسط البحر قريباً من «السويدية». الرجال كانوا حريصين أثناء عزلته على تقديم تقارير يومية عمّا يجري في اليابسة بعيداً عن فضاء يخته!

لم يكن بحاجة للمعلومات التي يقدّمها رجاله من كلّ مكان، لكنّه لم يتخلَّ يوماً عن متعته العظيمة في قراءة التقارير التي يقدّمونها إليه في ساعة محدّدة من كلّ ليلة.

حين يتنفس الصبح، يُطلق أرواحهم من قضبان أصابعه فينتشرون في المدن، والقرى، والسّهول، والمرتفعات، والغابات بلمح البصر.

على كرسيه الأثير، وبالقرب من أجهزته الذكية المرصوفة أمامه بعناية، على طاولة من خشب الخيزران، يجلس مسترخياً لمدّة لا تتجاوز انتهاءه من رشف فنجان قهوة مركز، يدعمه بطاقة سحرية، ليست من مميزات البن البرازيلي الفاخر بل من خلطة سرية، يضعها ساعده الأيمن بحرص شديد في الماء المغلي ما يقارب نصف ساعة، قبل البدء في إضافة البن المطحون بنسب متفاوتة. فهو حريص أن يتبقّى في أسفل الفنجان الضخم، بنٌّ مجروش، فوقه طبقة طينية من البن الأشقر، فالبن الناعم الأسود المغلي لمدة طويلة، ترتفع فوقه قشدة القهوة بلونها العسلي المميز.

عملية معقدة يمر بها تحضير فنجان القهوة، تشبه إلى حدٍّ بعيد تلك العمليات الحسابية التي يجريها بعد ساعة من تناوله لمشروبه الساخن! عملياته الحسابية المعقّدة تتناول كلّ شيء في الحياة، وتحوّله إلى أرقام، وأولها الجغرافيا. ليس صعباً أن تخضع جغرافية أيّ مكان لعملية القسمة، أو الضرب، أو الطرح بحسب معطيات مزاجه

اليومي، أو رغبته في الهيمنة المطلقة على المنطقة.

لم يُعرف عنه أنّه يعمل لساعات طويلة في النهار، فغالباً ما يقضي أوقات الضحى في نزهة بحرية على ظهر يخت مجهز بأسباب العزلة التامة. لكنّ حواسه تبقى على أهبة الاستعداد لالتقاط أيّ إشارة تصله عبر التخاطر مع ما يجري خارج حدود الغرفة ذات الجدران المصنوعة من خشب الأبانوس، والمغطاة بقماش القطيفة الأزرق السميك، والأرضية المفروشة بسجاد «عجمي» ذي رسوم رمادية معقدة، تتخلّلها أحرف عربية لكلمات فارسية، شكّلت أجنحة طيور جارحة.

بعد تناوله الغداء في طقس احتفالي تختلف تفاصيله الصغيرة كلّ يوم. يبدأ جلسته التأملية عصراً بحل مسألة حساسة، يختبر فيها قوة حواسه، وجاهزيتها القصوى.

لم تكن قدراته الخارقة موضع إعجاب أتباعه فقط بل أعدائه أيضاً. أمّا تمتعه بالصّحة الدّائمة، والشباب الدائم، فقد كانا سبباً في الخوف، والإعجاب اللذين يحظى بهما أينما حلّ. مع ذلك لم يكن كثير الترحال، فقد كانت أفكاره تنحصر في السيطرة على منافذ البحر، وتشكيل دولته الخاصة. الدولة الّتي أنشأ لأجلها حزباً معارضاً للحكومة التركية، منذ أواخر السبعينات في القرن الماضي.

استعرض -بعد عشاء خفيف- كلَّ التقارير الرسمية التي وصلته من رجاله. الشاشة أمامه قُسِّمت إلى مربعات صغيرة، تنقل أخبار الأرض، لكنّه لم يكن يهتم لها.. بل كان يتطلع إلى شاطئ المتوسط في الشريط السّاحلي السّوري.. حيث الشمس، والفتنة، والأساطير!

في طفولته البعيدة، حلم أن يكون سندباد، أو علاء الدين، لكنّ

شخصية العملاق داخل الفانوس السحري اجتذبته أكثر، فقرّر أن يكون ذلك العملاق، ليحقّق حلمه في امتلاك المال والقوة، لا حلم الآخرين، فهو لن يكون داخل القمقم أبداً! ولما لم يستطع الحصول على المال بالعمل. سطا على أحد البنوك، وهرب من السجن في الثمانينات، بعد أن زوّر رجاله أمر إخلاء سبيل، ودخل سوريا ليحصل على الجنسية فيها عن طريق شقيق الرئيس، وتزوج امرأة من عائلته! قضى عمره عميلاً مزدوجاً، فقام بتصفية أعضاء التنظيم الذي ينتمي إليه في مقره «بالفرلق» داخل الأراضي السورية.. وذلك إرضاء للحكومة التركية!

في بداية الثورة السورية وجد غايته في البحث عن الخلود! وكان صاحب فكرة تسليم المناطق الكردية المحاذية لتركيا، لحزب العمال الكردستاني، واستخدامها كورقة ضغط على الحكومة التركية!

على شاشة الكمبيوتر ظهرت صورة لفتاتين إيطاليتين جميلتين، كتب تحتها تقرير مفصل عن اختطافهما في منطقة «الابزمو». لم يهتم كثيراً بقراءة التقرير. وضع الصورة ملء الشاشة.. تأملها جيداً، وطلب أن يجلبوا له خضر.

حين رأى خضر العميد، صدمته تلك اللهجة الفظة التي يتكلّم بها، ولم يشعر بتلك الهالة من الغموض التي تحيط بصوره، ولا بتلك السطوة الّتي تبرز من عينيه في تلك الصور. كان رجلاً عادياً، بذيء اللسان، يشرب عرق التين بمتعة كبيرة، ولا يترك مجالاً للحاضرين لنقاشه، أو مجادلته، أو مراجعته في أيّ أوامر يلقيها. لم يكن يجيد الخطب، ومن الواضح أنّ أحداً ما يملي عليه ما سيقوله! لكنّه بالمقابل، كان كريماً، لا يتحدّث إلى الرجال قبل أن يملأ بطونهم بأشهى المأكولات، ويجعل

أرواحهم تحلّق، بأفضل أنواع المشروبات.

بعد الاجتماع انتحى به جانباً، وسأله عن الأسرة الّتي عالجت إصابته الأولى في جسر الشغور، إلى أين نزحوا؟ وأين يسكن الطبيب الذي عالجه، ومن أيّ طائفة هو؟ ثمّ أين ذهب المسلحون الذين رافقوه إلى تركيا.

على الرغم من أنّه يرى تلك المعلومات تافهة ولا أهمية لها، إلاّ أنّه حاول أن يجيب بدقة على كلّ سؤال. مع أنّه لا يعرف بالضبط، أين ذهب المسلّحون الذين أنقذوه، وأنقذوا يمامة، في البداية طلب منهم أن يرافقهم، لكنّهم قالوا له، إنّهم سيعملون في مدينة الريحانية بالمياومة، ولن يعودوا إلى العمل المسلح! لكنّه يعرف أنّ الطبيب لم يغادر مخيم خربة الجوز، بقي هناك لعلاج المصابين. ابتسم العميد، وقال بأسف: «يبدو أنّك ساذج، هل صدّقتهم؟ كان عليك أن تنضمّ إليهم حتّى في العمل المدني». قال: «لن يأخذوني معهم في مطلق الأحوال، لا أحد يُشغّل شخصاً مصاباً، الأتراك يستنزفون السوريين إلى أبعد حدّ في العمل. قال العميد: «حسناً لم يفت الأوان بعد، ستعود إلى سوريا هذه المرّة معي.. لن تعمل عند الأتراك الأجلاف».. وأطلق ضحكة طويلة، انتبه على إثرها خضر أنّ كلامه طال العميد، فهو يعتبر نفسه تركياً، وإن كان من علويي اللواء، ويحمل الجنسية السورية. أراد أن يعتذر، لكنّ العميد قهقه مجدداً، وهو يضربه على كتفه، ويقول: «ما زلت غرّاً يا ملازم خضر، مع هذا سأنتدبك للعمل معي، وسيكون انتقامنا منهم رهيباً. معركتنا القادمة في الساحل. سنقتلعهم من أرضنا، بانياس هي الطريق الوحيد الذي يمكّن الإرهابيين من الوصول إلى البحر. سنطوّق بانياس، ثمّ نبدأ بتطهيرها، هذا أمر عاجل جداً، علينا التدخل، ودعم

الحرب الجارية».

فكّر خضر بكلام العميد.. ما أغرب ما يشعر به! منذ بدأ يفكّر، وعقله يرميه في أودية الجحيم. ما الضرر في الطاعة العمياء؟ لماذا يعمل هذا العقل البائس! منذ بداية الحرب اللعينة وهو يطيع الأوامر، ويسجد لإله يتمثل في شخص الرئيس، ولا يعرف شيئاً عن الأديان، ولا يهمه الإيمان بإله خالق للأكوان، لا من قريب، ولا من بعيد. بعد النزوح تعرّف على شباب يعملون في التهريب، محاولاته لتهريب المازوت كانت غير مجدية، فهو لا يملك سيارة، وما يدفعه صاحب السيارة له لا يكفيه نفقاته الشخصية. قرّر أن يعمل في تهريب البشر عبر النّهر، اشترى حلّة، ورابط على الطرف السوري زمناً، زملاء المهنة حاربوه.. ونجا بأعجوبة من رصاص الجندرمة، أثناء عمليات التهريب. قرّر أخيراً، أن يبقى في تركيا، ويبحث عن عمل. في تلك المرة كان برفقة رجل قتل أثناء ركضهم في النفق، تركه هناك، وأخذ الصرة الّتي كان يحملها. اكتشف حين فتحها، أنّ فيها نسخة من الإنجيل قديمة جداً، ومهترئة الأطراف، النسخة مكتوبة بماء الذهب على جلد غزال، ليس فيها الكثير من الكلام، فيها صور لمريم والمسيح. أدرك أنّ النسخة مسروقة من إحدى الكنائس، ولا شكّ أنّ الرجل أراد أن يبيعها لمهربي الآثار، وربّما يكون هو نفسه واحداً منهم. احتفظ بها بين ملابسه، ريثما يجد من يشتريها منه.

حطّ رحاله أخيراً في شارع سراي، عند الجسر الأبيض بأنطاكية، وعمل في مطعم «الأناضول». بعد عدّة أشهر من العمل في المطبخ لم يحتمل سوء معاملة العمال الآخرين ومحاولتهم الكيد له عند صاحب المطعم

الذي استدعاه، وطلب منه أن يبتعد عن المشاكل، كي لا يفصله من العمل. قرّر أن يخبر صاحب العمل عن نسخة الإنجيل، قال له بأنّ صديقاً يملك تلك النسخة، ويريد بيعها، لكنّه لا يعرف أحداً ممن يشترون الآثار، ويتاجرون فيها. طلب منه صاحب المطعم أن يحضر صديقه، وهو سيسعى لجمعه بمهربٍ يتاجر بالآثار السورية. اعتذر بأنّ صديقه لا يريد أن يظهر بالصورة، أو يعرفه أحد، وأنّه سيقوم بدور الوسيط.

بعد أن رأى التاجر نسخة الإنجيل الملفوفة بقطعة قماش قديمة، وتفحصه جيداً، قال له: «إن كانت النسخة أصلية، أشتريها منك بمليون دولار». أخذ النسخة ليعرضها على خبير يحدّد عمرها. عاد بعد أيام، وأعاد إليه النسخة، وأخبره أنّ هذه النسخة ليست الأصلية، فقد قام خبير بتزوير هذه النسخة، وسرقة الأصلية من الكنيسة. وأخبره أنّ هذه النسخة مسروقة من كنيسة اليعقوبية بالتحديد، ثمّ أضاف ساخراً: «هل تصدق أنّ آل الأسد تركوا لكم كنوزاً في المتاحف والكنائس؟ سيكتشف السوريون يوماً أنّ كلّ ما بقي لهم من الكنوز التاريخية مزور، والحقيقي بيع للأجانب.

ربّما خدمته الظروف حين تعرّف على أحد الزبائن «الدسمين» بعد خدمته الجيدة لطاولته، اكتشف أنّه قائد إحدى فصائل جبل الزاوية.. لا يدري أيّ شيطان وسوس له، ليخبر ذلك القائد أنّه ملازم منشق عن الجيش، هرب من معارك جسر الشغور، ولجأ إلى تركيا، وأنّه ينتظر فرصة للعودة إلى الوطن، والقتال هناك! من الواضح أنّ القائد الذي كان يأتي بشكلٍ منتظم إلى انطاكية، ويأكل مع رجاله في

هذا المطعم، لم يغفل عن اللهجة التي يتحدّث بها خضر، على الرغم من محاولته تحاشي نطق القاف، أو أيّ لفظ محلي يدل على بلدته.. لكنّه تجاهل الأمر، وكأنّه لم يلاحظه! خضر أيضاً لاحظ ريبة الرجال في طلبه، فقرّر أن يكشف هويته كي يكسب ثقتهم. حدّث القائد على انفراد، أنّه يخشى أن يُظهر هويته لأحد، حتّى لا يصل أمره إلى قادته، ويعرفون مكانه، حينها لن يرحموا أهله.. ولهذا يحمل اسماً مستعاراً، ويدّعي أنّه من ريف دمشق.

لم يحضر خضر معارك كثيرة مع قائده الجديد، ولم يتسنَ له أن يخترق الصفوف، ويعرف أيّ شيء عن تحركات الفصيل، فقد أصيب أثناء قصف النظام على قرى الجبل بشظية في ساعده، نُقل على إثرها إلى مستشفى الريحانية، ومنه إلى انطاكية.

مالم يتوقعه خضر أنّ تلك الإصابة ستكون مرحلة تحوّل جذري في حياته! فالعميد أرسله للعمل تحت إمرة العقيد -الأسطورة- أيوب..

العطشانة /العراق

كانوا يصفون العقيد «بالثعلب» وعُرف منذ بداية الثورة أنّه صاحب المهام الصعبة، وقد ساعدت البروباغندا الإعلامية في إضفاء صفات غير اعتيادية عليه، لِبثّ الهلع في صفوف المقاتلين في الجبهات. اختفى العقيد منذ فترة بعد معركة «كسر القيود عن أريحا الصمود» ولم يُعرف مصيره، أو على الأصح، أُحيط اختفاؤه بتعتيم إعلامي كامل، لكنّ تسريباتٍ لصور العقيد كانت تظهر على موقع التواصل الاجتماعي، واليوتيوب، تُظهر العقيد في مناطق غير معروفة، يقوم على تدريب فرق قتالية، سُميّت «فرق الموت». بعض الذين نقلوا الصور، قالوا، إنّها إمّا في العراق، أو صور مفبركة. المؤيدون مالوا إلى القول، إنّها مفبركة، إذ من الغريب أن يذهب العقيد إلى العراق، ما الذي سيفعله هناك، والجبهات في سوريا بحاجته؟

لم يتوقع خضر أن يعمل يوماً تحت إمرة العقيد، كان يشعر بالصدمة من أمرين، الأوّل أنّه في حضرة الرجل القوي الغامض، والثاني أنّ الرجل الجبّار لم يكن كما تخيله! هيئته الغريبة صدمت خضر،

وجعلته يحدّق فيه ببلاهة، أضحكت العقيد، فمد يده، وصفعه تحبباً، وقال: «هذه لتصحو، وتتأكّد أنّك لست في حلم». دار رأس خضر قليلاً، وخفض رأسه، وصار ينظر إلى قدميه، وهو يرتجف، جفّ حلقه، وخرجت الكلمات مشروخة، ومتقطعة: «بانتظار تعليماتكم سيدي».

أُرسل خضر للتدريب في «فرقة الموت». لم يكن يعلم إلى أين ستذهب هذه الفرقة، وما هي مهمتها، لكنّه أدرك خطورة ما سيسند إليها. قضى أشهراً صعبة من التدريب في بلدة عراقية تدعى «العطشانة»، ثمّ أُرسل إلى تركيا للاجتماع مع العميد. أغرب ما واجهه في تلك الفترة صعوبة التعامل، والتفاهم مع الأشخاص الذين يتدرّب معهم، فقد كان معظمهم «غرباء» وهذا ما استنكره بصمت، لكنّه قرّر ألاّ يفكّر بالأمر، مادام الكبار يعلمون ما يفعلون! ومن هنا بدأت التغييرات تقتحمه من دون أن يملك لها رداً.. وجد نفسه يحفظ آياتٍ من القرآن، ويطلق لحيته، ويرتدي ثياباً غريبة الزي عمّا اعتاده في حياته، لكن أصعب الأمور، وأقساها على الإطلاق، اضطراره للامتناع عن التدخين في الأماكن العامة. كان عليه أن يلجأ إلى جحره، ويطفئ الأنوار، ويدخّن سراًا! مع هذا لم يُبدِ أيّ احتجاج، ولم يفكّر بالتمرد، فهو يدرك أنّ كلّ ما يفعله يندرج داخل الخطة التي رسمها الكبار. وقد سمح له أن يدخّن كما يحبّ في تركيا.. وأن يمارس حياته بشكلٍ طبيعي!

الأمير «أيوب» الذي تخلّى عن لقب عقيد، وأجبر من حوله على نسيان لقبه «الثعلب»، أوكل إلى خضر مهمة لقاء وفدٍ من «الغرباء» في «العطشانة» التركية، وتسهيل مروره إلى سوريا. حين عاد من مهمته مع السيارات المليئة بالمقاتلين، كان المقر قد استقبل عدداً كبيراً من

«الغرباء» عبر الحدود العراقية السورية. لاحظ أنّ السوريين القلائل الموجودين يستعدون للمغادرة، وأعطيت له الأوامر، كي يقودهم في رحلتهم إلى تركيا! أنبأه حدسه أنّ هذه الرحلة سيكون وراءها أمر خطير للغاية، ولم يتعوّد أن يخذله حدسه.

عبرت فرقة الموت الحدود السورية، في الصباح الباكر في الثاني من أيار؛ كان الجوّ دافئاً صاحياً، وروائح الزهر في الغابات القريبة تدوّخ الجنود الذين قضوا فترة طويلة من التدريبات في المناطق الصحراوية، وقبلها وسط النار في المواجهات الداخلية.

قرب العصر تمركز البعض في المرتفعات حول قرية البيضا، ونزل آخرون، واقتحموا القرية، وانتشروا في شوارعها. الشوارع كانت خالية تماماً. بقي خضر على المرتفع، وأوكلت له مهمة تصوير البطولة الخارقة للجنود في قتل العصابات المختبئة في القرية! لا يدري لماذا استبعده العميد في اللحظة الأخيرة، وطلب منه عدم النزول إلى القرية. «أن تكون شاهداً أمينا على ما سيحدث خير لكَ من أن تكون مقاتلاً». أحاط العميد كتفه بذراعه، وهو يقول ذلك، ونزل إلى القرية مع باقي جنوده. ليست المرّة الأولى الّتي يشعر فيها خضر، بأنّه يجب أن يكون خارج اللعبة. فنتائج الفخاخ السابقة التي وضع نفسه فيها، والتي حُشر فيها من دون رغبته، أكّدت له أنّه لم يعد يصلح لخوض الحروب، ربّما كان العميد قد فهم ذلك في اللحظة المناسبة، هل كانت يده ترتعش، وهو يدير الكاميرا في كلّ الاتجاهات، ويصور الطبيعة الهادئة، والشوارع الخالية، والجنود المنتشرون فيها، والبيوت. كان مأخوذاً بالجمال من حوله، حين دارت الكاميرا، لتجد أمامها جثثاً

مرمية في الساحة. المنظر الذي اعتاده خضر منذ بداية الثورة، أثناء قتاله في الجسر، وفي إدلب، وفي حلب، والآن.. صار المنظر اعتيادياً، لدرجة أنّه يشعر بعدم بشريته، لا يمكن للقتل أن يكون اعتياداً، بل يمكن.. يمكن...

أدار الكاميرا ثانية، كان الجنود يسحبون الجثث، ويرمونها داخل أحد البيوت، دفعت قدماه جسده من دون وعي، نزل بسرعة لم يتخيّل أنّه يمتلكها، كان كالمجنون، يركض في الشوارع، ويلاحق الجنود، ويوثق بالفيديو، والصور...

لم يبدِ العميد رضاه عن عمله بل بالعكس، مد يده، وأعاد إليه الكاميرا مع أمر واضح: «الصور بحاجة لمونتاج، لقد ظهر فيها مالا يجب أن يظهر! شاهد الصور مراراً على شاشة كمبيوتر، وحاول أن يصنع منها فيلماً وثائقياً، حين قدّمه للجنرال، ابتسم برضا، وقال: «عمل جيد، قم بإتلاف ما تبقى». لم تكن تلك الصور كلّ شيء، فقد حرص على أخذ صور أخرى بهاتفه، وسجّل مقاطع صغيرة لا تتجاوز الدقيقتين، يُسمع فيها صوت الجنود، وهم يعتدون على النساء بألفاظ نابية، ويغتصبونهن. لم يكن باستطاعة خضر أن يلتقط أكثر من صور الأقدام، والأصوات من مخبئه. القصة التي دوّنها خضر بهاتفه النقّال عن مقتل عائلة كاملة بأبشع طريقة يمكن أن تصل إليها مخيلة بشر، هي القصة التي حرص ألّا يراها، ولا يسمعها أحد، حتّى هو.. لم يقدم على رؤيتها بعد توثيقها. دخل الجنود أحد البيوت، حطموا كلّ شيء في البيت، وأخرجوا سكّانه إلى الساحة، كانوا ثلاثة شبان، وفتاة، وأمّهم. الأب كان غائباً. قيدوا الأم، والفتاة، وصفوا الشباب إلى الحائط، قتلوا

الأول، والأم تصرخ، وتستغيث، وتطلب منهم الرحمة، قتلوا الثاني، طلبت منهم الرحمة، وأن يتركوا لها أصغرهم، أحدهم نخزها في صدرها بعقب سلاحه، وقال: «هذا المدلّل، أصغرهم، حسناً لن نقتله... اقتلع الجندي عيني الشاب، ووضعها في يد أمّه، ثمّ قتله. حين جاء الدور على الفتاة، كانت الأم قد فقدت عقلها، وصارت تهذي. رأت ابنتها وهي تغتصب، وتقتل، لكنّها لم تصرخ، ولم تستغث، كانت فقط تنظر إلى العينين في كفها المفتوح، وترتجف. الجندي اقترب منها قبل أن يسحبوا الجثث إلى الخارج، وفكّ يدها المقيدة، وقال: «سأرأف بسنك، اذهبي، أنت حرّة!». قبل الانسحاب، أضرموا النار بالبيت الذي جُمعت فيه جثث الشهداء.

في اليوم الثاني، أوقفوا العبور إلى قرية «رأس النبع» مُنع النّاس من الدخول إليها، أو الخروج منها، وأغلق الجسر بحاجز. عبر الجنود الجسر. وكانت المجزرة الثانية! لم يحتفظ خضر من مجزرة رأس النبع سوى بصور الأطفال! موثقة بأسمائهم المكتوبة بخط اليد على طرف الصورة.. من الواضح أنّ الصور سرقت من بيوت أصحابها قبل المحرقة.

العطشانة/الرقة

حرش الزل

ابتعاده عن تركيا جاء برغبة خالصة في التّملص من المشاركة بمجازر جديدة في الساحل، فقد صرّح العميد في أكثر من مناسبة، بأنّه سيسعى لتطهير بانياس من السّنة؛ لأنّها المنفذ البحري الذي يجب إغلاقه في وجه العدو! لكنّ العميد، لم يشأ أن يترك له الخيار في المكان الذي سيذهب إليه. أرسله ثانية ليرافق العقيد أيوب بعد سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية على الرقة! انتقل من جحيم إلى آخر، ما الفرق بين الذهاب إلى «كسب» مع العميد، أو القتال مع العقيد في الرقة! شعر أنّ الأمور اختلطت إلى درجة تساوت معها، وأصبحت الغاية هي القتل فقط.. ولا شيء سوى القتل! ليس مهماً من تكون الضحية، وليس مهماً إن كان قريباً منها أو بعيداً عنها. أصبحت البدايات مجرد ذكرى، فقد كان القنص بالرصاص من مسافة بعيدة يجعل الأمور تبدو سهلة، وممتعة أحياناً، فهو لا يرى سوى صورة الضحية، مجرد صورة تتحرّك لا أكثر.. لا يسمع أنفاسها، لا

يشعر بذعرها، لا تصله حشرجتها الأخيرة، ولا تتسرّب إلى يده حرارة دمائها وهي تنشب ملوثة ثيابه! هنا اختلف الأمر تماماً.. كان عليه أن يجرّب القتل، وعيناه تحدّقان في وجه ضحيته، حتّى صارت النظرات الجامدة، بعد اختلاج الجسد وهموده، تفزعه. صار يرفض الذبح من دون تغطية وجه الضحية، أو عصب عينيها على الأقل. مع هذا كان يشعر بحرارة الدم، وكأنّه يقبض على جمر. الفتى الذي نفّذ فيه حكم الإعدام؛ لأنّه كان يدخّن علناً، أكثر الضحايا الذين تركوا في نفسه أثراً، فقد كانت نظراته ثابتة حتّى بعد موته وصلبه في الساحة.. وقف أمامه دقائق شعر أنّها دهر، كان خلالها متيقناً أنّه ينظر إليه من وراء العصابة التي تغطي عينيه. مدّ يده إلى جيبه ليخرج علبة الدخان، كان بحاجة للتدخين، انتبه قبل أن يقترف ذلك الخطأ القاتل. ركب سيارة الجيب، وفرّ من الساحة. قاد السيارة مسافة كيلومترين حتّى وصل «حرش الزل». هبط منها، ودخل الحرش، قرفص، وأشعل سيجارة، بلع الدخان بقوة جعلت السعال يتمكّن من حنجرته. إنّها المرّة الأولى التي يشرق فيها من دخان سيجارة! أحس بحركة خفيفة بين أعواد الزل، وفجأة وجد أمامه ولداً لا يكاد يتجاوز العاشرة من عمره، ملابسه متسخة، وعيناه تلمعان بود. سأله ببراءة: «ألا تخاف أن يقتلوك لأنّك تدخّن؟». قال من دون تفكير: «وكيف سيعرفون؟ لا أحد يراني». قال الولد بمرح: «أنا أراك.. ألا تخاف أن أخبرهم؟». استشعر في كلامه نوعاً من التحدي، والثقة، سأله: «كيف ستخبرهم، نحن في الخلاء هنا؟». ابتسم الولد، وقال: «أنت جديد هنا على ما يبدو، لسنا في الخلاء.. نحن نقيم هنا قريباً.. والحرش لن يخفيك عن

أعين المجاهدين». انتفض خضر، وهبّ واقفاً...

لم يستطع فيما بعد أن يتذكّر التفاصيل الدقيقة للحادثة، لا كيف استفزه الولد، ولا كيف أمسك بخناقه، ولا كيف طعنه. كلّ ما يذكره، أنّ الولد لم يفقد رباطة جأشه، وبدا جسده قوياً، وقاومه بعنف جعله يستبسل كي يسدّ فمه، لكنّ الولد قال له: «سيقتلونك، لن تستطيع الهرب». حين رأى الولد يتهاوى بين أعواد الزل، وقد فارق الحياة. نظر حوله بخوف، سار بعيداً، تأمل المكان. لم يجد أحداً، ركب السيارة، ثمّ تراجع عن فكرة ترك الجثة هناك. لاشكّ سيجدونه، وسيبحثون عن قاتله! ألم يسبق له أن ترك الولد هناك في حقل الذرة في جسر الشغور؟ ألم تعرف الفتاة، والكلب، أنّه القاتل؟ نزل من السيارة بسرعة، كوّم فوق جسد الولد أعواداً يابسة، وحشائش، أشعل النار فيها، وفرَّ من المكان، قاصداً مقر العقيد.

طيلة السهرة كان صامتاً ومرعوباً من فكرة بدأت تقلقه، ماذا لو كان الولد صادقاً، وثقته بنفسه لم تأتِ من فراغ؟ سأله العقيد فجأة: «ما الذي يشغلك؟ لماذا لا تشاركنا الحديث؟ بالمناسبة، أين كنت؟ لقد سألت عنك بعد عملية الإعدام، ولم أجدك!». قال بقلق: «كنت جائعاً، ذهبت لتناول الطعام». ضحك العقيد.. «أنت الخاسر، كنت سأعزمك على وجبة دسمة».

في الصباح الباكر كان معسكر التدريب مقلوباً رأساً على عقب، لقد فُقد ابن أحد المجاهدين ممن يتدرّبون للقيام بالعمليات الانغماسية!

الهوتة

العقل وحده يمكن أن يعطي فكرة غير واضحة عمّا هو إلهي! إذن عليك ألا تستخدم عقلك، الأمير يفكّر عنك، العقيد يأخذ القرار عنك، وأنت عليك التنفيذ فقط. هذا ما خلص إليه خضر بعد خلوة مع نفسه، حاول أثناءها محاكمة بعض ما يجري حوله!

لا يدري لم يوسوس له شيطانه كلّ فترة بالحديث مع عقله، ليسأله تلك الأسئلة العقيمة التي لا إجابات لها؛ مع أنّه أخذ قراراً أكثر من مرّة، بأنّه سيمتنع نهائياً عن التّفكير، تلك المصيبة الّتي يفرح الآخرون؛ لأنّهم يتمتعون بها. حدّث نفسه: «أيّ متعة في أن تُدخل رأسك في عنق الجرّة! اللعنة، ستفقد الأوكسجين خلال دقائق». تحسس رأسه، ما زال ثابتاً مكانه، وسيبقى طالما ينفّذ الأوامر من دون أن يفقد الأوكسجين! عندما انتدبه الأمير ليكون حارساً للمعتقلين من الناشطين، كاد يرفض، فقد تعوّد على القتال، على القنص، على الذبح.. إنّما الحراسة! والبقاء ساعات بلا عمل سوى مراقبة كائنات تجيد التفكير! فهذا أمر لا يحتمل. حاول الاعتراض، لكنّ العقيد نظر

إليه بصرامة، نظرة تجبره على القبول، ثمّ أخبره بعد مغادرة مجلس الأمير، أنّه هو من اقترحه لهذا الأمر.. قال له: «أريد مراقبة دقيقة، وقوائم بأسماء الناشطين من المعتقلين. أنا لا أثق كثيراً بالأمير ورجاله، وهناك شخصيات أريد منك أن تخبرني بوصولها إلى المعتقل». وناوله ورقة بالأسماء، طلب منه أن يحفظها، ويتخلّص منها مباشرة.

حين قاد الشاب المصور إلى القبو، سأله الشاب باهتمام: «ألست سورياً؟ كيف ترضى باعتقال سوري مثلك ومعاقبته وهو يحارب النظام مثلك؟». قال من دون تردّد: «يجب ألا يقتصر العقاب على هؤلاء المنتمين للنّظام بفاشيته المعروفة، بل يجب أن يطال أيضاً البسطاء الصامتين الذين يساعدون النّظام على الفتك بهم. وإن لم يعاقبوا الآن، فأموالهم مباحة». قال الشاب: «إذن ستعاقب الشعب كلّه، وهذا من المستحيلات». قال: «مَن لم نصل إليهم بعد، سيأتي يوم يمثلون فيه أمام محكمة عادلة». سأله الشاب: «ما العدل؟ هل أنت من يضع أسسه؟ مَن تكون لتنصّب نفسك قاضياً على الناس البسطاء الذين لا يملكون الوعي الكافي لمعرفة الحقائق! ممن تأخذ شرعيتك أصلاً؟». ردّ عليه بجفاء: «شرعيتي آخذها من ديني، وديني يقضي بمعاقبة كلّ من يخالف تعاليمه».. تذكّر خطبة الأمير، لام نفسه، اللعنة على الذاكرة، اعتدل في وقفته قليلاً، وقال: «اسمع يا هذا، أنا ممنوع من مناقشتك، وأيضاً قد أتعرّض للعقاب إن عرف الأمير أنّي أناقشك». قال الشاب بتسامح: «أنا سأصف لك ما أنت فيه، لعلّك تفكّر قليلاً بما تفعله. يأخذ العقاب شرعيته وقطعيته من الفكرة الدينية التي ينضوي تحتها، أنت لا تستطيع أن تفرض هذه

العقوبات بثوب مدني؛ لذا تربطها بالله والشرائع، لتأخذ قوة الحكم القطعي الذي لا يقبل نقاشاً، فتخرس من يعترضون؛ لأنّ من يعترض يكفر، ومن يكفر مصيره القتل! وأنت وقادتك دينكم القتل، فكّر بهذا، فربّما تتوقّف عن قتل إخوتك في الوطن والدين». نفض خضر رأسه، وصرخ وهو يغلق الباب بعنف: «لا أريد أن أفكّر، لا أريد أن أفكّر، اللعنة عليك، وعلى التفكير، وعلى من يفكرون».

لولا أنّه أوقف سيل الكلمات التي نهبت عقله، وأعاد برمجة نفسه على الطاعة العمياء، ما استطاع أن يقذف بجثة ذلك الشاب إلى عمق «الهوتة» كان أوّل شخص يرمي به إلى هناك.. وبعدها كان عليه أن يجرَّ كلّ من قتلهم رجال الأمير، ويرميهم داخل الفتحة الجهنمية.. وعندما ينتهي، ينظر بقلق إلى الحمام الذي يخرج من الفتحة، ويقف أعلى الحافة، ويهدل بحزن أقرب إلى النحيب!

سهل الغاب

بدأت الأمور تتعقّد عندما اقترب من جسر الشغور، كانت التعليمات تقضي بأن يحلق لحيته، ويرتدي ملابس الجيش، ويقود سيارة عسكرية، ويستخدم اسمه الحقيقي ورتبته. البطاقة التي أحضروها له كانت طبق الأصل عن بطاقته المفقودة التي اختفت أثناء نزوحه مع العائلة التي أنقذته منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام. لم تكن طبيعة المنطقة الجغرافية، ولا الحواجز المنتشرة عبرها هي السبب بل إحساسه بالخوف كلّما صار أقرب من مكان حادثة القتل الأولى التي ارتكبها! لماذا عليه أن يختبر مشاعره تلك مرّة أخرى؟ مرّ قريباً من السهل، قبل أن تنعطف السيارة في طريق الغاب. تجنب النظر يمين الطريق، أو يساره، كان منظر الحقول الممتدة على الجانبين مفزعاً.. الأرض لم تُزرع، نباتات شوكية متوحشة نبتت على جانبي الطريق. عينا الفتى الملونتان تلاحقانه عبر السهل المقفر. لا أثر لدخان الجلّة. لا أثر للحياة! وكأنّ يد الموت طالت حتّى الحجارة! شعر بأمعائه تتقلّص، ودوار لفّ رأسه، وارتعشت يداه فوق المقود.

أوقف السيارة، نزل منها، وتوغل في السّهل. كَمَنَ خلف شجرة قزمة، قضى حاجته، ونهض. شعر بالدوار مرّة أخرى، وتقيأ محتويات معدته. حاول أن يعود إلى السّيارة، لكنّ القيء أعجزه عن الحركة. مسح فمه بأوراق الشجرة، وجلس على حجر قريب؛ ليلتقط أنفاسه. تراءى له أنّ قنفذاً يسعى صوبه على عجل! أغمض عينيه، وفتحهما ببطء، رأى القنفذ مكانه لم يتقدّم خطوة! نهض على مهل، تقدّم صوبه، سكنت حركته، قرفص، وحدّق فيه مطولاً. حمل عوداً من الأرض، وضربه. لم يتحرّك. اكتشف أنّه أمام شجيرة بلّان[29] يابسة، اتّخذت شكلاً دائرياً، وخدعته!

عاد إلى السيارة، وجسده منهك من الإقياء، تجلّد، وقاد السيارة ببطء.. بعد عدّة كيلو مترات لاحت إحدى القرى المتناثرة في السّهل. رأى بعض الفلاحين يحاولون جرّ المياه من السواقي الممتدة على جانب الطريق الأيمن إلى البساتين المحيطة بقريتهم. منذ متى لم يرَ مثل هذا المنظر؟ بساتين الخضار، الخس تحديداً، تملأ السهل الأخضر الجميل، الأشجار المتفرقة، الشمس المائلة نحو الغرب.. وفؤوس تقلب التربة، وتشقُّ القنوات! توقف متأملاً المنظر، حتّى اقترب منه أحد الفلاحين، وسأله إن كان يريد شيئاً؟ أخبره أنّه بحاجة لخبز ودخان. أومأ الفلاح بيده إلى بداية الطريق المؤدي إلى القرية، وقال له: «في المدخل ستجد دكاناً يبيعك ما تريد.» ومضى إلى عمله!

خفق قلبه بشدّة، وهو ينزل من السيارة أمام الدكّان. كأنّ هذه القرية

(29) البلّان: شجيرة شائكة تنمو على شكل أجمة صغيرة. زهرها البنفسجي (آذار – نيسان) يتحوّل ثمارًا حمراء اللون. هي مؤشر بيولوجي صحيّ للأراضي. وتُشكّل مع نباتات أُخرى الغطاء النباتي الذي ينمو أولًا بعد حصول كوارث بيئية (حريق، انهيارات ...)

خارج التاريخ، لا حرب، ولا دمار، الناس يبيعون، ويشترون، ويزرعون أراضيهم، وكأنّهم ليسوا في سوريا!... ضحك في سرّه حين أصرّ البائع أن يعطيه علبة الدخان هدية، وفوقها علب سردين وعصير... لم يحتج لوقت طويل ليفهم الرابط بين لهجته وبدلته العسكرية، وكرم الفلّاح! أكل الخبز على مهل، ودخّن سيجارتين، قبل أن ينطلق بسيارته ثانية.

المهمة الأولى نفّذها بنجاح، في طريقه لتنفيذ المهمة الثانية، فاجأه منظر غريب قبل وصوله إلى ملتقى القناتين في موقع قرقور، كانت أكياس من النايلون الأسود تتطاير في الفضاء، والريح تدفعها إلى الأعلى، وتحطُّ بها بين الأشجار. لم تكن الأكياس صغيرة، بل من الحجم الكبير جداً، وكلّها مقصوصة بشكل مستطيل! بدت كأسراب غربان، تحجب الشمس، وتنبئ بالخراب.

كانت البساتين خالية من البشر، والمزروعات.. والزهرة الجهنمية احتلت السّهل بلونها الأخضر وزهورها المغرية. هل يجهل العقيد واقع الأمر؟ تساءل باستغراب، فقد كانت التعليمات الموجهة إليه واضحة لا لبس فيها (عليك أن تضع البذور في ثلاث نقاط ما تزال نقية وصافية. الأولى في دركوش، فالنّهر ترفده عين الزرقا في هذه المنطقة، وأطفاله يسبحون فيه بأمان! ثمّ تتّجه غرباً إلى سد العشارنة، لا شأن لكَ بالسد.. بل قبل ذلك، عند التقاء قناتي الصرف الضخمتين في موقع قرقور.. ارمها هناك، وهي ستتكفّل بسهل الغاب كلّه.

الموقع الثالث، قبل أن تصل «القصير» بعدة كيلومترات.. في القرية الثالثة أو الرابعة، اختر مكاناً خالياً من البشر، وانثر البذور هناك، لابدّ أن تصل. باقي مجرى النّهر لا يهمنا كثيراً، هنا الناس ما يزالون

يعبئون أوعيتهم من ماء النّهر، ويشربون منه مباشرة. أطفالهم يفعلون ذلك، وهم مطمئنون إلى نقاء المياه، وعذوبتها...).

حين سأل العقيد بتردّد: «ماذا لو لم أستطع، لسبب ما، الوصول إلى هناك، لماذا لا أرمي البذور في سد الرستن، أو سد محردة، النتيجة ستكون واحدة، الزهرة ستمد جذورها في سرير النهر في مطلق الأحوال، وربّما تستطيع تخريب السدود». غضب العقيد: «هل سأعطيك درساً؟ لست مضطراً للشرح، وليس عليك أن تسأل، أنت تنفّذ الأوامر فقط».

أدّى التحيّة العسكرية «حاضر سيدي»، ومضى. ما الضرر في شرح الأمر له.. على الأقل سيصبح لديه خيارات أخرى في حال فشل المهمة! لم يكن يعلم أنّ على الضفة الشرقية لبحيرة «قطينة» عدّة منشآت صناعية، معامل الأسمدة، محطة توليد الكهرباء، الرحبة 623، والمخلفات السائلة التي تصل للبحيرة منها، والغازات والسموم الكيميائية المنتشرة كافية لتلحق الأذى المطلوب بالهواء، والبشر، والأراضي، والمزروعات. وحين يصل النّهر إلى الميماس، تقوم مصفاة البترول في حمص بالمهمة المطلوبة.. والمصفاة ليست وحدها، بل تساندها محطة معالجة مياه مجاري المدينة التي تعتمد مبدأ المعالجة البيولوجية بطريقة الحمأة المنشطة المعادة، وتخرج المياه المعالجة إلى العاصي!

فجأة لاح له من بعيد حاجز لا يرفع العلم السوري، أوقف السيارة بسرعة، جعلت رأسه يرتطم بالزجاج.. أيّ فخ نصب له هنا! لم ينتبه إلى الحماقة التي ارتكبها، فهو لم يتبع الخريطة المرسومة له بدقة، كي يتجنب حواجز الجيش الحر، أو الكتائب الأخرى. استدار، وعاد

من الطريق نفسه، حين ابتعد بما يكفي ليطمئن قلبه، تبسّم في سرّه «ليس ضرورياً أن أنفّذ الأمر، الطيور تقوم بالمهمة أفضل مني!».

حين وصل خضر إلى «العطشانة التركية» كانت زهرة النيل[30] قد سبقته إلى هناك.. وابتلعت مياه العاصي، وحلّ الجفاف في «العطشانة» وركدت المياه، وانتشر البعوض القاتل في المكان!

(29) النبات من الأدغال المائية الطافية، يعوم بواسطة طوافات ينشرها على سطح الماء. سيقانه قصيرة طافية عادة ولكنها قد تكون مجذرة في الطين عندما يكون عمق الماء ضحلا، وأحياناً تكون مدادة، وتتكون على العقد والأوراق. وهي ذات أعناق منتفخة جداً تعمل كأشرعة في الريح. الأزهار على شكل سنبلة، قد تصل إلى أربعين زهرة. وتكون الثمرة على شكل علبة غشائية ذات ثلاث حجرات، تتفتح، لتنثر البذور التي قد يصل عددها الى 50 بذرة! موطنها الأصلي حوض الأمازون. يتكاثر النبات بواسطة المخلفات الزراعية، وكذلك البذور التي يصل عددها الى 5 آلاف بذرة، وتبقى محتفظة بحيويتها لمدة 15 سنة، وقد تنتقل بواسطة الطيور المهاجرة!

المكافأة

ربت العميد كتف خضر قائلاً: «يدك خضراء ما شاء الله، سبقتك الزهرة إلى تركيا. قل لي ألم تلحظ شيئاً غريباً هناك؟ ألم يحاول المزارعون اقتلاع العشبة، هل يوجد آلات هناك تقوم بذلك؟» قال خضر: «هناك مساحات كبيرة نظّفها المزارعون، وبقيت في المصرف الجديد في منطقة الغاب على امتداد ثلاثين كيلومتراً، وفي مجرى سد العشارنة ما يقارب عشرة كيلو مترات. أعتقد أنّ كلّ زهرة قادرة على تغطية كيلو متر خلال أشهر. وسيكون الأمر مقضياً خلال الربيع القادم. لكنّ الفضاء كان مليئاً بظاهرة غريبة. أكياس النايلون السوداء تغطي السهل تقريباً!». ابتسم العميد، وقال: «لا بأس، الرياح والطيران كفيلان بإفشال مهمتها.». لقد فشلت المهمة فعلاً، فلم يستطع المزارعون تغطية العشبة لمنع الضوء عنها، سوى لمساحات بسيطة، قامت الريح بدفع الحجارة، واقتلاع الأكياس، وعاد الضوء ليمنح العشبة الحياة.

لم يتوقع خضر أن تكون مكافأته على رحلته صاعقة هكذا. ففي

مساء ذلك اليوم، قرع الباب، وأخبره الطارق، أنّ عليه السفر إلى «العطشانة» في الرقة، لأمر مهم. كان يظنّ أنّ عهده بالرقة قد انتهى، وأنّ مهامه ستكون خارجها. ماذا يريد الأمير منه؟ ألم يتفق مع العقيد أن يبقى حيث يكون. ارتدى ملابسه على عجل، وخرج.

لم تكن المكافأة تستحق عناء السفر، والبقاء في منطقة صحراوية لا حياة فيها. دفعها إليه الأمير قائلاً: «هي هبة لك، تتّخذها جارية، أو تتزوّجها، أنت حرّ». أنت حرّا! لعبت الكلمة بأعصابه دقائق طويلة.. «أنت حرّا!» أكان طيلة تلك السنوات عبداً، ولم ينتبه؟ وإلى أيّ حدٍ هو حرّ؟ هل يستطيع قتلها مثلاً، ورميها في الهوتة؟ من قال للأمير إنّه يريد امرأة؟ إنّه لا يطيق سيرة النساء، فكيف بالعيش معهن؟

في صباح اليوم التالي، وبعد أن قضى ليلته على حصير في غرفة منفصلة عنها، جاءت نساء الأمير، وجواريه لزيارة العروس.. فوجد الفرصة سانحة لمغادرة البيت. لا يعرف ما الذي جعله يذهب إلى الحرش ثانية! الذكرى البشعة، على عكس توقعه، لم تحرّك فيه شيئاً. الحريق قضى على مساحة كبيرة من أعواد الزَل، وبات المكان عارياً، وبشعاً.. ركب السيارة ثانية، أغلق النوافذ، وراح يدخّن بشراهة؛ متعته الوحيدة المتبقية في هذه الدنيا الغريبة.

اختلت زوجة الأمير بآناتا، وسألتها كيف وجدته؟ فعلمت أنّه لم يقترب منها. قالت لها ناصحة: «عليكِ أن تجبريه على معاشرتك إن كنت تريدين البقاء هنا، وأنت تعلمين أنّه لا يوجد أمامك سوى معسكر التدريب، إن لم تنجحي في إغوائه». لم تكن بحاجة للنصيحة، فهي تعلم أنّ بعد دخول الأمير عليها، بقي أمامها طريقان، إمّا أن تحظى

بزوج، أو تذهب إلى معسكر التدريب. حتّى ليلى زوجة الأمير، كانت ستلقى مصيرها، لو لم تمتلك الأمير بجمالها وذكائها. كانت تشبّهها بشهرزاد، تلك التي غلبت الملك بالحكايات، وهذه تغلب الأمير بسعة الأفق والذكاء، والمخططات التي لا ينضب معينها. ليلى أيضاً مثلها، اختطفت في حلب أثناء عملها ناشطة في مجال الإغاثة، بعد أن خرجت في مظاهرات كثيرة ضدّ النظام، وانتشرت صورها على صفحات موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك، وعلى اليوتيوب. لم يكن اختطافها عشوائياً، الأمير أرسل رجالاً لاختطافها بشكل شخصي، لكنّها لم تكن وحدها، أتوا بها، وبالشاب الذي يرافقها. هو كان مصيره في قعر الهوتة، وهي صارت زوجة للأمير!

النساء حول آناتا كنّ يتهامسن أنّ الشاب الذي كان برفقة ليلى وقت اختطافها خطيبها، وكنّ يستغربن كيف رضيت أن تصبح زوجة لقاتله! إحداهن قالت، إنّها لو كانت مكانها، لاختارت الموت معه. كنّ يثرثرن كثيراً، وينظرن إلى آناتا بلا مبالاة. لكنّها حين نطقت أوّل كلمة بالعربية أصابهن الخرس. وجمدن في أماكنهن. ثمّ بدأن يتقرّبن منها، ويسألنها، من أين، وكيف جاءت؟ وأين تعلّمت العربية؟ قالت لهنّ إنّها إيطالية، وعرّابتها عربية، علّمتها اللغة، وسمّتها آناتا التي تعني كريمة بالعربية، وهو اسم شقيقة عرّابتها التي استشهدت في الثمانينات بأحداث حلب. نهضت امرأة من الموجودات كالملسوعة، وأمسكت بها، هزّتها بقوة، وسألتها: «ما اسم عرّابتك؟ أهي فضيلة؟». خافت آناتا، وحاولت التملّص من ذراعي المرأة الّتي أجهشت بالبكاء فجأة، وقالت: «ألهذا الحدّ الدنيا صغيرة؟».

جنان كانت واحدة من النساء اللواتي اعتقلن، لإصرارهن على التظاهر أمام مقر داعش في مدينة الرقة، للإفراج عن أولادهن المعتقلين. وقد جيء بها إلى هنا لخدمة نساء الأمير!

كانت جنان في الثلاثين حين تخرجت من كلية الطب أخيراً، ودُفعت للعمل في الريف ككل خريج عليه خدمة الأرياف قبل أن ينتقل إلى المدينة، وأُبعدت إلى ريف الرقة، واستقرّت في ناحية سلوك، ولم تشأ العودة إلى حلب بعد انتهاء خدمتها. بعد مضي خمس سنوات على عملها في الناحية، وظّفوا شاباً جديداً، بدل العجوز الذي كان يقوم على خدمة الأطباء وتنظيف المكان. الشاب عمل آذناً في المستوصف، وممرضاً خارج أوقات الدوام، وكان طامعاً بالزواج من الدكتورة لتحسين وضعه، وحين لم يجد منها قبولاً تحرّش بها ذات صباح، وكانت أوّل الواصلين إلى المستوصف! الغريب لم يكن ما قام به بل ردّة فعلها. صحت فجأة على أنوثتها التي دفنتها مع فايز. في البداية اندفعت كمراهقة لقصّة الحبّ الّتي أقنعها الشاب بها، لكنّها انتبهت فجأة إلى فارق السن بينهما، والذي سيجعل الزواج غير متكافئ. الشاب ظلّ يلاحقها، حتّى وافقت أخيراً.

بعد إنجابها لطفلها، ساءت العلاقة بينهما، فقد كانت جنان حريصة على عدم التفريط بمدخراتها الّتي ألحّ عليها، كي تضعها في مشروع يشاركها فيه. رجعت في أحد الأيام إلى البيت، لتجده قد باع الأثاث، وهرب بمدخراتها، وذهبها! الأخبار التي وصلتها فيما بعد عنه، كانت سيئة جداً. لكنّها لم تهتم، ولم تفكّر فيه، نذرت حياتها لتربية ابنها الذي خرج مع الشباب في بداية الثورة مطالباً بالحريّة، حُمل على

الأكتاف، وغنى أغاني القاشوش. وحين دخل تنظيم الدولة الاسلامية البلدة اعتقلوه مع ناشطين آخرين، ولم يفرجوا عنه حتّى اللحظة.
روت حكايتها لآناتا، وهي تنشج من دون دموع، فقد جفّ دمعها من كثرة البكاء.. كانت آناتا تعرف الجانب الذي لم تروِه جنان من حكايتها..
اكتملت الدائرة الآن.. وأطبقت على الموجودات جميعهنّ.. صرن داخلها، تقتلهن الحكاية، وكابوس انتظار المصير. أرادت أن تسأل ليلى، كيف تستطيع النوم مع رجل، هي على يقين أنّه قتل حبيبها. لكنّها تعلم أنّ ليلى لن تجيب على هذا السؤال، قالت: «يبدو أنّي سأذهب إلى معسكر التدريب، خضر ليس رجلاً يمكن إغواؤه، أشكّ أنّ لديه ميولاً مثلية!». قالت ليلى: «ولو، عليكِ المحاولة، ستذهبين إلى الموت».
قالت آناتا: «وما الضير في ذلك؟ ألن أموت يوماً؟ أنا مؤمنة أنّ يومي لن يتأخر ثانية واحدة، فلأذهب إليه، فإن شاء الرب موتي، أنا راضية، وإن لم يشأ، سينقذني بطريقة ما». استغربت ليلى ما قالته آناتا، أهو تأثير ما تعلّمته هنا؟ أم تراه جهلها هي بالديانات الأخرى! ربتت كتفها بودّ، وقالت: «أعرف أنّك تصفينني بالجبن، كما أعرف أنّ النساء يتقولن عني أشياء غير صحيحة، لكنّي أعذرهن، لا أحد يعرف ما بنفس الآخر، هنّ يعرفن ظاهر الأمر، ويحكمن عليه. أتمنّى من قلبي أن تكوني حرّة، وتعودي إلى بلادك».
لم يكن ذلك اللقاء الأخير مع ليلى، فقد رأتها مرّة أخرى في جولة الأمير التفقدية للمعسكر. دخلت على النساء، وحاضرت بهنّ عن الجهاد، وتحدّثت عن نساء الرسول، والصحابيات. ثمّ وجهّت إليها الحديث متمنية لها النجاح في مهمتها!

حين غادرت النسوة المكان كانت آخر واحدة، لثوان معدودة ضغطت ليلى كفها بطريقة تبدو غير مقصودة لكنّها تحمل حناناً غريباً جعل جسد آناتا يرتعش.. همست قريباً من أذنها «سألقى مصيرك بعد أن آخذ بثأري».

سنوات التيه

كان الجوّ بارداً وجافاً، والرّيح تصفر بشدّة، حين عبر الثلاثة الحدود، وتوغلوا في الخلاء الصحراوي. لم يكن لدى أحدهم فكرة واضحة عن المكان الذي سيذهبون إليه، ولا عن الشخص الذي سيستقبلهم، ولا عن طبيعة المهام التي سيقومون بها! كلُّ ما يملكونه، اندفاعهم الصادق، ورغبتهم الحقيقية في الجهاد ضدّ المحتلين الأجانب الذين جاؤوا من أقاصي الأرض؛ للقضاء على الإسلام، ودعم إسرائيل. كانوا على يقين أنّ هدف هؤلاء ليس النّظام العراقي بما يمثله من تسلط ووحشية، بل الهدف الإسلام أولاً وأخيراً.

لم يكن مهماً بالنسبة لخليل أن يعرف شيئاً عن رحلته، فقد شعر في اللحظة التي اتّخذ فيها قراره بالذهاب إلى العراق، بأنّه انفصل نهائياً عن حياته السابقة، ولم يعد يربطه بعائلته الصغيرة، زوجته وابنه، أيّ رباط عاطفي، فالقضية الّتي ضحّى لأجلها بما يملك، وبما تملكه زوجته، أهم بكثير.. وإن كُتب له عمر، وعاد إلى بلده يوماً ما، سيسامحه ابنه على ما قام به، وسيفخر به. أمّا جنان فليست

في القلب، ولا الروح، ولم يشعر يوماً بأنّه ينتمي إليها، أو أنّهما حتّى زوجان! ربّما لم تعلم جنان، ولم يشأ أن يخبرها، بأنّ خطأها القاتل بتسميته باسم رجل آخر في أوّل ليلة لهما، حين كانا في الفراش، قد بدّل حبّه لها إلى كراهية، ولم تعد تعني له أكثر من راتب يقبضه آخر الشهر، وبيت يأوي إليه، وطعام فاخر تعده له. كانت جنان تتمتّع بكلّ الصفات التي يتمنّاها الرجل في الزوجة التي ستشاركه حياته. الشكل الحسن، والفهم، والراتب الجيد، وفوق كلّ هذا كانت فنانة في تحضير الطعام، ومهووسة بالنّظافة! كلُّ تلك الصفات أصبحت لا شيء في نظره، وبقي في نفسه حسرة، تحوّلت مع الأيام إلى شكّ ورغبة في معرفة غريمه، من دون جدوى! تخيّل له أحياناً أنّ غريمه طبيب عشقته جنان وتركها فاختارت العمل في الريف؛ لتبتعد عنه. لكنّ تخيلاته لم تأتِ بحل طالما بقي عاجزاً عن مواجهة جنان وسؤالها عن الحقيقة. بقي اسم فايز يشكّل له أرقاً مصحوباً بالنفور من الأشخاص الذين يحملون هذا الاسم، وشكّاً بأن يكون أحدهم على علاقة بزوجته، خشي مع الأيام أن يتحوّل شكّه إلى حقيقة، على الرغم من أنّه هجر فراشها منذ ذلك الوقت، وظلّ يخترع الأعذار للابتعاد عن البيت، حتّى صارت التغيرات على جسد طفله وهو يكبر سنة بعد أخرى مفاجئة له! فقد كانت مؤشراً على عدد السنوات التي عاشها مع جنان بعيداً عنه! ويبدو أنّ جنان قد راقها الأمر فلم تكن تبدي تذمراً أو احتجاجاً لغيابه عن البيت، وعن فراشها، فزاد شكّه، وأرقه. جاءت فكرة الخلاص تسعى على قدميها، حين أخبره صديقه ذياب الحردان أنّه مدعو آخر الأسبوع إلى سهرة في «البر» عند شيخ عشيرة من أقارب زوجته،

وأنّه سيكون سعيداً لو رافقه. كانت الدعوة بداية تورط خليل، أو خلاصه! ففي تلك السهرة علم أنّ ذلك الشيخ يقوم بعمليات تهريب عبر الحدود، مسهّلاً العبور للشباب الذين يريدون الذهاب للجهاد في العراق. الشيخ «مشعل» نأى بنفسه عن التورط المباشر في أيّ عملية تهريب، فقد كان يعمل وسيطاً لجهات مجهولة تقوم باستقطاب الشباب، والعبور بهم، وتأمين السلاح اللازم لهم، ثمّ تسلّمهم في العراق لأشخاص آخرين، يقومون بإعدادهم وتدريبهم، وإرسالهم في المهام الخاصة. فوجئ خليل بعد فترة زمنية قصيرة بصديقه يطلب منه مبلغاً من المال على سبيل الدين؛ لأنّه يريد شراء سلاح، ليذهب للجهاد في العراق. استغرب خليل ذلك الطلب، وسأله، أليس من المفروض أن تعطيه الجهة التي سينضم إليها سلاحاً؟ هذا ما فهمه من الشيخ مشعل! همس له صديقه بأنّ الشيخ مشعل لا يعلم بالأمر، وبأنّه لن يوافق على ذهابه إلى العراق لذا؛ تعرّف هو بشكل مباشر على أحد المهربين، ووعده أن يأخذه إلى العراق مقابل مبلغ من المال، وليس مسؤولاً عن تأمين السلاح! قرّر خليل أن يطلب المبلغ من جنان على الرغم من يقينه أنّها لن تعطيه قرشاً زائداً عن المصروف المحدّد للبيت. وكما توقع، انفجرت جنان في وجهه، ووصفته بأنّه انتهازي، واتكالي، ولا يصلح لشيء! وهذا ما جعل خليل يرفع صوته لأوّل مرّة، ويكيل لجنان الاتهامات من دون رادع، وأولها الخيانة! صعقت جنان، واحتاجت لوقت طويل بعد خروجه من البيت، لتستوعب ما يقصده، وتفهم طبيعة العلاقة بينهما، والأسباب التي أدّت بهما إلى الانفصال الروحي والجسدي طيلة عيشهما المشترك تحت سقف واحد! إذن كان

خليل يخفي كلّ هذه الكراهية، ويسايرها، ويعيش معها فقط لأجل مصلحته! إذن كان يعرف أنّها تحبّ شخصاً اسمه فايز، وهذا ما وضع الحاجز بينهما، وعمّق الهوة، ووسّع الخلاف! لكن ماذا يفيد جنان أن تفهم، بعد هذه السنوات، كلّ هذا دفعة واحدة!؟ لم يعد هناك أيّ فرصة لإصلاح علاقتهما، ولم يكن ضرورياً، بالنسبة لها، أن تشرح الأمر لخليل، أو تعتذر منه، فهي ما زالت ترى علاقتها مع فايز تحتفظ بقدسيتها، ولا يجوز لأحد أن يمسها، ويهينها بالكلام عنها! وكانت على استعداد لأن تفقد علاقتها بزوجها، على أن تنكأ جراحها بيدها، وتفتح قلبها، ليعرف خليل من هو غريمه. لم يترك خليل الفرصة لجنان كي تقرّر، أو تتّخذ خطوتها الجريئة بطلب الانفصال عنه، فقد اختمرت الفكرة في ذهنه خلال ساعات قضاها وحيداً، قرّر بعدها أن يأخذ كلَّ شيء بالقوة، ويذهب مع صديقه إلى العراق!

قطعوا ما يقارب 200 كيلو متر، ونزلوا قريباً من الحدود، في المكان والزمان المتفق عليهما. انتظروا حتّى هبوط الليل، راقبوا الطريق، والأفق، وتسلّوا بالتكهنات حول ما سيجري لهم في العراق. خليل بقي صامتاً طوال الطريق، وحين فتحوا زوادة الطعام، لم يشارك رفيقيه، بدأ يشعر بالذنب الذي اقترفه بحق ابنه، وصار يرسم في مخيلته كيف سيتربّى يتيماً، الصورة اتضحت أكثر، وأخذت بعداً درامياً مزعجاً، فقد رأى نفسه عائداً من الحرب، عاجزاً، أو مشوّهاً، ورأى ابنه يدير وجهه عنه، ويرفض استقباله بل ويصفه باللص. كيف سيعيش بعد هذا؟ حين وصلت أفكاره إلى هذا المشهد، خفق قلبه بشدّة، ولم يستطع منع دمعه من الانسياب على خديه. لكزه ذياب،

قائلاً: «وحّد الله، ما زلنا في بداية الطريق، إن كنت تشعر أنّك تورطت معنا، بإمكانك أن تعود. نفى بشدّة أن يكون الأمر متعلقاً بندم أو رغبة في العودة، أو حتّى حنين لمن تركهم خلفه. قال بجفاء: «إنّه البرد، الريح شديدة وسط الخلاء، ألم يكن بإمكانه أن يعدنا في مكان آخر؟». قال ذياب: «بلى، لكن العبور من هنا أسهل، والمهرب يعرف بالتأكيد عمله.. ثمّ يا أخي نحن ذاهبون للجهاد، هل ستهزمنا الريح من أوّل الطريق؟» شعر خليل بالخجل، ولجأ إلى الصمت ثانية.

لم يتأخر المهرب عن موعده كثيراً، جاء بسيارة بيك آب، ومعه مرافق جلس بجانبه، وأمر الثلاثة بالصعود إلى الخلف، كان البيك آب مليئاً بالأغنام! انحشر الرجال الثلاثة بين الأغنام، وغطّوا رؤوسهم ببطانيات مهترئة. استسلم خليل لإغفاءة قصيرة، مرغماً، فقد مرّ عليه يومان من دون نوم. صحا بعدها على توقف البيك آب، بشكل مفاجئ، وسمع صوت المهرب يأمرهم بالنزول. لم يتبينوا حقيقة الأمر إلاّ بعد أن رأوا السلاح موجهاً إلى وجوههم! تقدّم مرافق المهّرب منهم، فتّش جيوبهم، وأخذ ما معهم من أموال، وأوراق، ثمّ أمرهم بالركض بعيداً عن البيك آب. لم يكن هناك فرصة للتفكير، ركض ثلاثتهم، كلّ واحد منهم كان يظنّ أنّه سيسمع صوت إطلاق النار، وأنّ الرصاص سيستقر في جسده خلال دقائق! لكنّهم سمعوا صوت العجلات، ورأوا البيك آب يبتعد!

لم يكن الليل قد انتصف بعد، حين لاحت لهم أنوار على بعد مئات الأمتار. توقفوا عن السير، وتباحثوا في الأمر، هل يتقدّمون؟ أم ينتظرون حتّى الصباح؟ قال خليل بنبرة يأس: «ماذا سنرى أكثر من

الموت؟ ونحن منذ خروجنا، نعرف أنّه قدرنا، فلنتقدم، لن ننتظر حتّى الصباح!». تبين لهم أثناء تقدّمهم أنّ الأنوار منبعثة من خيام للبدو الرُّحل. حين وصولهم، نهض عدد من الرجال، كانوا يتحلّقون حول نار أضرمت منذ قليل، وما زال لهيبها يرسل الدّخان! رحّبوا بهم، وسألوهم «من أين؟ وإلى أين؟». ربّما حسن الحظ ساقهم إلى «هيت» الواقعة غرب الرمادي، واكتمل حظهم بمقابلة مجموعة من رجال عشيرة الدليم الذين ما زالوا يعملون برعي الأغنام. والمفارقة التي جعلت الرجال يحتفون بهم أكثر أنّ ذياب ومطلق يحملان بالمصادفة اسم شيخين من أشهر مشايخ عشيرة الدليم، واللذين كانا يسيطران على ضفة النّهر اليسرى، ويحكمانها أيام الاحتلال الانكليزي، وقد عرف الشيخ ذياب الحردان العيثة بإثارة المتاعب في وجه الإنكليز. ساعدهم رجال العشيرة في الوصول إلى الرمادي، قضوا ثلاثة أشهر يعملون بطعامهم، حتّى تشكّلت كتائب الفاروق في مطلع شهر تموز فانضموا إليها، والكتائب هي الجناح العسكري للحركة الإسلامية العراقية. فُرز خليل إلى سرايا الاستطلاع، وذياب ومطلق إلى سرايا القتال، وافترقوا بعد أوّل عملية نفّذتها السرايا في الغابات الشمالية لمنطقة الفلوجة؛ ولم يعد يسمع شيئاً عن أخبارهما. كان نصيبه أن يذهب إلى ميناء البكر لجمع المعلومات تمهيداً للعملية الضخمة التي نفّذتها كتائب الفاروق، بقصفها لقوارب أمريكية حربية تقل عدداً من المهندسين الأمريكيين يعملون في مجال النفط. تلك العملية كانت آخر ما شارك به مع سرايا الاستطلاع التابعة لكتائب الفاروق، فقد تعرّف على أحد الإسلاميين المتشدّدين الذين شاركوا في تنفيذ عمليات في الرمادي،

والأنبار، ودعاه للعمل معه، وترك سرايا الاستطلاع الّتي تحوي، على حدِّ تعبيره، ما هبّ ودب. فهي كتائب غير متشدّدة، ووصفها المجاهد «أبو عبد الله السعودي» بالكافرة.. قال خليل نافياً ذلك الوصف عن كتائب الفاروق: «بل هم مؤمنون، فهم يقاتلون الأمريكان الأقوياء، والمجاهد المؤمن يقاتل بثقة مَن يعرف أنّه أقوى منه؛ لأنّه يحقّق النّصر الحقيقي.. ويتغلب على خصمه بقوة عقيدته، وسيُكتب له الخلود». قال له: «أنت تسعى للخلود على الأرض، أم للجنة؟» ردّ خليل: «أنا أجاهد في سبيل الله، لا أهتم كثيراً بالجهة التي أقاتل في صفّها، مادامت تقاتل العدو الحقيقي بهدف النصر». أسرّ لنفسه «كان لديّ جنان على الأرض، لم أعرف قيمتها يوماً!». لم يتوقع خليل أن يشعر بكلّ هذا الحنين للرقة وناسها.

بعد مضي سنتين على المعارك التي خاضها في العراق، فكّر أكثر من مرّة بالعودة، لكن إلى مَنْ يعود؟ وكان قراره بأن يصحب «أبو عبد الله السعودي» إلى بغداد، غير قابل للتراجع، لكنّه بعد سنتين من العمل في المفخخات، وتفجير السيارات في الأماكن العامة، بدأ الندم يسيطر عليه! لم يكن بحاجة للكثير من التفكير ليعي عبثية ما يقوم به، بالإضافة إلى قناعة جديدة صارت تغزو عقله «ما ذنب هؤلاء الذين يقتلهم؟ كلّهم من الناس البسطاء، لم يحملوا سلاحاً في وجهه، ولم يضروه يوماً، وهم في المحصلة ليسوا أمريكان!» لقد انحرفت البوصلة عن مسارها، وصار يشعر أنّه سيغرق في أتون حرب قذرة، جعلته قاتلاً بالمجان. خطؤه القاتل كان في البوح بأفكاره تلك، قال لأبي عبد الله يوماً: «أشعر أنّي جبان، وقاتل». ردّ أبو عبد الله: «بل أنت

مجاهد، تقاتل في سبيل الله، وتخرج منتصراً في كلّ مرّة». قال خليل: «الجبألّا يواجه إلاّ من هو أضعف منه؛ كي يتمكّن من النصر. هذا ما أفعله!». لم يكن النقاش مع أبي عبد الله مثمراً، فهو يعرف أنّه يناقش شخصاً مبرمجاً على فكر ثابت، وعقيدة متطرفة، غير قابلة للتطوير أو التغيير. وكان على يقين أنّ من الحمق انتظار ضربة الحظ لتحقق لهم النصر على أعدائهم.. فكّر بجدية أن يهرب من هذا الجحيم، ويعود إلى الرقة، كان يتخيّل أنّ ابنه الذي تجاوز العاشرة من عمره لا بدّ سيفهم أسباب غيابه، ويسامحه، لكنّ أبا عبد الله فاجأه بأنّ التنظيم اختاره لتنفيذ أضخم عملية استشهادية قرب مركز لشرطة بغداد. فهم أنّهم قرّروا التّخلص منه! لا يعرف إن كان عدم انفجار العبوة من حسن حظه أم من سوئه. قبض عليه في ذلك اليوم مع اثنين من الاستشهاديين، وأودع سجن «أبي غريب». سمع عن السجن في السنوات الماضية التي قضاها في العراق، ولم يخطر بباله أبداً أن يأتي اليوم الذي يجرّب فيه أساليب الموت المختلفة داخله، وفي كلّ مرّة تكتب له الحياة! الحياة الّتي لم يعد يحفل بها، وصار يكرهها، ويتمنّى الموت حقّاً. لكنّ الموت المخاتل لا يأتي حين نستدعيه، بل يفاجئنا على حين غرّة.

تُرك خليل في عذاباته خمس سنوات، حتّى حدوث المعجزة! أحد المعتقلين معه همس له: «حضّر نفسك لمأدبة الإفطار». ولم يضف شيئاً! كانت هناك حركة مريبة داخل السجن، بالإضافة إلى لمعة فرح لم تخفها عيون السجناء، ورنة أصواتهم الضاحكة! تساءل خليل «كلُّ هذا لأجل مأدبة إفطار جماعية؟». قبل الإفطار جرى التعداد

اليومي للسجناء، وجمعوا داخل السجن في الساحة العامة وسط رقابة شديدة. تناولوا الإفطار، ونهضوا بعد صلاة العشاء للعودة إلى زنزاناتهم، حينها سُمعت أصوات قصف في محيط السجن، لم تتح الفرصة بعدها للضباط والحراس باتّخاذ أيّ إجراء، فقد توالت الصواريخ على السجن، فهرب الضباط ليختبئوا، وسادت الفوضى فجأة، وعلت أصوات التكبير! فجّر انتحاري نفسه عند باب «الأحكام الثقيلة»، وقُصف برج المراقبة، وسادت الفوضى، انقطعت الكهرباء عن السجن، وحدث التفجير الثاني قرب السياج الرئيسي للسجن. التعزيزات لم تصل، استهدفت بكمائن على طريق الرمادي /بغداد. وكأنّ السجن قطعة من الجحيم، خلال ثلاث ساعات، قتل أثناءها أعداد كبيرة من الضباط، والشرطة، والمساجين الهاربين، وجد خليل نفسه في سيارة همر عسكرية تابعة للشرطة الاتحادية، وسط عدد كبير من المساجين الفارين! قبيل الصباح كانوا في «هيت».

على الرغم من الجوّ الحار والخانق، وارتفاع درجات الحرارة إلى خمسين درجة في ذلك اليوم، إلاّ أنّ خليل شعر بأنفاس الفرات القريبة تلفح روحه بالحنين إلى الرقة! لم يكن يتصوّر أن يعود بعد هذه السنوات إلى نقطة البداية، فبعد أيام قليلة، تسلّلوا عبر الحدود السّورية، وقصدوا «العطشانة!» يبدو أنّ النهايات دائماً تتبع البدايات، فقد وجد خليل نفسه في المكان الذي هرب منه قبل عشر سنوات، يتدرّب على السلاح مرّة أخرى، للقتال في العراق ثانية! لم يفهم الرابط الحقيقي بين هؤلاء المعتقلين الذين رافقهم في رحلة الهروب، وتنظيم الدولة الإسلامية التي وجد نفسه مجنداً في صفوفها!

لكنّ المصادفة التي جمعته بالطبيب «أبو ريان» جعلته يفهم أنّ العدو الحقيقي للدولة هو «الصحوات /الجيش الحرّ»، وليس النظام السوري! وأنّ تنظيم الدولة في طريقه لبسط نفوذه على مدن عراقية، وسيلغي الحدود بين سوريا والعراق، ويجعلهما دولة واحدة!

على الرغم من كون المجاهدين معه معظمهم من «المهاجرين» إلاّ أنّ خليل، حاول أن يشرح لهم أنّهم يقاتلون في الجهة الخاطئة! وأنّهم يقتلون إخوتهم. قال أحدهم: «لكنّهم أيضاً يقتلوننا، نحن ننتقم لقتلانا». قال خليل: «الانتقام لا يعيد الحياة إلى الميت، وفي النهاية أنت تقتل سورياً مثلك! هو أخوك، وربّما ابن عمك، أنت لا تحارب السلطة بل تدعمها، وتثبّت أركانها من حيث لا تدري». لم يعرف خليل أنّ هذا الحوار سيكون السبب في إعدامه مع تسعة عشر مقاتلاً آخرين، رفضوا قتال إخوتهم الثوار. لم يكن أمام خليل فرصة للعودة ورؤية ابنه، ودفنت جثته في قبر جماعي!

أم زوبعة

كانت السّيارة تطير بها، للحظات ظنّت أنّ السقف سينفتح عن فضاء أزرق، وسيتطاير شعرها الأشقر تاركاً للريح فرصة عناق مسامات جلدها، والتغلغل إلى روحها، لتصيح بقوة «أحبُّ الحياة».

مدّت يدها لتفكّ الحزام، وتطلق جسدها من أسر المقعد، دوّى في سمعها صوتٌ أصمّ أذنيها «توقفي، ماذا تفعلين؟ لن تستطيعي فكّه بمفردك، قد ينفجر بكِ» ارتخت يدها، وانكمش جسدها، وانتبهت إلى استحالة تحقّق أمنيتها. شيء غامض يشدّها بقوة إلى مقعد السيارة، وكأنّها جزء منه.. الحجاب السميك يحيط برأسها، وينسدل النقاب فوق وجهها، لا تبين منه سوى عينيها. كم من الزمن مرّ، ولم تمدَّ يدها إلى قلم كحل تزين به رموشها الكثيفة، وتخطّ به وراء الرموش لتبدو أكثر كثافة وجمالاً! ترى كيف يبدو وجهها بعد أشهر الأسر؟

نظرت في مرآة السيارة الجانبية، لم تستطع أن ترى سوى الطريق الهارب من عجلات السيارة، غبارٌ وأفق أصفر، ولا شيء سوى الصحراء! مع هذا كانت سعيدة لتخلّصها من عالم المدن الضيّق

المحدود بلا أفق! أوقفت السيارة في الخلاء، ونزلت منها. شعرت بضرورة أن تتنفّس هواءً طبيعي الحركة، بعيداً عن رائحة محركات السيارة. جلست على حجر تحت شجرة سدرٍ ضخمة، أغمضت عينيها للحظات، رأت بوضوح إكليلاً من «شوك المسيح[31]» ينغرز في جبهتها، وتسيل الدّماء. شعرت بملوحة شفتيها لزجة وكأنّها دم طازج! خفق قلبها بشدّة، وهي تفتح عينيها لتبعد الرؤيا المشؤومة عنهما.

نظرت في الأفق، لم يكن هناك أشجار سوى شجرة النبق التي تجلس في ظلّها! وحولها فقط حجارة. قالت لها عرّافة، التقت بها في رحلتها إلى الهند، «إنّ للحجارة روحاً» وهي ترى الآن كم من الأرواح تحيط بها! قالت لها يومها: «أراكِ في طريق يفضي إلى صحراء غريبة. في كلّ مكان في الخلاء الرهيب تعثرين على حجارة، تجنبيها يا بنيتي، فهي روحٌ تصلّبت، وانكمشت، وسكنت هناك أثناء عبورها المستحيل. الأرواح تسكن حجارة الصحراء، وقد تضطرين للعيش كحجر. حينها اتركي المشاعر جانباً؛ لأنّك لا تحتاجينها. إياكِ أن تسمعي أنين الريح من حولك! لأنّها ستسلب منكِ كلَّ رغبة في الحياة. وستجدين نفسك تتجمّدين، وتنتهين حجراً هناك». حَنّت[32] الرياح، وأججت في نفسها رغبة في العودة إلى ميلانو، ثمّ ما لبثت أن نّمت[33] وتغلغلت في أنفها رائحة شفلّح لم يظهر لناظريها، فشعرت باضطراب وريبة، الفضاء حولها غامض، ولا ينبئ بما سيكون عليه بعد دقائق.. فقد قصَفت[34]

(31) شوك المسيح، من أسماء شجرة السدر، أطلق عليها الاسم لأنّ إكليل الشوك الذي وضع على رأس المسيح ضفر من أشواكها.

(32) حَنَّت الرياح: صَوَّتت صَوتًا يشبه حنين الإبل.

(33) نمَت الريح: جلبت الرائحة.

(34) صوّتت عند شدَة هبوبها.

الريح فجأة، واشتدّ عصفها خلال دقيقة! سدّت أذنيها بحركة تلقائية.. أهي خائفة من نبوءة العرّافة؟ لماذا لا تسدّ الحجارة أذنيها أيضاً.. أهي حقّاً صمّاء؟ شعرت بالعطش والإجهاد.. التعليمات تقضي ألا تتوقّف لأيّ سبب، وأن تفجّر نفسها عند أيّ حاجز للصحوات، على الرغم من حرص المدرّب على تزويدها بتفاصيل الطريق وحركتها بدقة، والزمن الذي تستغرقه رحلتها إلى العالم الآخر! لم تلتزم بالتّعليمات، قوة خفية تمنعها من فعل ذلك! قالت لها العرّافة: «ستهيمين طويلاً في تلك الصحراء، وستشعرين بالعطش، إن أردتِ البقاء على قيد الحياة، عليكِ التحرّك ببطء كحرباء، وأن تتجنبي شعورك بالقيظ، لتتجنبي العطش!». ماذا لو نسفت نبوءة العرّافة، وتحرّكت بسرعة صوب أقرب قرية، وشربت ماء، وأكلت، و... لكن كيف والحزام الناسف يحيط بجسدها؟ كيف ستخفيه عن أعين الناس؟ أخذت قراراً بأن تتابع مهمّتها، لكن الزمن! هل سيسعفها بالوصول إلى الهدف في التوقيت المناسب؟ لماذا وفي هذا التوقيت بالذات، تهاجمها كلّ العواطف المليئة بالحنين، والّتي نأت عنها خلال شهرين من وجودها في مقر تنظيم الدولة، في ناحية سلوك؟ سفنت الريح، وعلا الغبار في وجه السيارة، ومنع عنها الرؤية.. اضطرت لإيقاف السيارة، وغزاها القلق، ماذا لو انفجر الحزام من تلقاء نفسه؟ لا، لن يحدث، فهي على يقين أنّها لا تريد ذلك.. وهي تتمتّع بطاقة إيجابية، ومؤمنة أنّ الطاقة الإيجابية تحرّض الأشياء -التي تعتقد أنّها موجودة- على الحدوث. وهي تنتظر الحبّ، ولا تعرف أيُّ حظٍّ سيء رماها في هذه الحرب المدمرة التي لا ناقة لها فيها ولا جمل. الحبّ والحرب، بينهما أكثر من رابطة

لغوية! الثانية تقوم؛ لأجل الأولى، والأولى لا يمكنها أن تفرز الثانية، أو تنتج عنها. الأقدار وحدها تقرّر في أيّ كفة ستضع كلّ شخص منا! حتّى قرار إنهاء حياتها بعملية استشهادية لم تأخذه بمطلق حريتها. والآن تقف الريح حاجزاً بينها وبين المضي إلى قدرها، أم تراها تقودها إلى قدرها؟ فهي لا تعرف بالضبط ماذا كتب لها القدر في نهاية هذا اليوم. الزوابع ما زالت تثير الغبار، وتديره، وترفعه نحو السّماء الملبدة بأطياف الرمل، وأشعة خجولة للشمس لا تكاد تبين. مرّت ساعتان حتّى توقفت العاصفة.. وبقي الأفق غير مرئي، الآن فهمت لماذا أطلقوا عليها اسم «أم زَوْبَعة»، تراءى لها طيف الزوبعة الدموية التي ستثيرها حين تسحب الصاعق، وتفجّر نفسها.. ماذا لو كان هناك خللٌ في توصيل الأسلاك الكهربائية! ماذا لو لم ينفجر الحزام!

اللقاء

كان القمر في المحاق، الظلام الدامس منعها من رؤية الجدار الذي بناه المسلّحون كحاجز بين الزقاقين، كانت تفكّر، وهي تلهث بشدّة «من أين يأتون بكلّ هذه الذخيرة؟» أربع ليالٍ عاشتها من دون طعام يسدّ الرمق، ولم تعِ كيف خرجت من وكرها. غامرت في عبور الشوارع الرئيسة بحثاً عن دكان يبيع أيّ نوع من الأطعمة، لعلّها تستطيع الحصول على شيء. لم تكن أنتونيتا تعرف من العربية سوى كلمات بسيطة، لكنّ بديهتها الحاضرة دوماً أسعفتها بالادّعاء أنّها خرساء. هذه المرّة، وعلى الرغم من الخطر، اندفعت خارج المنزل المهدّم الذي لجأت إليه من دون سبب واضح.. الجوع لم يكن كافياً لتخاطر بحياتها، وتخرج وسط اشتباكات عنيفة لم تعرف من، ولماذا، وكيف. فقط أحسّت أنّ عليها أن تخرج. لا تعرف البلدة التي دخلتها، ولم تستطع قراءة ما كتب على مدخلها. كلُّ ما تعرفه أنّ خاطفيها كانوا في طريقهم إلى «العطشانة» في العراق؛ لتسليمها هناك إلى أحد الأمراء، أو المجاهدين، أو لشخصية مهمة، دفع ثمنها مبلغاً كبيراً، هذا ما فهمته

قبل أن تخرج من مقر الإمارة في «سلوك».

طيلة المدة الّتي قضتها هناك، كان لديها إحساس بأنّ آناتا أيضا في المكان نفسه. لكنّها لم ترها! الآن تشعر بأنّها مدفوعة بإحساس غريب عبر الشوارع، والأزقة، وفجأة وجدت نفسها على الطريق المؤدي إلى خارج القرية! لم تكن وحدها، معها أفواجٌ من الهاربين، منهم من يمشي على قدميه، ومنهم من انحشر داخل بيك آب، تكوّم فيه العشرات مع أمتعتهم! كادت تخطئ، وتطلب منهم حملها معهم. صمتت، وسارت خلف الناس، فجأة توقفت سيارة بجانبها، أومأ لها السائق لتصعد في الخلف مع النساء، لم تفهم، أشارت إلى أنّها لا تسمع. فمدت إحداهن يدها، وساعدتها على الصعود. لم يكن الوقوف مع عدد كبير من البشر في سيارة مخصصة لنقل المواشي سيئاً بالقياس إلى البقاء داخل الجحيم.

المسافة إلى الحدود لم تكن بعيدة، تجمّع الناس قرب المعبر بانتظار أن يفتح، وكلّ واحد يريد أن يتخذ له مكاناً أقرب إلى الباب، كي يعبر قبل الآخرين! ابتعدت عن التجمع، وجلست بمفردها.. كيف ستدخل عبر الحدود؟ ليس لديها أيّ أوراق تثبت شخصيتها، لا جواز سفر، ولا بطاقة مدنية، ولا أيّ شيء آخر، وكلُّ ما استطاعت الحصول عليه من خاطفيها، بعد مقتلهم في اشتباك مع مسلحين من الجيش الحر، بضعة آلاف من الليرات السورية، والدولارات، لكن هذه النقود لا تنفعها في شيء. وهي بالكاد تستطيع التفاهم مع الناس بالإشارة! كانت قد وصلت في تفكيرها إلى طريق مسدود، حين حطّت يد على كتفها، جعلتها تنتفض، وتلتفت إلى الخلف.. لم تستطع أن تصرخ، خرس كلّ

شيء حولها. هل الغريزة إذن مَن يدفعنا إلى الإيمان بأمر ما غير قابل للتحقق! احتضنتها فضيلة وسط بكاء هزّ روحها، ولم تنطق الاثنتان!
في الوقت الذي مرّ بانتظار فتح المعبر، تبادلت أنتونيتا وفضيلة الحديث عمّا جرى لهما منذ دخولهما إلى سوريا، وحتّى لحظة اللقاء. غصة اللقاء الوحيدة كانت جهلهما مصير آناتا!
أصبحت الشمس وسط السماء، والحرارة لا تطاق، لكنّ النّاس لم يغادروا أماكنهم قرب البوابة! الجوع والعطش نال من الكثيرين، وعلا بكاء الأطفال، وتململت النساء، وصرن يصرخن احتجاجاً على حشرهنّ في مساحة ضيقة تمنع التنفس، ويتزاحم فيها الرجال. ثمّ نزل مطر غزير، أغرق كلّ شيء. ابتعدت النساء عن البوابة، صار همهنّ اللجوء إلى السيارات الواقفة عند المعبر، لحماية بعض أمتعتهنّ، وأطفالهن. توقف المطر فجأة، وأشرقت شمسٌ حارة من جديد، وانتشر البشر سعياً وراء تجفيف أنفسهم، وأمتعتهم.
جلست فضيلة وأنتونيتا في أقرب مكان إلى المعبر، بعد أن فتحتا حقيبتيهما، وأخرجتا منها الثياب المبلولة. قالت فضيلة: «الحمد لله، لم يعطب الكمبيوتر، الثياب ستجف، والصور أيضاً، والأوراق، سأعمل على نقل ما فيها إلى ملفات، وأمزقها». تنهّدت وهي تتابع: «ليت آناتا معنا، قلبي لا يطاوعني على السفر من دونها». قالت أنتونيتا: «أنا سأنتظرها، لن أستطيع السفر من دون أوراق رسمية وجواز سفر». قالت فضيلة: «لا تهتمي، سأسعى لإخراج بدل لك، سأتصل بالحكومة الإيطالية، وهي ستقوم بالإجراءات اللازمة». صمتت برهة، وهي تحدّق بالأفق، ثّم قالت: «لم تخبريني أنتونيتا، هل التقيتِ بالملازم

خضر؟». خفضت أنتونيتا رأسها متحاشية النظر في وجه عرّابتها، قالت بصوت هامس: «وما يهمّ يا أمّي؟ لا تزعجي نفسك بأمور باتت من الماضي، ولا تستحق اهتمامك». احتضنتها فضيلة، وقالت: «الملازم خضر قُتل يا أنتونيتا، وقد وجدت رسائل على هاتفه النقّال مرسلة من هاتفك، وهاتف آناتا، وهذا ما جعلني على يقين أنّ له يداً في اختطافكما». قالت أنتونيتا: «قُتل! حسناً، ليذهب حيث يشاء له الله، لكن لتعلمي أنّه ليس من اختطفنا، أنا لم أره أبداً، لكن ما دام هاتفي معه، ونقل منه صوراً ورسائل إلى هاتفه، فهذا يعني أنّه يعرف مكان آناتا، هاتفي بقي معها عندما اختطفنا من بيت الحجي». قالت فضيلة باستياء: «لم تخطفا يا حبيبتي، بل باعكما الشابان اللذان وثقتما بهما، عملية الاختطاف كانت تمثيلية، لذر الرماد في العيون. لكن كيف استطعتِ الوصول إلى تل أبيض؟». قالت أنتونيتا: «بعد خروجنا من «العطشانة» تعرّضنا لكمين نصبه مسلحون، أعتقد أنّهم من الجيش الحر، لقد سمعت المقاتلين الذين يرافقونني يقولون إنّهم وقعوا في أيدي «الصحوات» عبارة سمعتها كثيراً في «العطشانة» وفهمت أنّها تعني الجيش الحر. لقد قتل الرجال الأربعة الذين كانوا بصحبتي، أحدهم كان يتكلّم الفارسية، وآخر كان يتكلّم الإنكليزية، ولست متأكدة إن كان بريطانياً أم أمريكياً، فلكنته كانت غير محدّدة ولا انتماء لها! ولن تتخيّلي يا أمّي أنّ الرابع كان إيطالياً! أمّا المسؤول عني، وهو آخر واحد قُتل، فلم أسمع صوته أبداً، لم ينبس بحرف. لم أستطع أن أفهم، ماذا يفعل هؤلاء هنا، ومن يقاتلون؟ ولماذا؟ المهم أنّ المهاجمين اقتربوا من السيارة، وفكّوا قيدي، وسألوني من أين أنا

وإلى أين كنت ذاهبة؟ خرست. لم أستطع أن أجيب؛ لأنّي بالأصل لم أفهم بالضبط ماذا قالوا لي إلاّ بعد أن تطوّع طبيب يرافقهم بترجمة ما قالوه إلى الإنكليزية. أخبرتهم بكلّ شيء. حملوني معهم في السيارة، وأوصلوني إلى تلّ أبيض، ألححت كثيراً على الدكتور مصطفى أن يتركني معهم، وأخبرته أنّي أجيد التمريض، وأعرف عمل الإسعافات الأولية، لكنّه رفض، قال لي، إن كتب لنا عمر، وعدنا من مهمتنا، سأمرّ بالبلدة، وآخذك للعمل معنا. حين سألته، أين يعمل؟ أخبرني أنّه يعمل هنا في المعبر، لكنّه يخرج في مهام كثيرة. حين وصلنا، قال لي، انتبهي إلى نفسك، لقد كُتب لكِ عمرٌ جديد. من يقع بيد داعش لا أمل له في النجاة، حتّى لو كان صديقهم! كان حديثه صادماً لي، صحيح أنّي عشت بينهم، وأعرف أنّه على حقّ، لكن لم أتصوّر أن يصل بهم الإجرام إلى قتل أصدقائهم، ومن يعملون معهم! حكى لي الطبيب مصطفى، كيف قتلوا الطبيب «أبو ريان» ومثّلوا به. إنّها حربٌ قذرة بكلّ المقاييس. لكن مع كلّ المآسي الّتي رأيتها، هناك أمل، مادام أمثال الطبيب مصطفى يمتلكون الأمل.. تعلمين يا أمّي، لقد أحببته، فيه شيء مميز، أجمل من أبي بكثير!». تنبهت حواس فضيلة، رجل في عمر والدها، لكنّه أجمل، وطبيب، واسمه مصطفى! خفق قلبها بشدّة، وهي تطلب من أنتونيتا أن تصفه لها، الصبية وصفته بدقة، جعلت فضيلة تشعر بدوار. مصطفى! هنا؟ وعلى بعد أمتار منها.. كم هو صغير هذا العالم!

لم يكد الازدحام يخف حول البوابة، حتّى وصلت سيارة، توقفت بشكل مفاجئ قرب حاجز المسلحين. السيارة تقودها فتاة محجبة،

لفت انتباه فضيلة أنّها صاحت بالرجال، كي لا يقتربوا منها. لكنّهم لم يستجيبوا، اقترب أحدهم، وسألها عن شيء ما. نهضت فضيلة وأنتونيتا معاً، وقلبهما يخفق، وركضتا صوب السيارة. باقي المسلحين دفعوا الناس بعيداً، وشكّلوا حاجزاً بينهم وبين السيارة، صرخت فضيلة «كريمة»، وصرخت أنتونيتا «آناتا». التفت الرجال حولهم، وحاولوا إبعاد السيدتين، الفتاة صرخت ثانية: «ابتعدوا لا أريد أن يتأذى أحد». رمى الشاب سلاحه لصديقه، واقترب منها مع اثنين من زملائه.. قال بهدوء: «لا تتحرّكي، سنساعدك على خلع السترة.. انتبهي لنفسك.. رفعت الفتاة يديها، وهمست: «ماذا لو كان هناك خللٌ ما! ماذا لو انفجر من تلقاء نفسه!» ابتسم الشاب قائلاً: «اهدئي، كفاك هذياناً، لن ينفجر، ما دمتِ لا تريدين ذلك».

قالت: «لا أريد.. لا أريد.. لكنّه يريد.. قالوا لي، إنّ الله يريد، وإنّني لن أنجو من إرادته!

ونفخ في الصور

هل أخطأنا التقدير حين اعتقدنا أنّ من سيرث الأسد قد لا يعاملنا المعاملة الحسنة نفسها؟ هل استعجلنا الرحيل من سوريا؟

كتب آرام تلك العبارة على صفحته في الفيس بوك، معاتباً نفسه ولائماً. وأيضاً لأنّه لم يتمسك بالفرصة الذهبية الّتي قدّمها «الابن» حين استقبلهم في القصر الجمهوري عام 2004. لكن يا ترى ألن يقوم الشوفار بالمهمة المرجوة منه حال غيابهم؟ أم أنّ فرصة العودة للاحتفال بالعيد الماسي ما زالت سانحة؟ المشكلة ليست في إمكانية العودة بل بالعودة ذاتها، فهو لا يريد أن يتواجد في منطقة قتال وصراع قبل أن تنجلي الأمور، وينفخ الصبي بالشوفار من القصر الجمهوري معلناً النصر المؤزر. هل سيحدث ذلك خلال السنوات التي تفصله عن اليوبيل[35] الماسي لاسترجاع فلسطين؟ ماذا لو تمّ النصر في تلك السنة، واستدعى الشوفار[36] الأمةَ اليهودية من جميع أنحاء الأرض لدخول الشام؟

(35) اليوبيل: قرن الكبش، كان اليهود ينفخون فيه في مواسمهم الزراعية../قطني، بعد عام/قشي، عامين/ خشبي، خمسة أعوام/نحاسي، 15/فضي،25 / لؤلؤي، 30/ ذهبي،50/ماسي،75.

(36) الوفد اليهودي الذي زار سوريا عام 2004، أهدى الرئيس قرن كبش «الشوفار»

لن يحتاجوا وقتها للتمويه والنفخ ثلاثين مرّة، أو مئة مرّة في المعابد. سينفخ تسع مرّاتٍ فقط.. وسيتشوش الشيطان، وتنسف مؤامراته ضدّ اليهود. ليتهم كانوا يدرون أنّ الحلم سيتحقّق على يديه! لكن، هل حقّاً لا يدرون!

يكفيه أنّه يدري، وهذا جعله في مواجهة حقيقية مع وضعه في بروكلين، فقرّر السفر إلى إسرائيل! ليكون قريباً من أرض أجداده، ومسقط رأسه. لم يشأ أن يسكن في المدن، فضّل أن يبقى في جبال القدس، يطلّ عليها من بعيد، بانتظار اليوم الموعود.

حين اقتلعه من الرأس، سالخاً الجلد تحته، كانت الفكرة في ذهنه قد اختمرت، فالرب لن يسمع صوته الضعيف، لكنّه سيسمع «هتاف بوقه». اتّخذ له فتحة طلاها بمعدن الفضة، فلم يكن يملك من المال ما يكفي لطلاء مبسم بوقه بالذهب. نفخ فيه ببطء، خرج الصوت خافتاً ومحشرجاً.. أعاد صقله من الداخل بسكينٍ حادّة، ونفخ فيه ثانية، بقوة أكبر.. ترامى الصوت إلى السّهول البعيدة، واجتمع القطيع قاصداً التل! فكّر أنّ الرب عوّضه عن كبشه الذي قدّمه قرباناً في عيد «تروعة[37]». حين جاء رجلٌ يطلب قطيعه، استغرب أن يتعدّى ذلك الرجل على إرادة الرب.. وقع بينهما شجار، ذهب الرجل ضحيته..

لم يكن الأمر مهماً، فهو مجرد عربي معتدٍ، شاء الرب أن يعاقبه لتجرئه على إرادته. استمرّ في النفخ منذ غروب الشمس وحتّى توسط القمر قبة السّماء مرسلاً نوره في أرجاء البلاد، داعياً اليهود للاحتفال

(37) تروعة «هتاف» وهو عيد رأس السنة، أو «عيد ميلاد العام»

بعيد الكفّارة. صار لديه ما يكفي لإقامة محرقة الصباح والمساء، وحتّى قرابين رأس الشهر.. ويزيد من القطيع ما يكفي للاستمرار في العيش داخل العزلة التي اختارها بعيداً عن صخب المدينة. من هنا، سيكون أوّل من يسمع نداء النصر، وأوّل الواصلين حين ينفخ الرب ليجتمع شعبه المختار عند خيمته! لكنّه قبل ذلك، سيكون أوّل الواصلين إلى دمشق، وسيحتفل في حلب، بالعيد الماسي لقيام إسرائيل.

خنفسة زهرة النيل

قال المهندس جمال، وهو ينظر إلى السّهل الأخضر وسط شمس تشرين الثاني الحارقة:

«ربّما لم يكن حقداً تجاه البشر ما فعَلَتْهُ، لكنّها رغبة غامضة في القتل، رغبة في البقاء وحيدة على عرش الحياة. لم تعرف أنّ البقاء يحتاج لأسباب، وأنّها في طريقها لقتل كلّ سبب يجعلها باقية! إنّها لعنة الكادميوم، تلك اللعنة التي تحوّل حالة العشق بينها وبين الماء إلى هوس في امتصاص المعادن الثقيلة من القاع، حيث تتشبّث جذورها بأسباب البقاء! منذ خُلقت، اندفعت بكلّ طاقتها لمحاربة أيّ شيء تجده في طريقها. كانت ربّة الجمال.. توّجت على عرشه، وتهافتت القلوب حولها، وسعت إليها ببذل المال، والرعاية، فانتقلت في أرجاء الدنيا، وحطت رحالها في أجمل بقع الأرض المائية، من الأمازون إلى النيل!.. نتحت الأوكسجين من الماء، وتركته راكداً تنتشر رائحته الكريهة، وتستقطب الحشرات الضارة. لم تتوقّف عن انتشارها

المحموم على مساحة آلاف الكيلومترات[38]، حاجبة الضوء عن نباتات النّهر الأخرى.. وتركتهم يموتون في العتمة. كما ترين.

الشّمس تتوسّط السّماء، الحرارة ترتفع، الجوّ يخنق كلّ لون أخضر، يجفّ، ويتقصّف، وتذروه ريح ساخنة، جافة.. وهي اللون الأخضر الوحيد المبهج للنظر الذي يستشري، ويمتدُّ حول النّهر وفي حوضه بشراسة.. لم يعد هناك أعشاب، لم يعد هناك مزروعات، هي فقط تأكل كلّ شيء، وتنهي الحياة من حولها. تمشي مع جريان الماء، تحتمي بالبردي والقصب على ضفتي النّهر. تبتسم من غبائنا حين نقول إنّها تشبه سرطاناً طافياً على وجه الماء؛ لأنّنا وخلال سنوات من التّجريف، والتّعزيل لمجرى النّهر، لم نستطع القضاء عليها! لقد أعلنّا عن عجزنا، وأطلقنا عليها صفاتٍ تبرّر ذلك العجز. فهي النبتة المعمرة، صاحبة القدرة على التكاثر المرعب، والتأقلم مع المياه الجارية والراكدة!

تنظيف خمسين كيلو متراً من الأسطح المائية أخذ منا ثلاثة أشهر! ليست المشكلة هنا. المشكلة أنّنا لم نقضِ عليها بشكل نهائي، وهذا ما جعلها تنتشر بهذا الشكل المرعب من جديد!»

تأملت فضيلة السّهل، وهمست «حقّاً يده خضراء!» التفتت إلى المهندس جمال قائلة: «ألا تعتقد أنّ انتشارها كان مدروساً إلى درجة يصعب معها القضاء عليها نهائياً؟». ردّ المهندس بحماس: «أنا لا تهمني الأسباب، ولا اليد الّتي قامت بهذا الفعل، يهمني ماذا سأفعل الألّاعيد إلى النّهر نقاءه وتوازنه، وجماله.. يهمني أن أرى السّهل مزروعاً بالقطن،

(38) تشغل النبتة الواحدة مساحة /2500م2 / في الموسم الواحد. تضاعف العدد بفترة من 5 إلى 18 يوم! الدراسات الحديثة في مصر، قالت. إنّ الزهرة تستهلك 3 مليار م3 من المياه سنوياً!

والقمح، يهمني الآن كيفية مكافحتها، والأهم اليد التي ستساعدني في حربي معها! ألا ترين؟ الكلّ حمل السلاح.. لم يعد هناك يد تعمل في الأرض، لم يعد أحدٌ يفكّر ببقية الأعداء الذين يهاجموننا من الخلف، ومن داخل التراب.. السرطان ينتشر بشكلٍ مرعب.. الحيوانات التي تتغذّى على النبتة، تنقل إلينا الكادميوم المسبب للسرطان.. أمامي مشكلة، وأريد حلها بعيداً عن المسبب». قالت فضيلة: «إنّها حرب طاحنة، تأخذ في طريقها كلَّ شيء، لكنّك تظلم المقاتلين.. لا يستطيعون ترك أعدائهم من البشر ليحاربوا على جبهة أخرى.. حربهم مع البشر هي حربك نفسها، هم يحاربون الأسباب، وأنت تحارب النتائج.. أنسيت أنّك كنت منهم؟ أذكر لقاءنا الأول على الحاجز حين هربت من النظر إليّ»...

ضحك جمال، وقال: «يومها خفت أن يعرف رفاقي أنّك قريبتي، ماذا سأقول لهم حين ينظرون إليّ بشكّ واستخفاف؛ لأنّ المرأة الأجنبية المتبرّجة، قريبتي!» ابتسمت فضيلة، وغيّرت الحديث: «قل لي، ألم تجد إلى الآن طريقة تنقذ بها النّهر والسّهل؟». قال بحسرة: «تعلمين؟ لقد قهرتني هذه الزهرة، أكثر ما أخشاه أن أخسر حربي معها. وكلّما اشتدت الحرارة، زاد خوفي، السنة الماضية كانت الأمطار قليلة، والحرارة خانقة.. وهو ما يدفعها لاستهلاك الماء أربعة أضعاف مما تستهلكه في الطقس البارد. لديّ فرصة لمحاربتها، لكنّي لم أعرف مخاطرها بعد. سأطلعك عليها، تعالي معي».

نهضا معاً، وسارا إلى البيت، دخلا قبواً مظلماً، من الواضح أنّه كان مكاناً لنوم الحيوانات في زمن ما. فتح صندوقاً بحذر، وسلّط ضوء

المصباح اليدوي عليه.. كانت هناك خنافس تسعى محاولة تسلّق الجدران الملساء، من دون جدوى، وأسفل الصندوق مليء ببقايا زهرة النيل. أغلق الصندوق بسرعة، وقال: «هذه خنفساء زهرة النيل، وصلتني عن طريق أحد «المهاجرين» الذي جاؤوا للجهاد في سوريا، تلتهم الزهرة بسرعة عجيبة.. لكنّي لم آخذ قراري بعد في إطلاق سراحها في الحقول، ما زلت أدرس مخاطر وجودها على حياة النبات والإنسان. بالنسبة للطرق التقليدية الأمر محسوم منذ سنوات، لقد قمنا بتعزيل، وتجريف أقنية العاصي بالقرب من قلعة المضيق، وخطوط الري القريبة، بالتركسات، والبواكر، والزوارق، والشبكات المعدنية، واستخدمنا أدوات يدوية فردية، كلُّ فرقة كانت مؤلفة من خمسة وعشرين عاملاً، يستطيعون تجريف ما يقارب كيلومترين، أيّ ستة أطنان من النبتة السامة.. وكلّ عملنا ذهب هباءً! الآن لم يعد هناك بشر في السّهل، بعضهم نزح، وبعضهم في المعتقلات، والباقي على جبهات القتال. من سيساعدني في حربي؟». قالت فضيلة: «أنا معك.. إنّها قضيتي أيضاً، لي ثأر شخصي عندها.. لقد قتلت جدتي». دهش المهندس جمال، وسأل مستغرباً: «حقّاً! كيف؟ ومتى؟» قالت فضيلة: «هناك، على ضفاف النيل، منذ زمن طويل، خرّشت جلد يديها المصابتين بأكزيما، حين تشبثت بها، وهي تنزلق في مياه النيل». قال جمال: «شيء مؤسف.. لكن يدٌ واحدة لا تصفّق، نحن بحاجة لعمال، بحاجة لبشر، لنقتلعها من جذورها، ونجففها، ونضرم النار فيها، كي ننهي وجودها بأقل قدر ممكن من الخسائر[39]».

لم تكن فضيلة تتوقّع أن تعود أدراجها إلى سهل الغاب، لتجد كلّ هذا

الدمار... ولتلتقي الشاب الذي استوقفها منذ أشهر على الحاجز، وقال لها: «أنا من القاهرة، ولا أعرفك!» لم يخطر لها أبداً أن يكون المهندس جمال، الناجي الوحيد من عائلتها.. الذي وجد حربه الحقيقية في إعادة ماضي النّهر إلى ما قبل عصر الطغاة. كما لم تتوقّع أنّ هذيان آناتا سيتحوّل حقيقة، وينفجر الحزام من تلقاء نفسه.. محوّلاً الشابتين، وكلّ من كان قريباً منهما إلى أشلاء!

(39) عنصر فلزي لين قابل للسحب لونه أزرق يميل إلى البياض. الكادميوم يذوب في الأحماض، ولا يذوب في القلويات. المغلي ينتج عنه أبخرة صفراء سامة. يمكن أن يسبب مشاكل صحية جمة كالفشل الكلوي، وارتفاع ضغط الدم... يدخل في صناعة البطاريات والمفاعلات النووية، والأصبغة. يوجد في دخان السجائر، المخلفات الصناعية، والبلاستيك.. واستنشاق الدخان المحتوي على الكادميوم قد يؤدي إلى الالتهاب الرئوي، والوذمة الرئوية، ثمّ الوفاة. ويعتبر مادة مسرطنة. ويتعرّض له الإنسان نتيجة احتراق الوقود الطبيعي، واحتراق مخلفات البلديات....

نبذة عن المؤلّفة

روائية سورية. عاشت فترة في دولة الكويت وصدر لها مجموعة من الروايات والمجموعات القصصيّة من بينها: (نساء بلا هديل) و(المعراج) و(عين الشمس).